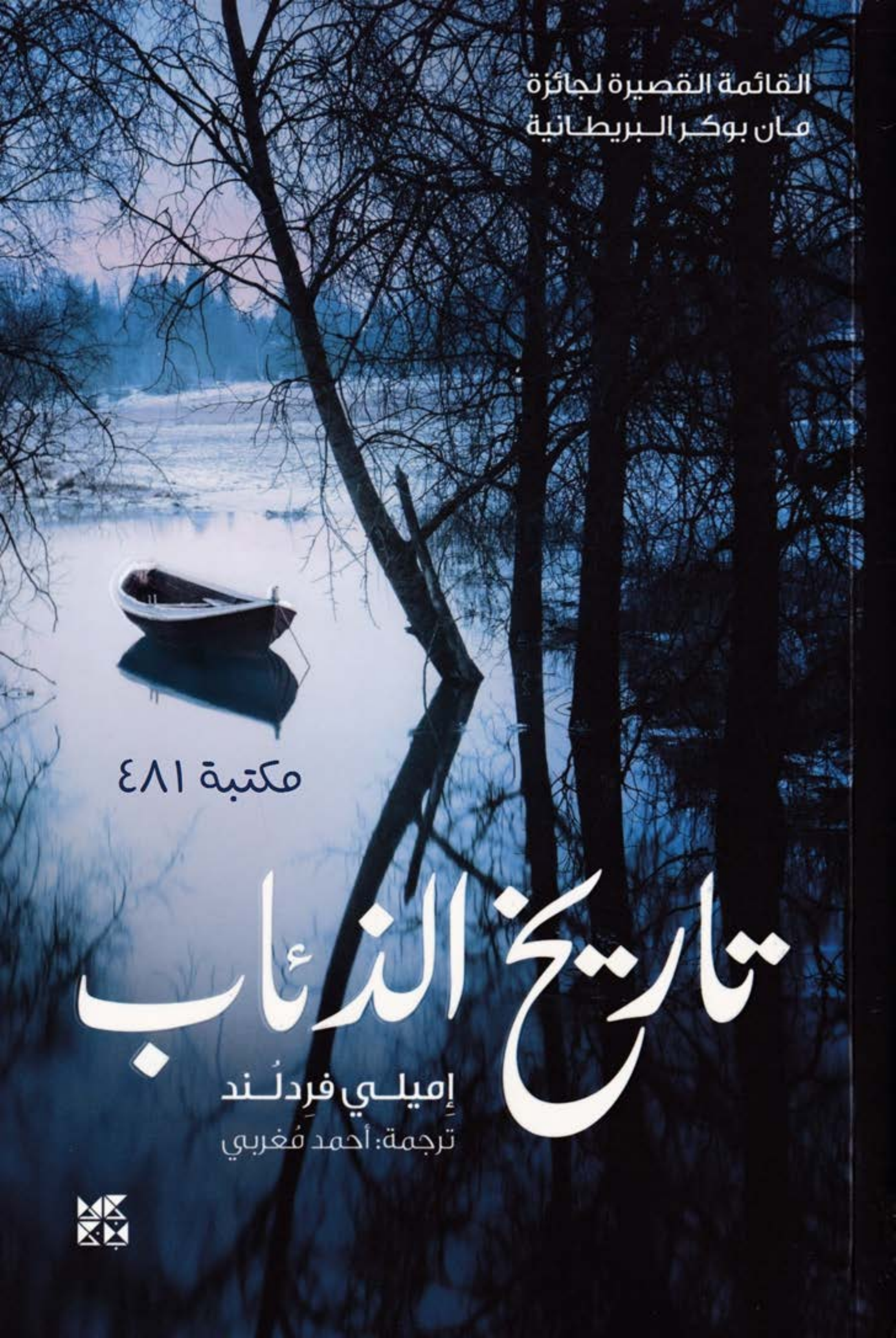

القائمة القصيرة لجائزة
مان بوكر البريطانية
مكتبة ٤٨١
تاريخ الذئاب
إِميلي فرِدلُند
ترجمة: أحمد مُغربي

تاريخ الذئاب

الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٨

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.hbkupress.com

History of wolves
First published in 2017 by Weidenfeld & Nicolson.
an imprint of the Orion Publishing Group Ltd

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٩٢٧١٢٩٥٦٨

تمت الطباعة في بيروت-لبنان.

مكتبة قطر الوطنية بيانات الفهرسة-أثناء-النشر (فان)

فردلند، إيميلي، مؤلف.

[History of wolves]. Arabic

تاريخ الذئاب / إيميلي فرِدلُند ؛ ترجمة أحمد المغربي. – الطبعة العربية الأولى. – الدوحة: دار جامعة حمد بن خليف للنشر،

2018.

صفحة ؛ سم

ترجمة كتاب: History of wolves .

تدمك : 978-9927-129-56-8

1. المراهقة – قصص و حكايات. 2. الانتماء -- قصص. 3. الاختيار (علم النفس) – قصص. 4. القصص الأمريكية – مترجمات إلى

العربية. ب. مغربي، أحمد، مترجم. ج. العنوان.

PS3606.R536 H57125 2018

813.6-dc23

2018 27087530

تاريخ الذئاب

مكتبة | 481

إِميلــي فرِدلُــند

ترجمة: أحمد مُغربي

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS

إلى «نِك»

«عندما تعي للحظة واحدة أن الحياة والذكاء هما شيئان روحيًان - ليسا داخل المادة ولا خارجها - عندها لن يتلفَّظ الجسد بأي شكوى».

ماري بيكر إيدي Mary Baker EddyK،
من كتاب «علم وصحة مع مداخل إلى الأناجيل»
Science & Health with Key to the Scriptures

«في المحصلة، لن أموت، ليس الآن، لكن سأمضي قدمًا لأحيا من الآن فصاعدًا، مذهولًا حقًا، مصغيًا بنصف أذن إلى الواقع، في الغرفة المُضَمَّخة بالنار التي أطلقتها إرادتنا غير القابلة للانطفاء».

تيموثي دونللي Timothy Donnelyy،
من كتاب «الذكاء الجديد» The New Intelligence

عِلْم

1

ليس الأمر أني لا أفكر في بول على الإطلاق. من وقت لآخر، يحضر إلى ذهني قبل أن أصبح يقِظَة تمامًا، رغم أني غالبًا لا أتذكر ما قاله، وما فعلته أو ما لم أفعله معه. في عقلي، أن ذلك الولد يسقط رأسًا إلى حضني. بووم. وعلى ذلك النحو أعرف أنه هو: ليس هناك اهتمام بي، ولا تردّد.

نجلس ذات ظهيرة متأخرة في «مركز الطبيعة» كالآخرين، ويتحرّك جسده أوتوماتيكيًا نحو جسدي، ليس بداعي الحب أو الاحترام، بل ببساطة لأنه لم يتعلّم بعد «آتيكيت» التنبّه إلى الحدّ الذي يجب أن يتوقف جسده عنده، ويبدأ جسد الآخر. إنه ابن الرابعة، ولأنه منكب على حلّ «أحجية البومة»، يجب ألا تتكلم معه. خارج النافذة، تندفع موجة بيضاء من زغب يأتي من أشجار الحور، وتكون صامتة وبلا وزن كأنها الهواء. تنتقل الشمس، وتشقُّ سطور الأحجية صورة البومة، وأحثُّ بول على النهوض. أَزِفَ وقت الانصراف. حان الوقت. لكن، في الثانية التي تسبق نهوضنا، قبل أن يجأر بشكواه طالبًا البقاء قليلًا، يسند ظهره إلى صدري متثائبًا. ويبقى حلقي مقفلًا بإصرار. لأن ذلك غريب، أليس كذلك؟ إنه شيء رائع، ومحزن أيضًا، ذلك المدى من الإحساس الطيّب بأن جسدك يؤخذ كأمر مُسَلَّم به.

قبل بول، لم أعرف سوى شخص واحد انتقل من الحياة إلى الموت. كان ذلك هو السيد آدلر، أستاذي لمادة التاريخ في الصف الثامن. اعتاد ارتداء بذلات قطنيّة ذات سراويل قصيرة مع أحذية تنس، ورغم كونه مدرّسًا لتاريخ أميركا، إلا أنه فضّل دومًا الحديث عن القياصرة. ذات مرّة، أظهر لنا صورة

الإمبراطور الأخير لروسيا، ولذلك أتخيّله الآن على ذلك النحو - بلحية سوداء، وأكتاف متهدلة - رغم أن السيد آدلر مكتنز الجسم وحليق الوجه دائمًا. كنت في صف اللغة الإنجليزية عندما اندفع طالب من صف النشاطات الاختياريَّة، قائلًا إن السيد آدلر وقع أرضًا. تجمَّعنا في الساحة، وكان الأستاذ ممدَّدًا ووجهه إلى الأرض، عيناه مغمضتان، وشفتاه مزرقتان تمتصان السجاد. سأل أحدهم:

- هل هو مصاب بمرض نوبات الصرع؟
- هل لديه حبوب أدويته؟

كان النفور يعمُّنا جميعًا. تجادل كشَّافة «بوي سكاوتس» بشأن التقنيات الصحيحة في إجراء الإسعافات الأوليَّة لإنعاش القلب والتنفس، فيما راجع المتمرسون والموهوبون منهم، علامات مرضه بزفرات هستيريَّة. أرغمت نفسي على الاقتراب منه. قَرْفَصْت وأمسكت يد السيد آدلر الباردة اللحم. كان ذلك في مطلع نوفمبر. لوّث لعابه السائل السجادة، وشهق أنفاسًا على فترات تتباعد باستمرار، وأذكر أني تشمَّمت رائحة حريق بعيد. كأن أحدهم يحرق نفايات في أكياس بلاستيكيَّة، ثمة عامل نظافة يحاول التخلُّص من الأوراق وقشور اليقطين مستبقًا قدوم شتوة الثلج الكبيرة الأولى.

عندما أفلح المسعفون أخيرًا في تمديد جسد السيد آدلر على النقَّالة، لحق بهم صبية الكشافة كالجراء، متأملين أن تسند إليهم مهمة ما. في رواق الساحة، وقفت مجموعات من الفتيات وهن ينشجن دموعًا. وضع بعض الأساتذة أكفّهم مفرودةً إلى صدورهم، غير متأكدين مما يتوجب قوله أو فعله تاليًا. سأل أحد المسعفين:

- أهي أغنية لفرقة «دورز»؟

كان قد تلبّث متأخرًا كي يعطي بعض أكياس المكسّرات لطلبة أحسوا بدوار خفيف. هززت كتفيَّ باستهانة. أحسبُ أني كنت أُهَمْهِمها بصوت مسموع. أعطاني شراب «غتوراد» بطعم البرتقال، في كأس من نوع «ديكسي»، قائلًا - كأني كنت الشخص الذي يتوجب عليه إنقاذه، كأن واجبه يتمثل في اقتلاع المرض أينما وجده - : «اشربيه ببطء الآن. افعلي ذلك جرعة جرعة».

آنذاك، أُطلِق علينا لقب «عاصمة العالم لسمكة «وول آي»». كانت إشارة على الطريق رقم 10 توحي بذلك، وجداريَّة لثلاث سمكات من نوع «موهوك» قرب مطعم. ودومًا، لوّح أولئك الشباب بتحيَّةٍ ذات زعانف - تكشيرات وحواجب، وأسنان ولثَّة - لكن لا يأتي أحد من خارج البلدة كي يصطاد سمكًا، أو حتى لفعل شيء مهم؛ بمجرد أن تتجمد البحيرات الكبيرة في نوفمبر. لم يكن لدينا منتجع في تلك الأيام، بل مجرد «موتيل» سيئ السمعة. كان وسط البلد هو: المطعم، مخزن العدّة، دكان الطُعْم والبكرة، والبنك. آنذاك، أعتقد أن المكان الأكثر إثارة في بلدة «لوس ريفر» طاحونة الأخشاب القديمة، بسبب كونها نصف محترقة، بألواح خشبيّة متفحمة تعلو ضفاف النهر. ومعظم ما هو رسمي؛ المستشفى ودائرة تسجيل السيّارات، ومطعم «برغر كينغ»، ومركز الشرطة؛ على بُعدِ مسافة تزيد عن عشرين ميلًا عبر الطريق في «وايت وود».

في اليوم الذي حمل فيه المسعفون السيد آدلر بعيدًا، أطلقوا عنان بوق سيارة الإسعاف لدى مغادرتهم موقف السيّارات في المدرسة. وقفنا كلّنا قرب النوافذ لنتفرج، حتى لاعبو الهوكي بقبّعاتهم الصفر، وكذلك فتيات مجموعة تشجيع الرياضيِّين بغرَّاتهن الثابتة الشعر. وحينها، كان الثلج ينهمر، بقسوة. وفيما سيارة الإسعاف تستدير منزلقة عند زاوية الشارع، مشَّطَت أنوار مصابيحها العلويَّة بجنون كتل الثلج المتطايرة عبر الطريق. سأل أحدهم: «ألا يتوجّب أن يكون هناك صفارة إنذار؟»

فكرت - فيما كنت أقيس البلعة الأخيرة من «الغتوراد» في كأسي الصغير المُشَمَّع - كم يستطيع الناس أن يكونوا أغبياء؟

كان بديل السيد آدلر هو السيد غريرسون، ووصل قبل عيد الميلاد بشهر، مصطبغًا بسمرة عميقة مُكْتَسَبَة كأنها من عالم آخر.

وضع في أذنه قرطًا مذهّبًا بحلقة وحيدة، وارتدى قميصًا ناصع البياض بأزرار لؤلؤيّة. لاحقًا، علمنا أنه جاء من «كاليفورنيا»، من مدرسة خاصة للبنات

على البحر. لم يعرف أحد ما الذي جاء به كل تلك المسافة ليعمل في «مينيسوتا» الشماليَّة، في منتصف الشتاء. لكن، بعد أسبوعه الأول في الصف، أزال خرائط السيد آدلر للإمبراطورية الروسيَّة، واستبدلها بنُسَخ مكبَّرة من الدستور الأميركي. أعلن أن شهادته الجامعيَّة الثانية كانت في المسرح، ما فسّر وقوفه في مقدم الصف ذات يوم، فاردًا ذراعيه تمامًا أثناء تلاوته «إعلان الاستقلال» عن ظهر قلب. لم تقتصر تلك الحركة على الأجزاء السامية في ذلك الإعلان، وهي تتناول الحياة والحرية والسعي إلى السعادة، بل أيضًا تلك القائمة اللاسعة والملعونة عن أعمال الطغيان ضد المستعمرات. استطعت أن ألاحظ شدَّة تطلُّبه للإعجاب. عندما وصل إلى الجزء الخاص بكون الالتزام المتبادل فخرنا المقدس، سأل السيد غريرسون:

«ماذا يعني ذلك؟»

أغفى لاعبو الهوكي ببراءة على أيديهم المثنية تحت رؤسهم. لم يتأثر الفتيان الموهوبون والأذكياء، وواصلوا الضغط مرارًا على أقلامهم الرصاص الميكانيكيّة كي تبرز مقدمته الأماميَّة بشكل فاضح، كأنها إبر المستشفيات. وتبارزوا عبر ممرات بين المقاعد. بازدراء، كانوا يتهامسون: «خذ حذركـ!»

جلس السيد غريرسون على مكتب السيد آدلر. كانت أنفاسه مخطوفة تحت تأثير ذلك الإلقاء، وأدركت - في التماعة فريدة، كأنما ضوء فائق اللمعان يمر فوقه - أنه كان في منتصف العمر. أمكنني رؤية العرق على وجهه، وكانت نبضاته تتلاطم تحت ياقة عنق رماديَّة.

- أيها الناس. **يا شباب**. ماذا يعني أن حقوق الإنسان هي مسألة **مُسَلَّم بها**؟ هيًا. أنتم تعرفون ذلك.

رأيت عينيه تستقران على ليلي هولبُرن ذات الشعر الأسود الأملس، التي كانت ترتدي، رغم البرد، بلوزة قرمزيّة شفافة. بدا كأنه يفكر أن جمالها يستطيع إنقاذه، وأنها ستكون لطيفة، لكونها أجمل من بقيتنا.

ليلي لها عينان بنيّتان، وتعاني عسر قراءة من نوع الـ«ديسليكسيا»، ولا تملك قلم رصاص، ولديها صديق. وببطء، احمرَّ وجهها تحت نظرة السيد غريرسون إليها.

رمشت عيناها. أومأ إليها برأسه مع وعد مضمر بأنه مهما قالت، فلسوف يوافق عليه. لعقت شفتيها بملء لسانها كما تفعل الغزلان.

لا أدري لِمَ رفعت يدي. لم يكن الأمر تمامًا أني شعرت بالأسى عليها، أو عليه. كان الأمر أن تنامى التوتر في تلك اللحظة فصار لا يحتمل إلى حدّ لا يتناسب مع ذلك الحدث. تبرعت بالإجابة:

- يعني ذلك أن بعض الأشياء لا تستلزم برهانًا عليها.
- بعض الأشياء هي ببساطة صحيحة. لا تبديل لها.

قال:

- ذلك صحيح.

وبدا شاكرًا - عرفت ذلك - ليس لي بالتحديد، بل لطوقٍ من الحظ شَعَرَ أنه حظي به. أستطيع فعل ذلك. أُعطي الناس ما يرغبون به من دون أن يعرفوا أنه جاء مني. من دون نطق كلمة واحدة، تستطيع ليلي جعل الناس يشعرون بالتشجيع، وأنهم مباركون. على خدّيها غمَّزتان، ولها حلمتان تلتمعان عبر بلوزتها كأنهما علامة من الله. كان صدري مسطّحًا، منبسطًا كعمود الاتكاء بجانب الدرج. أدفعُ الناس إلى الإحساس بأنهم يحاكمون.

جثمَ الشتاء علينا تلك السنة. أناخ علينا متعبًا لكنه استمر. في منتصف ديسمبر انهمرت الثلوج بغزارة إلى حدّ أن سقف النادي الرياضي ناء بها والتوى، وأُقفلت المدرسة أسبوعًا. ولأن المدرسة خرجت من الحساب، مارس لاعبو الهوكي الصيد عبر الثلج. ومارس كشّافة «بوي سكاوتس» لعبة الهوكي على البِرَك. ثم جاء عيد الميلاد وأضاءت حباله الملوَّنة شارع «ماين ستريت» صعودًا ونزولًا، مع المشاهد المتنافسة لمغارة المهد، في الكنائس

اللوثريّة والكاثوليكيّة، إذ تنصب الأولى أكياس رمل ملوّنة لتكون كالخِراف، فيما تعتمد الثانية منحوتة من الثلج للمسيح الطفل. جلب رأس السنة عاصفة خطيرة. وعندما عاودت المدرسة عملها في يناير، استبدِلت القمصان البيض المتغضِّنَة للسيد غريرسون، ببلوزات يصعب وصفها، واستبدلت حلقة الأذن بزرٍّ فيها.

لا بد أن أحدًا علَّمَه استعمال آلة «سكانترون»[1]، لأنه بعد ما يساوي أسبوعًا من المحاضرات عن لويس وكلارك[2]، أعطانا امتحانه الأول. وأثناء انحنائنا على مقاعدنا لوضع إشارات الإجابة في الدوائر الصغيرة المحدّدة لها، سار صعودًا ونزولًا في ممرات الصف، متكتِكًا بقلم حبر جاف ميكانيكي.

في اليوم التالي، طلب السيد غريرسون مني أن أبقى بعد انتهاء الصف. جلس خلف مكتبه ملامسًا شفتيه اللتين انفرجتا وتحجّرتا تحت أصابعه. قال لي:

- لم تكوني جيّدة تمامًا في امتحانك.

كان ينتظر تفسيرًا، ورفعت كتفيَّ بحركة دفاعيّة. وقبل أن أنطق بكلمة، أضاف:

- انظري. أنا متأسّف.

لوى الزرَّ - وهو برغي حسّاس ومعقَّد - المثبَّت في أذنه.

- ما زلت أعمل على أنواع من الخطط لدروسي. ماذا كنتِ تدرسين قبل وصولي؟

- روسيا.

---

(1) آلة تعمل بطريقة المسح الضوئي وتختص بقراءة أوراق خاصة تستخدم في الامتحانات المعتمدة على أسلوب «نعم» و«لا»، فتقرؤها أوتوماتيكيًا. (المترجم)

(2) مستكشفان أميركيّان من القرن التاسع عشر. كانا أول من عبر الولايات المتحدة وصولًا إلى الشاطئ الغربي المقابل للمحيط الهادئ. يعتبران من رموز الوطنيّة الأميركيّة. (المترجم)

- آه.

لاحت نظرة تأنيب في وجهه، تلاها مباشرة فرح.

- مازالت «الحرب الباردة» متلبّثة في ريف البلاد.

دافعت عن السيد آدلر.

- لم نكن نتحدَّث عن «الاتّحاد السوفياتي»، بل القياصرة.

- آه، يا ماتي.

لم ينادني أحد بذلك الاسم من قبل. كان ذلك أشبه بأن يربّت على كتفك أحد من الخلف. كان اسمي «مادلين»، وفي المدرسة كنت أُدعَى ليندا أوكومي أو «المخلوق غير الطبيعي»[1]. كوَّرت يدي وأدخلتهما في أكمامي. واستمر السيد غريرسون:

- لم يهتم أحد بأمر القياصرة قبل ستالين والقنبلة الذريّة. كانوا مجرد دمى في مسرح بعيد، عديمي الدلالة كليًا. وبعدها، ذهب كل أشباه السيد آدلر إلى الجامعة في 1961، وحدثت نوستالجيا عامة للدمى الروسيَّة القديمة، أنسال الأميرات في قرن آخر. ولأنهم عديمو التأثير، فقد أصبحوا مثيرين للاهتمام. هل تفهمين ذلك؟

ابتسم بعد ذلك، مغلقًا عينيه قليلًا.

- لكنك في الثالثة عشرة.

- الرابعة عشرة.

- أردت مجرد القول بأن الأمر ابتدأ بطريقة سيئة. سنكون في وضع أفضل قريبًا.

في الأسبوع التالي طلب مني أن أمرَّ على صفّه بعد انتهاء دوام المدرسة.

---

(1) كلمة FREAK معناها «مخلوق غير طبيعي»، ويستخدمها مراهقو أميركا للسخرية ممن ينهمكون في الدراسة كليًا، ولا يجارون أقرانهم في اللـهو. (المترجم)

هذه المرّة، كان قد خلع الزرَّ من أذنه ووضعه على مكتبه برقة فائقة، بسبابته وإبهامه، كان يتحسَّس اللحم حول شحمة أُذْنِه.

نهض واقفًا، وقال:

- ماتي.

جعلني أجلس على كرسي بلاستيكي أزرق قرب مكتبه. وضع حزمة من النشرات اللامعة الأغلفة في حضني، وأصدر طرقعة من أصابعه. وقال مراوغًا:

- هل تسدين معروفًا لي؟ لكن، لا تلوميني لأني طلبته. إنه عملي.

كان ذلك عندما طلب مني أن أكون ممثلة المدرسة في مسابقة «أوديسة التاريخ»[1]. ثم أضاف بطريقة غير مقنعة:

- سيكون ذلك رائعًا.

- ما تفعلينه هو أن تصنعي صورة بحجم بوستر. بعدها، تلقين خطابًا عن سجلات حرب فيتنام، عبور الحدود الكنديّة إلخ. أو ربما تتناولين الانتهاكات بحق أناس «الأوجيبوا»[2]؟ أو أولئك الذين يقولون إنهم عادوا إلى أرضهم، وهم يقيمون في هذه الولاية؟ اعملي على شيء ما محلي، شيء ما مثير للجدل أخلاقيًا. شيء ما يكون له إملاءات دستوريّة.

قلت له:

- أريد أن أشتغل على الذئاب.

بدا حائرًا. ثم هزّ رأسه وابتسم.

- حسنًا. أنت فتاة في الرابعة عشرة.

---

(1) تعتمد المسابقة على مقرّر مدرسي بعنوان «أوديسيَّة التاريخ»، ويتعاون فيها الأستاذ والطالب على إعادة صياغة مرحلة معينة من التاريخ. (المترجم)

(2) إحدى القبائل الكبرى من سكان أميركا الأصليّين (يسمّون أيضًا «الهنود الحمر»)، تقطن كندا والولايات المتحدة. (المترجم)

تثنّي الجلد حول عينيه.

- كلكن لديكنّ أشياء بصدد الأحصنة والذئاب. أُحِبُ ذلك. أُحِبُ ذلك. إنه شيء غرائبي. ما الأمر في ذلك؟

لأن والديَّ لا يمتلكان سيَّارة، عدت إلى البيت على النحو التالي بعدما فاتتني حافلة المدرسة. سرت ثلاثة أميال على الجانب المحروث من الطريق رقم 10، ثم استدرت يُمنَةً على طريق بحيرة «ستِل ليك».

يحاذي الجانب الأيسر البحيرة باتجاه الشمال، فيما ينعطف الجانب الأيمن إلى تلَّة غير محروثة. توقَّفت عندها، وحشوت رجلي بنطالي الجينز في جواربي، وعدّلت الثنيات على قفازيّ الصوفيَّين. في الشتاء، تحت سماء محمرة، تبدو الأشجار كأنها عروق. من بين الأغصان، تظهر السماء كأنها حرق شمسي على جلد. استغرق الأمر عشرين دقيقة سيرًا عبر الثلج والسُمَّاق، قبل أن تسمعني الكلاب، وتشرع في التململ في قيودها.

وصلت إلى المنزل مع حلول الظلام. عندما فتحت الباب، رأيت أمي منحنية على المغسلة، وقد غاصت ذراعاها إلى الكوعين في مياه قاتمة كالحبر. انسدل شعرها الطويل المستقيم على وجهها وعنقها، ما جعلها أقرب إلى هيئة الحذر. لكن صوتها كان مكتظًّا بحروف العِلَّة، كاشفًا بوضوح عن انتمائه إلى ولاية «كنساس». سألت من دون أن تستدير:

- هل هناك صلوات خاصة للمجاري المُنسدَّة؟

وضعت قفازيّ على مدفأة الخشب، حيث يمكن أن يتصلبا فيصبحا غير ملائمين ليديّ في الصباح. ورغم ذلك، أبقيت على الجاكيت، لأن المنزل كان باردًا.

جلست أمي بتثاقل إلى الطاولة، وقد بلَّلت مياه المغسلة جاكيتتها.

لكنها أبقت يديها اللزجتين في الهواء، كأنهما شيء ثمين- شيء يتلوَّى ولا يزال حيًّا- اقتنصته من البركة. شيء يشبه ما غذَّتنا به: زوجان من سمك نهري صغير.

- نحن بحاجة إلى سائل «درانو» ليفتح المغسلة. هراء.

حدَّقت في الهواء، ثم ببطء مَسَحَت كفَّيها على جيبي جاكيتها الصوف.

- أرجوك ساعدني. يا الله، يا أيها اللامتناهي الرحمة، في تلك المسرحيّة الهزلية البائسة المسمّاة عيشًا إنسانيًا.

لم تكن سوى شبه ممازحة. أعرف ذلك. عرفته من القصص التي

روت وصول أبَوَيّ إلى «لوس ريفر» في ثمانينيات القرن العشرين؛ راكبين حافلة صغيرة مسروقة؛ كيف كدّس أبي البنادق والحشيش، وكيف أنه عندما تفككت تلك المجموعة التشاركيَّة الصغيرة، استبدلت أمّي بقايا كل هواماتها الهيبيّة، بالإيمان المسيحي.

وبقدر ما أستطيع أن أتذكر، كانت تذهب إلى الكنيسة ثلاث مرَّات أسبوعيًا - الأربعاء، السبت، والأحد - مستبقية أملها بأن التوبة تنفع، وبأن شيئًا من الماضي يمكن أن يحلَّ عكسه بديلًا عنه، ببطء وعلى مدار سنوات.

آمنت أمي بالله، لكن على مضض، كأنها ابنة تربَّت بتزمّت.

- أتظنين أنك تقدرين أن تصطحبي أحد الكلاب معك، وتعودي؟

كنت لا زلت أرتجف بردًا.

- أعود إلى البلدة؟

أثارت الفكرة غضبي لثانية واحدة، بل أزالت كل شيء. لم أكن أُحِسُّ بأصابعي.

- أو... لا.

دفعت شعرها الطويل إلى الخلف، ومسحت أنفها برسغها.

- لا. لا. ربما كانت الحرارة دون الصفر خارجًا. آسفة. سأذهب لأُحضِر دلوًا آخر.

رغم ذلك، لم تتحرَّك عن كرسيها. كانت تنتظر شيئًا ما.

- أعتذر عن طلبي. لا تغضبي منّي بجنون لمجرد أني طلبت.

صفقت يديها اللزجتين ببعضهما.

- أنا آسفة، أنا آسفة، أنا آسفة.

مع كل كلمة آسفة، ارتفع صوتها بمقدار نصف درجة.

انتظرت ثانيةً واحدة قبل أن أتكلّم. وقلت:

- حسنًا.

لأحكِ ما كان من أمر السيد غريرسون. رأيت كيف انحنى قرب مقعد ليلي. راقبته عندما قال: «أنت تحسنين صنعًا».

ووضع يديه بحذر بالغ، كأنما يجعلهما بخفة الورق، على فقرات ظهرها. كيف رفع أطراف أصابعه كي يعطيها تربيتَةً صغيرة. رأيت مدى وَلعه وخوفه من فتيات «الكورن»[1]، هُنَّ قائدات مجموعة التشجيع، اللواتي يخلعن أحيانًا جوارب التدفئة الصوف، فيظهر جلد شتوي عارٍ، وأبيض ومحزّز كلحم البط. إذ تتسبَّب لهن جوارب التدفئة ببثور صغيرة، يقمن بحكّها إلى حدّ أنها تستلزم التغطية ببطانية من ورق التواليت.

رأيت الكيفيّة التي يوجّه بها سؤالًا إلى كل من أولئك - إلى «الكورنِ» أو ليلي هولبُرن - قائلًا: «هل ثمة أحد؟ هل في المنزل أحد؟»

ثم يجعل أصابعه على هيئة تليفون، ويخفض صوته ويتمتم: «آلو، منزل آل هولبُرن، هل ليلي موجودة؟»

تندفع حمرة إلى وجنتي ليلي، وترسم ابتسامة بفم مقفل في طرف كمّها.

عندما التقيتهُ عقب انتهاء دوام المدرسة، هزَّ السيد غريرسون رأسه:

- كان هناك شيء غبي في أمر ذلك التليفون، صحيح؟

كان مُحْرَجًا. أراد الاطمئنان إلى أن كل شيء على ما يرام، وأنه أستاذ جيّد.

(1) «الكورن» KARENS مجموعة إثنيّة ترجع أصولها إلى بورما. تستقر مجموعة منها في ولاية «منيسوتا». تؤمن بالمسيحيّة الإنجيليّة. مكتوب لفظها «كورِن» kuh REN استنادًا إلى مرجع أميركي. (المترجم)

أراد أن تغفر له خطاياه الصغيرة كلها، وبدا كأنه يفكر - لأني عقدت ذراعي ولم أحسِن عملًا في الامتحان - أن أدائي المتواضع كان متعمدًا وشخصيًا. بخجل قال:

- خذي.

ودفع إليَّ بعبوة معدنيَّة زرقاء صغيرة عبر سطح مكتبه. ارتشفت جرعات صغيرة من مشروب الطاقة الذي قدَّمَه، كان حلوًا جدًا ومملوءًا بالكافيين ما جعل قلبي يخبط بعدها مباشرة تقريبًا. بعد جُرعات عدّة، صرت أرتجفُ على كرسيَّ. صررت أسناني كي لا تصطك.

أراد أن يعرف، قال:

- هل عرض السيد آدلر أفلامًا أبدًا؟

لست متأكدة من سبب خوضي تلك اللعبة. لا أدري لماذا دلَّلته. قلت:

- أنت تعرض أفلامًا أكثر منه بكثير.

ابتَسَمَ برضى.

- إذًا، كيف حال المشروع؟

لم أُجِبْ. بدلًا من ذلك، أخذت جرعة من مشروبه للطاقة، من

دون دعوة مسبقة. أردتهُ أن يعرف أني رأيت كيف نظر إلى ليلي هولبُرن، وأني فهمت تلك النظرة أكثر مما فعلت، وأني رغم عدم ميلي له كليًا - ومع أني وجدت نكتته عن التليفون غير مريحة وقرط إذنه محزنًا - إلا أني أفهمه. لكن العبوة كانت فارغة. توجَّب أن أضع شفتيَّ على حافتها المعدنيّة متظاهرة بأني أرتشفها. خارج النافذة، كان الثلج المتطاير مع الريح، يتحوَّل جليدًا، ما جعل العالم بأسره قاسيًا كصخرة. سيحل الظلام بعد ساعة أو أقل.

والكلاب المنتظرة ستذرع الأرض عبر أبعد مسار تعطيه قيودها لها. بدأ السيد غريرسون يرتدي سترته.

- هيا بنا؟

لم يسأل أبدًا - ولا مرَّة واحدة - كيف أعود إلى المنزل.

تعامل السيد غريرسون مع «أوديسة التاريخ» كأنما كلانا يعرف أنها عمل منزلي. أضمرت رغبتي في النجاح. كنت عاقدة العزم على رؤية ذئب.

خرجت في ليالٍ كثيرة، مرتدية أحذية «ماكلوك»[1] الطويلة، وقناع التزلُّج، وجاكيت والدي الطويل المحمّل بروائحه من التبغ والعطن والقهوة المُرَّة. كان ذلك يشبه ارتداء جسده أثناء نومه، يشبه نيل الحق بوجوده وصمته وقوامه. جلست على دلو ثلج قرب أبعد مسمكة، وارتشفت ماءً ساخنًا من «التيرموس». لكن، نادرًا ما شوهد ذئب هنا في أواخر الشتاء. بالمحصلة، كان كل ما عثرت عليه هو أصوات قطع أشجار متمازجة مع أصوات الغربان. في النهاية، توجّب عليَّ الاكتفاء بذئب ميت.

في أيام السبت، أرتدي حذاء الثلج وأقصد «مركز الطبيعة لخدمة الغابات»، كي أدرس جثة محشوّة لذئبة وُضِعَت في الممر. كانت عيناها زجاجيّتين ومخالبها مرجانيّة اللون، فيما غار خدّاها وانزاحا إلى الخلف، فأعطياها ما يشبه ابتسامة. وكشّرت بيغ، وهي مختصة في الطبيعة في المركز، عندما رأتني أحاولُ لمس ذنب الذئبة.

قالت مؤنّبَة:

- آوه، آوه.

أعطتني علكة الدب المُحلّاة، وشروحًا عن تقنيّات التحنيط، وأرشدتني إلى كيفيَّة نحت الوحل على هيئة حواجب، وصُنع عضلات من إسفنج الـ«بوليوريثان» الأبيض. وحذّرتني قائلة:

- سَوِّي الجلد، سَوِّي الجلد.

صباح يوم مسابقة «أوديسة التاريخ»، نشرت غصنًا من شجرة الصنوبر العتيقة خلف بيتنا. تساقطت الأوراق الإبريّة على الثلج وتعرجّت في دوائر حلزونيّة.

---

(1) جُزَم تصنع غالبًا من جلد الغزلان، يرتديها السكان الأصليون في القطب الشمالي (المترجم)

أخذت حافلة الكازينو إلى «وايتوود» عند الانصراف من المدرسة. وبتثاقل، جررت الغصن والبوستر الذي صنعته للذئب، مجتازة كبارًا في السن قدموا من مركز للمتقاعدين، وقطّبوا بوجهي لكنهم لم يقولوا شيئًا. في قاعة المسرح في «ثانوية وايتوود»، أسندت الغصن أمام منصة القراءة كي أصنع جوًّا مؤثرًا.

شغَّلت، على وضعيّة التكرار، شريطًا فيه تسجيل لأصوات عويل الذئاب. ورغم أن فمي كان جافًا عندما ابتدأت في الكلام، لم أُضطر إلى الرجوع إلى ملاحظاتي، ولم أتأرجح إلى الأمام والخلف، مثلما فعل الصبي الذي تحدث قبلي. كنت مركِّزة وهادئة. أشرت إلى رسوم توضيحيَّة عن الجِراء أثناء عروض مختلفة تضمنها السياق. وباقتباس من كتاب، قلت:

- لكن المصطلح «آلفا» - الذي طوِّر لوصف حيوانات في الأسر - يبقى مُضلِّلًا، إذ لا يُعطى حيوان ما صفة «آلفا» إلا في أوقات معينة ولأسباب محدَّدة.

جعلتني تلك الكلمات أحسُّ دائمًا بأني أتناول شرابًا باردًا وحلوًا، شيئًا محظورًا. فكرت في الذئبة السوداء في «مركز الطبيعة» المثبَّتة في هيئة صداقة كلبيَّة، وتَلَوْت ذلك الجزء من كلمتي مرَّة أخرى، كأنه أحد التعديلات الأساسيَّة في الدستور الأميركي.

بعد ذلك، رفع أحد القضاة قلمه الرصاصي في الهواء.

- لكن، يتوَّجَب عليَّ أن أتدخّل هنا. ثمة شيء ما لم تشرحيه جيدًا. ما هي علاقة الذئاب مع تاريخ الإنسان؟

في تلك اللحظة، رأيت السيد غريرسون عند الباب. كانت يداه في جيبي سترته كأنه دخل توًّا، وراقبت كيف التقط عين القاضي، وهزّ كتفيه باستهانة. كانت الحركة الأرهف لكتفيه، كأنما للقول، **ماذا تستطيع أن تفعل بالأولاد؟ ما الذي تستطيع فعله لأولئك المراهقات؟** أخذت نفسًا عميقًا وحدَّقت فيهما معًا.

- فعليًا ليس للذئاب علاقة بالبشر إطلاقًا. لو استطاعت، لتجنَّبتهم.

منحوني «جائزة الأصالة»، وتمثَّلَت في باقة من القرنفل مصبوغة بالأخضر كي تتلاءم مع عيد «سان باتريك». لاحقًا، أراد السيد غريرسون معرفة إذا توجب علينا حشر غصن الصنوبر في سيّارته مع البوستر، أثناء العودة إلى المدرسة. كنت مكتئبَة، وهززت رأسي. انشغلت الفائزة، وهي طالبة في الصف السابع ترتدي بدلة، بالتقاط صورة مع رسمتها بالألوان المائيَّة عن سفينة الشحن «إس إس إدموند فيتزجيرالد».

أقفلت أزرار معطفي، وتابعت السيد غريرسون وهو يجرجر الغصن الذليل عبر مخرج جانبي. ثم رماه كرمح مستقيم فانغرس في كومة ثلج. وقال ضاحكًا:

- كأننا في مسلسل «شارلي براون وعيد الميلاد»[1].
- أود أن أُعلّق عليه حبالًا ملوَّنة. إنه لطيف.

انحنى لينفض أوراقًا إبَريَّة تائهة علقت على طرفي بنطاله، وبرد فعل تلقائي مددت يدي ونفضت أيضًا عند فخذيه. تراجع إلى الوراء، وأمسك ببنطاله، ونفضه برفق، مع ضحكة خرقاء. من الممكن أن يغدو الرجال صعبي المراس عندما يتعلّق الأمر بالجنس. تعلَّمت ذلك لاحقًا. أما حينها، فلم يعطِ ما فعلته إحساسًا جنسيًا. يجب أن أكون واضحة بشأن ذلك. بدا الأمر كأنه استمالة. كأن تتودد إلى كلب، وتراقب شعر رقبته يرتفع ويهبط، وعندها يصبح لديك حيوان أليف.

لعقت شفتي على طريقة «ليلي هولبُرن»، كالغزلان، ببراءة تامة. قلت:

- سيد غريرسون، هل تمانع في توصيلي إلى المنزل بسيارتك؟

قبل أن نغادر «ثانوية وايتوود»، عاد السيد غريرسون إلى داخلها كي يحضر منشفة ورقيّة رطبة ليحيط بها جذوع القرنفل. ثم وضع الباقة بين ذراعيّ بحذر،

---

(1) مسلسل تلفزيوني أميركي للرسوم المتحركة، تدور حلقاته كلها في أجواء عيد الميلاد، ويهدف إلى شرح معانيه بطريقة مرحة ومملوءة بالمفارقات المضحكة. (المترجم)

كأنها دمية طفل من السرخس. وأثناء عبورنا الـ26 ميلًا بين «وايتوود» ومنزل والديَّ، تابعنا عاصفة تقذف طبقات ثلج ضخمة على جذوع الأشجار؛ وحمل ذلك معه أيضًا نوعًا من الإحساس المتباطئ بحدوث كارثة. لم تكن مروحة إزالة الجليد في سيارة السيد غريرسون تعمل جيدًا، ومسحت الزجاج الأمامي بكُم جاكيتي المتَّسِخ.

سأل:

- هل ننعطِف عن هذه النقطة؟

ثم تابع قيادة السيارة عبر طريق «ستِل ليك». كان يعضُّ على أجزاء من جلد شفتيه بأنيابه. ورغم اقتراب الظلام، استطعتَ أن أرى شرخًا في شفته، لكنه لم يكن ينزف. لسبب ما، أعطاني ذلك شيئًا من السرور.

بدا كأني أحدثت له ذلك الشرخ بنفسي، عبر ما عرضته عن الذئاب، والأوراق الإبريَّة لغصني الصنوبري.

كان المنعطف المتَّجه إلى الطريق المفضي إلى منزل والديّ غير محروث، كالعادة. جهد السيد غريرسون للتوقف عند التقاطع، وانحنى كلانا إلى الأمام متطلعًا عبر الزجاج الأمامي إلى التلة المظلمة الشديدة الانحدار. عندما حدَّقت به بدا عنقه واسعًا وناعمًا كبطن مكشوف، لذا ملت بجسدي نحوه وقبّلته هناك، بسرعة، بسرعة.

أجفلَ. وقال:

- إذًا، هذا هو الطريق؟

ورفع سحَّاب معطفه إلى الأعلى، مُرْجِعًا عنقه إلى داخل ياقته. أعلى التلّة، جثم منزل والديّ الصغير المضاء، وأعرفُ أنه ركّز انتباهه على المنزل لأنه كان أول شيء في مرمى النظر.

- آم... آم، أليس ذلك هو المقر السابق لتلك الطائفة؟ لقد سمعت أشياء غريبة عنهم. هل هم جيرانكم؟

بالطبع، كان يسعى إلى مجرد الحديث، وبسكينة تمسّكت بقرنفلاتي. أحسّست كأني شُطِرت، كأني صرت لهيبًا.

- يُبقون عليه لأنفسهم.

كان ذهنه في مكان آخر.

- آه؟

غمر الجليد الزجاج الأمامي، لكني لم أره لأن الضباب كسا الزجاج من الداخل مجدّدًا.

قال:

- فلنوصلكِ إلى المنزل.

حرَّكَ مبدّل السرعة وأدار الدواليب، وكان بإمكاني أن أحسَّ بمدى تعبه من كونه مسؤولًا عني.

قلت له:

- بإمكاني أن أسير من هنا.

فكّرت أني إذا صفقت باب السيارة بشدّة، فسوف يجري السيد غريرسون خلفي. كذلك هي الأمور عندما تكون في الرابعة عشرة. فكرت أني إذا ركضت بضع خطوات في الثلج خارج الطريق، فلسوف يتبعني؛ كي يتخفّف من ذنبه، كي يطمئن إلى وصولي بسلام إلى المنزل، ليدس يديه الطبشوريتين تحت جاكيتي، أو أي شيء. اتجهت صوب البحيرة بدل الصعود إلى المنزل.

ركضت على ثلج لاسع من مطر متجمّد، لكن عندما نظرت خلفي، رأيت سيارته بأضوائها المنيرة، تستدير بحذر راسمة نصف دائرة بين الأشجار.

انفجرت فضيحة بشأن غريرسون بعد شهور من دخولي المرحلة الثانويّة في الخريف التالي. استرقت السمع إلى تهامسٍ عن تلك النميمة عندما كنت أسكبُ قدح قهوة لأحدهم أثناء عملي بدوام جزئي كنادلة في مطعم البلدة. لقد أُدين بالميل جنسيًّا إلى الأطفال وارتكاب جرائم جنس في مدرسته السابقة، وطُرِدَ بسرعة من مدرستنا؛ إذ صُودِرَت كمية من صور قذرة من شقة سبق أن سكنها في كاليفورنيا. بعد العمل في ذلك اليوم، جمعت كل البقشيش الذي نلته، وذهبت

إلى بار في آخر الشارع، واشتريت أول علبة سجائر كاملة خاصة بي، حصلت عليها من آلة عند مدخل البار. تعلّمت من السجائر القليلة التي اختلستها في المنزل، ألا آخذ نفسًا كاملًا أثناء إشعالها. ولكن، عندما جلست في الدغل الرطب خلف موقف السيارات، أخذت عيناي تدمعان، وسعلت، فيما دقَّ قلبي بغضب بشع. أحسست، أكثر من أي شيء آخر، بأني خُدِعْت. أحسست أني لمست بذرة ما في طبيعة السيد غريرسون، وأنه كذب عليَّ بعمق، عندما تجاهل ما فعلته معه في السيارة، متظاهرًا بأنه أفضل مما هو عليه. إنه مجرد أستاذ آخر. فكَّرت في إقفال السيد غريرسون سحَّاب سترته مخبئًا عنقه الواسع الدافئ في ياقته. فكَّرت في رائحته العطنة كأنما أمضى يومه متعرّقًا ثم تجفَّف في هواء الشتاء. فكَّرت في ذلك كله، وأن ما أحسست به نحوه، كان في نهاية المطاف، مجرد اندفاعة غير مريحة من الشفقة. بدا لي أنه من الظلم ألّا يستطيع الناس أن يكونوا شيئًا مختلفًا بمجرد أن يعملوا على ذلك بقوَّة، ويقولوه مرَّة تلو الأخرى.

عندما كنت في سن السادسة أو السابعة، أجلستني أمي في حوض الاستحمام بملابسي الداخلية. كان ذلك في منتصف الصباح، في منتصف الصيف.

سقط خيط عريض من الضوء على وجهها. سكبت الماء على رأسي من كوب القياس. وقالت لي:

- أتمنى لو أني أؤمن بتلك القذارة.

كنت أرتعش، قلت:

- ما الذي يفترض أن يحصل؟

قالت:

- إنه سؤال جيّد. يا طفلتي، لقد أصبحت الآن إناء أرز جديدًا. أنا أعيد تشكيلك مجددًا، من الصفر[1].

---

(1) في هذا الوصف استحضار ضمني لتقليد عمادة الأطفال بالماء. (المترجم)

لم أكن راغبة في العودة إلى المنزل ليلة أوصلني السيد غريرسون إلى المنزل. فكّرت حينها - بسعادة، بل أحسست بعقد من الخطّافات في حلقي كلما بلعت - أنه بإمكاني كسر الجليد الصفيق على سطح البحيرة، ثم أغطس ببساطة. لن ينتبه والداي لوقت طويل، ربما ليس قبل الصباح. في كل مساء، تغفو أمي أثناء حياكتها أغطية نوم لنزلاء في السجن. يمضي أبي مساءاته في جمع الخشب من ملكية مهجورة معروضة للبيع، عند طرف البحيرة. حتى أني لم أكن متأكدة أنهما أبواي الحقيقيَّان أم أنهما ببساطة كانا الشخصين اللذين بقيا هناك بعدما عاد الجميع إلى الكليّة والعمل الوظيفي في «توين سيتيز»[1]. كانا أقرب إلى كونهما أخوين غير شقيقين، مما هما والدان، رغم أنهما كانا طيّبين معي دائمًا؛ وهو الأمر الأسوأ بطريقة ما، من كل شيء آخر. أشد سوءًا من شراء الحبوب بالسنتات وأرباع الدولار، أسوأ من قبول الثياب المستعملة من الجيران، أسوأ من تسميتي «كومي» و«فريك». عندما كنت في العاشرة، علَّق والدي أرجوحة على شجرة حور عملاقة. قصّت أمي خصلات متغضنة من شعري. ورغم ذلك، وفي الليلة التي أوصلني فيها السيد غريرسون، استمررت في التفكير بوحشيّة، في انتظار أن يغرق جسدي تحت الثلج:

- **هكذا يختفي الأرزُّ يا أمي. هكذا يختفي الإناء بأكمله.**

بعدما ذهبت إلى الكليّة العامة المحليَّة وخرجت قبل إتمام الدراسة، وعملت لوقت ما في «توين سيتيز» في وظيفة مؤقتة، عثرت في الإنترنت على قاعدة بيانات وطنيَّة تستطيع استخدامها في تتبع المعتدين جنسيًّا في البلاد كلها، بمجرد كتابة اسم المعتدي.

تستطيع مشاهدة خط ملاحقة أحمر صغيرًا يظهر على خريطة كل ولاية،

---

(1) معناها («المدينتان التوأمان»). ويطلق التعبير على مدينتي «سان بول» ومينابوليس» في ولاية «مينيسوتا». (المترجم)

يظهر تنقّلهم من مدينة إلى أخرى، ومن «آركنساس» إلى «مونتانا»، أثناء بحثهم عن شقق رديئة، أثناء دخولهم السجن وخروجهم منه ثانية. باستطاعتك أن ترى سعيهم للحصول على أسماء جديدة، وألقاب جديدة، عبر زخّات من التدوينات الإلكترونيّة الغاضبة تتكاثر على الإنترنت، كلما حدث ذلك. تستطيع أن تلاحظ الغضب الأخلاقي. بإمكانك أن تشاهد المعتدين وهم يجربون ثانية. بإمكانك تتبعهم من «فلوريدا» في الجنوب، إلى المستنقعات، وهناك، تحت أشجار «مانغروف»، ينشئون دكاكين صغيرة بعيدًا عن الطرق العامة، لبيع الأشياء القديمة، أو ما تيسّر، أو الخردة. يعلّقون فيها مصابيح صدئة، وبطّات محشوّة، أسنانًا زائفة لسمك القرش، وأقراط أذن ذهبيّة زائفة. تستطيع أن تشاهد كل ما يبيعونه، لأن الناس يجدِّدون تدويناتهم ويقدّمون التفاصيل كلّها. هناك كثيرون يهتمون بالمراقبة. ويجدِّد الناس تدويناتهم كل الوقت.

يكتب الناس:

- هل يتوجَّب عليَّ شراء خريطة من معتد جنسيًا جرت إدانته؟

ويبدو السؤال غير محسوم أخلاقيًا. يكتب الناس: «ألا أملك الحق دستوريًا في القول إنني لا أريده هنا، فيما هو يبيع بطاقاته البريديَّة بنصف الثمن؟»

يكتب الناس : «ألا أملك الحق في قول ذلك مباشرة في وجهه اللعين[1]».

يكتب الناس: «من يظن نفسه؟»

(1) جرى استخدام كلمة «لعنة» ومشتقاتها بديلاً للكلمة التي تدل على الفعل الجنسي في النص الأصلي، عندما لا يتعلّق الأمر مباشرة بالجنس (المترجم)

2

مُرِّرَت الأوراق في حزمة واحدة. تلك ما كانته المدرسة الثانوية. تسيَّر الأوراق في الممرات بين المقاعد، ثم تعود ثانية، وتدور ببطء لتصل إلى آخر غرفة الصف. لعق الموهوبون والأذكياء - الذين انتقلوا الآن إلى «نادي اللاتينيّة» و«الفريق الجنائي»- أصابعهم كي يستخرجوا نصيبهم. إنهم جاهزون دومًا للعمل كفريق سباحة ينجز ضربات الاندفاع، يتنفسون من جوانب أفواههم فيما يعضون على أقلامهم الرصاص. يتوجَّب لكز لاعبي الهوكي كي يستيقظوا عندما تصل الحزمة إلى ممرهم. يجب معاملتهم بطريقة مميَّزة؛ تحت طائلة خسارتنا بطولة المقاطعة. كرَّة أخرى. يستيقظون من إغفاءاتهم بما يكفي لسحب ورقة من الحزمة وتمريرها للبقية، ما يكفي لدفع أكياس رقائق البطاطا المفتوحة في أفواههم، ومسح الملح عن شفاههم، والعودة إلى حلمهم بإحراز بطولة «إمباير» الوطنيّة. أي شيء آخر يمكن أن يحلم به لاعبو الهوكي؟ كان ذلك هو عالمهم الذي عشنا نحن فيه. أدركت ذلك عندما كنت في الخامسة عشرة. إنهم يحلمون به واقعًا. دفعوا بالأساتذة إلى مسامحتهم عن أوراق الفروض المدرسيَّة الفارغة، ودفعوا فتيات فريق التحميس إلى الصراخ بأسمائهم أثناء الاستعراضات التحضيريّة، وهم يملكون في خيالهم آلات من نوع «زامبوني»[1] تكفي لرسم خطوط ثلج على امتداد العالم- وبلا هوادة - مسطحات مستوية تمامًا من المياه المتجمدة. تلك السنة، كنًا في مبنى جديد، وغرفة صف أكبر حجمًا بجدران من حجر قرميد باهت، أما في

(1) آلة أميركيّة معروفة تعمل على تسوية الجليد ليصير أسطحًا مستوية. (المترجم)

الخارج فكل شيء كان كما هو عليه منذ كنَّا أطفالًا. عاد الشتاء إلينا.

في الخارج: أربعة أقدام من الثلج مضغوطة في طبقة مشعة.

في الداخل: التاريخ الأوروبي، التربية المدنية الأميركيَّة، علم المثلثات، اللغة الإنكليزيَّة.

تأتي علوم الحياة في المرتبة الأخيرة، ودرَّسَتها «ليز لوندغرِن»، أستاذتنا القديمة في الصف الثامن التي استطاعت بالمحصلة أن ترفع نفسها بصعوبة من كونها مجرد مُدرِّسة للمرحلة الإعدادية، مع سترة شتويّة بقبعة من نوع «بولارتك» مصنوعة من ألياف البوليستر ومريلة صدر مصطنعة لصد الثلج. تعاني الآنسة «لوندغِرن» نوبات تشنُّج لا إرادي. بمجرد أن تضطرب أو تستلهم فكرة ما، تلجأ مباشرة إلى الهمس. ظَنَّت أنه يجعلنا نصغي بشكل أفضل، ظَنَّت أنه يدفعنا إلى الاهتمام بالخلية والفطريات، ظَنَّت أننا سنحاول بذل جهد أكبر لفهم انقسام الخلية إذا لم نلتقط تمامًا كل الكلمات في جُمَلِها. ولسوف تتمتم:

- البذور... في غياب الماء أو الحرارة... تناور بكميات كبيرة.

فيبدو الأمر شبيهًا بسماع نميمة غامضة تفقد، بسبب كثرة تداولها، كل دلالة يمكن استخراجها منها.

في ذلك الصف، باستطاعتك دومًا سماع تكتكات الساعة. من كل نافذة، تستطيع أن ترى الثلج تطيح به هبّات الريح، ثم يتراكم في اليوم التالي في أكوام بمثل ارتفاع البيوت. ذات يوم، قبيل انتهاء الدرس عن التطوّر، أدّت عاصفة فصليّة متأخرة إلى كسر غصن كبير من شجرة حور، إناء بكومة من الثلج. من خلال النافذة، راقبت سقوطه إلى الأرض مخطئًا بالكاد سيارة صغيرة زرقاء كانت خارجة من مخزن البقالة المقابل للمدرسة. وعلى اللوح الأسود، كانت الآنسة «لوندغِرن» تكتب بالطبشور مزايا وعيوب الانتقاء الطبيعي، بخطوط تصدِر صريرًا. ظهرت غشاوة على النافذة إذ انحنيت عليها. اعتدلت في جلستي. خرج من السيارة الزرقاء شخص يرتدي معطفًا بقبعة، ونحَّى الغصن من الطريق،

وعاد إلى السيارة. ثم سارت «الهوندا» راسمة قوسًا عريضًا في محيطها المباشر، وكسّرت دواليبها بعض الأغصان الصغيرة.

بعد ذلك بدقائق، أطلّت الشمس، بتألّق أذهلنا جميعًا. رغم ذلك، لم يكن مفاجئًا أن سُمِحَ لنا بمغادرة المدرسة قبل انتهاء الدوام بنصف ساعة، بسبب رياح قارسة البرودة. سرت من موقف الحافلة إلى المنزل في هرولة متصلبة. في الممر المكتظ بالثلج، شعرت أني أنسحق، شعرت بالريح آتية من البحيرة، وسمعت أشجار الصنوبر تزمجر وتطقطق في الهواء. وفي منتصف طريق الصعود على التلّة، شرعت رئتاي في التمزّق. تغيَّر وجهي إلى شيء ما هو غير الوجه، إذ صار كالمطاط. في النهاية، عندما وصلت أعلى التلّة، وتوقّفت لأمسح الثلج عن أنفي، التفت ورأيت نفثًا من بخار يعبر بحيرتنا. توجّب عليَّ أن أنظر بنصف إغماضة كي أتبيَّن الأمر عبر كل ذلك البياض.

لم يكن سوى سيارة «الهوندا» بباب خلفي مشطوف، آتية من البلدة. خرج زوجان منها وشرعا في إفراغها.

عند تلك النقطة، كانت البحيرة ضيّقة تمامًا، ولا يزيد أقصى عرض لها عن ثمانمائة قدم. راقبتهما بضع دقائق، فيما كنت أدلك أصابعي، وأضمها في كرتين صلبتين.

رأيت ذينك الزوجين ذات مرّة في أغسطس. جاءا ليتفحصا بناء منزلهما عند البحيرة، الذي بناه فريق من طلبة جامعيين من «دولوث». قضى الفريق الصيف في تنظيف الدغل بأدوات الحفر، ونصبوا جدرانًا من الخشب، وشبكوا ألواحًا منه على قنطرة السقف. وعندما انتهى بناء المنزل، بدا مختلفًا عن كل ما شاهدته في «لوس ريفر»، إذ احتوى ممرًا خارجيًّا مزدوجًا ونوافذ مثلثة ضخمة، وحافة خشبيَّة شقراء عريضة ارتفعت فوق البحيرة كمقدمة سفينة. ومن سيارتهما المشطوفة، أخرج الأب كراسي من نوع «آديروندداك»، وهرَّين وادعين: أحدهما أسود سمين، والآخر أسود؛ انثنيا كلعبتين فوق ذراعه. في وقت متأخر من ذات ظهيرة في أغسطس، رأيت الزوجين على

الحافة الخشبيَّة الجديدة، وقد التفا من الرأس إلى أخمص القدم بمناشف الحمام.

الأب والأم وطفل صغير. انزلقت منشفة الطفل على ألواح الخشب، فركع الأب والأم كلاهما معًا، وأعادا ترتيبها. كأنهما مرافقان لعروس صغيرة، يرفرفان حولها بشغف. بدا أنهما يقولان شيئًا ما حلوًا جدًا للصغير الذي أطلق صوتًا خائفًا ومرتفعًا عبر البحيرة. تلك كانت المرَّة الأخيرة التي رأيتهما فيها.

لكن، في ذلك اليوم البارد، عادا في المساء، رأيت الأب يكشح الثلج عن الرصيف الخشبي بمكنسة يد زهريَّة اللون. تصاعد الدخان من مدفأتهم. في الظهيرة التالية، خرجت الأم والطفل يتهاديان بجزمتين وبدلتين للثلوج. تحرك الطفل متقلقلًا على طبقة حديثة من الثلج، وسار خطوات على اللسان الخشبي، قبل أن يقع. عندما رفعته الأم من إبطيه، تجرّد من جزمته تمامًا. وأثناء مراقبتي لهما، أبقت الأم الطفل المسكين معلَّقًا بلا حول، من دون أن تحسم إذا كانت ستجلسه أم تستمر في حمله، معلقًا ورجلاه في جوارب، فوق عالم من الثلج.

وبأسى، تساءلت عمَّا كانا بحق الجحيم يتوقّعانه؟ لكنني أحسست بالأسف حيالهم أيضًا. لا شيء تقريبًا كان يتحرك أو يتنفس عبر البحيرة. إنه الجزء الأسوأ من الشتاء، قَفْرٌ من البياض في الاتجاهات كلها، لا مكان للأطفال الصغار ولا ناس المدينة. على عمق قدم من الثلج تحت جزمتي، تسير أسماك «وول آي» منجرِفَة. إنها لا تحاول السباحة، أو فعل أي شيء يتطلّب جهدًا. إنها تحوم، تنتظر انتهاء الشتاء بأخشاب طافية، وبالكاد تخفق قلوبها.

على الأقل، كنَّا مستعدين لشهر آخر من الشتاء. كل ليلة، كنت ألقِم مدفأة الكوخ، قبل تسلّق السلم إلى سريري في العليَّة، وكل صبيحة مظلمة كنت أكشح الجمرات وأقربها مجددًا، وأستعين بأصابع بطيئة ونشارة خشب الأرز، كي أعيد إشعال اللهب. كان لدينا كومة ونصف من الحطب مسندة إلى جدار الكوخ، أقتطع منها ببطء.

حشونا مزيدًا من الخِرَق في أُطُر الشبابيك، لاستبقاء الدفء، وأبقينا طناجر كبيرة على المدفأة لتكون مياهًا ذائبة في الصباح. وحفر أبي ثقوبًا لصيد الأسماك عبر ثلوج قاربت سماكتها 18 إنشًا.

ولكن بعد ذلك، في منتصف مارس، قفزت الحرارة إلى خمسين درجة فهرنهايت، وبمعجزة ما بقيت كذلك. خلال أسبوعين، تحوّلت الانجرافات الجنوبية إلى ترسبات عاموديّة. لاح التماع رطب عبر سطح الثلج، وفي أوقات ما بعد الظهر، صار بإمكانك سماع صوت بحيرة بأكملها بصخب وحيويّة. ظهرت شقوق. وصل الدفء إلى حدّ التمكّن من جلب الأخشاب من الكومة من دون استعمال قفاز، وصار مستطاعًا كسر الجليد عن سلاسل الكلاب بحرارة الأصابع مباشرة. قرب البحيرة، نصبت العائلة تلسكوبًا على رصيفهم الخشبي؛ طويلًا كرمح ومصوَّبًا باتجاه السماء. تحت حامل ثلاثيّ القوائم، ظهرت مصطبة القدمين كي يستطيع الطفل أحيانًا الوقوف في الأمسيات مقرّبًا عدسة العين إلى وجهه بيدين يكسوهما قفازان. ومرتديًا وشاحًا عليه صورة عصا الحلوى، وقبعة حمراء تعلوها كرة صوف. كلما تحرَّكت الريح، تمايلت كرة الصوف كأنها فلينة في خيط لصيد السمك.

أحيانًا، كانت الأم تأتي مرتدية قبعة تزلج، وتعدّل وضعية الحامل الثلاثي القوائم، وترفع التلسكوب وتحدِّق عبره، وتبقي يدًا مكسوة بقفاز على رأس الطفل. ثم، فيما المغيب يطفئ ألوانه الأخيرة، كنت أتابع انصرافهم إلى الداخل ثانية. أتابع كيف يحلُّون أوشحتهم عن رقابهم، وكيف يدلّلون القطط، يغسلون أصابعهم تحت الصنبور، يسخنون الماء في الغلاية. لا يبدو أن لديهم ستائر على نوافذهم المثلثة الضخمة. رأيت عشاءهم كأنه أُعِدَّ لي وحدي. أجلس على سقف زريبتنا مع نظارة أبي من نوع «بوشنِل»، وأُدير أسطوانتيها المتصلبتين، وأدفئ يديّ تحت عنقي. على ركبتيه، جلس الطفل على كرسيه المحشو البطانة، وأخذ يهزهز. بالكاد جلست الأم. ذهبت إلى المنضدة وعادت، وقطَّعَت أشياء في صحن الصبي. صنعت قطعًا مستطيلة خضرًا، ومثلثاتٍ صفر، وأسطواناتٍ

من شيء ما بني اللون. نفخت في حسائه. ابتسمت كلما ابتسم. استطعت أن أرى أسنانهم عبر البحيرة. بدا الأب كأنه اختفى. أين ذهب؟

جلب الربيع معه مزيدًا من الكتل الثلجية. رشحت منها مياه زرقاء- سوداء عبر سقف المدرسة. كانت تنزل نقطة نقطة في فترات بعد الظهر، متزامنة مع تكتكات الساعة، ثم تتسارع كخفقان قلبي الذي أستطيع تحسسه عندما أضغط على ترقوتي. كان أدائي المدرسي سيئًا كالعادة. وفيما انهمك لاعبو الهوكي بوضعنا في حلمهم عن ديسمبر الفائت، وانغمس فتيان المسابقات في حفظ الهويّات المتبادلة؛ كنت أراقب كيف هُجِرَت «ليلي هولبُرن» من قِبَل أصدقائها، الواحد تلو الآخر. كانت دومًا الرقم اثنين في مجموعة من أربعة، لكنها أصبحت الرقم خمسة منذ بداية الشتاء. من الصعب تحديد السبب وراء ذلك بدقة. من الصعب القول بدقة متى ابتدأت الشائعات بشأن علاقتها مع السيد غريرسون. لكن مع حلول مارس، ظهر فضاء فارغ حولها - كغابة بعد حريق - ولم يعد صمتها يبدو أخرق تمامًا. بدا الأمر مقلقًا. وخلف ظهرها، راحت أنفاس أصدقائها القدامى تصدر شخيرًا، وهو الصوت نفسه الذي كانوا يلفظونه أمامها عندما يمازحونها بعد الصفوف.

ربما بسبب جينزها الممزق[1]، ربما بسبب ستراتها الرخيصة الضيِّقة. باتوا الآن حريصين على أن يجاملوها بدقة عندما يضطرون إلى التعامل معها علانية. لم يعودوا يضحكون عندما تحضر إلى الصف من دون قلم رصاص، أو يتأسون عندما تنسى جلب وجبة الغداء معها. كانوا يقرضونها نقودًا عندما تطلب ذلك، ويعطونها أوراق التواليت تحت حجيرة الحمام، هامسين: «هل تريدين المزيد؟ هل يكفي ذلك؟»

---

(1) موضة حديثة في الجينز تتضمن ظهور مساحات صغيرة تبدو ممزقة كليًا أو جزئيًا (المترجم)

رغم ذلك، كانوا يتجاوزونها بتجاهل في القاعات.

كان لدي أخبار لها. كتبتها على ورقة، ومرَّرتها لها ذات بعد ظهيرةٍ، ضمن حزمة أوراق الفروض المتنقلة بين الممرات: **لا أهتم بما يقولونه عنك وعن السيد غريرسون.**

لم أرد الدفاع عنها - لم نكن صديقتين إطلاقًا، ولم يحدث أن انفردنا معًا في غرفة الصف أبدًا - بل مجرد أن رُبِط اسمها بطريقة ما مع السيد غريرسون، وأردت أن أعرف السبب. لكن ليلي لم تكتب ردًّا أبدًا. حتى أنها لم تلتفت لتراني، اكتفت بإحناء ظهرها متظاهرة أنها تنكب على فهم الجذور التربيعيَّة.

لذا، فوجئت عندما وجدتها تنتظرني ذات يوم عند الباب الخلفي، بعد انتهاء دوام المدرسة. ارتدت وشاحًا ملتفًا أنيقًا، وجاكيت جينز من نوع غريب يشبه معطف مطر البحَّارة، وأحكمت إقفال أزراره من الركبة إلى الرقبة. أزالت الدهشة احتراسي. وبمقدار ما استطعت جعله عاديًّا، أخرجت سيجارة وأشعلتها، لكن عندما عرضتها عليها هزّت رأسها محدّقَة في عالم يلتمع ويبرق ويذوب. وكي أقول أي شيء، قلت: «يا لها من فوضى».

هزّت كتفيها باستخفاف - يشبه ما تكونه ليلي، جميل جدًا - وأحسست بوخز من الإنهاك.

استطعت رؤية عنقها الطويل الأبيض يبرز تحت ثنيات حمراء. وسررت عندما رأيت أن سترتها تبدو مبتذلة عند تدقيق النظر فيها، بحاشية ممزقة موحلة تتأرجح خلفها. في كل التجربة معها، كانت ليلي تصدمني دومًا ببراءة عصية على التفسير. والآن تبدو متفوّقة بطريقة تستعصي على التفسير، وتجتاز الجميع بيسر. قُلْ سيد غريرسون فتعلو هي. كحال البالون.

قررت المجازفة. تنهّدت:

- ماذا فعل بكِ؟

هزّت كتفيها باستخفاف ثانية، بعينين متّسعتين.

- أين؟

بدت مرتبكة:

- أين؟

اقتربت خطوة منها.

- كنت أعرف أن شيئًا ما يحصل. كان بإمكاني تحذيرك.

لم تكن تنظر إليَّ، وأمكنني رؤية أن شعرها مشبوك إلى الخلف، فبرزت إحدى أذنيها. كانت حمراء فاتحة تلك الأذن في البرد، والتمعت بشبه غريب مع الشفة.

جاءتني فكرة جديدة.

- أنت اختلقت ذلك الأمر.

رغم أنها لم تقل شيئًا، عرفت بالغريزة أني أصبت هدفًا.

بلعت ريقي:

- ما يتعلّق بك وبه.

- نعم.

ربما كنَّا بالكاد نقف في مواجهة بعضنا بعضًا عند الحاجز، منتظرتين أن يخف زحام المواصلات كي نسير في اتِّجاهين مختلفين. ربما كنَّا نتجاهل بعضنا بعضًا بتعمّد: أنا مع سيجارتي، وهي بعلبة «كوكا كولا» مفتوحة، سحبتها برفق من جيب سترتها. رغم ذلك، في تلك اللحظة، أحسست أني قريبة منها، وبدا من غير الضروري قول شيء آخر. امتلأ الصمت باحتمالات شتّى. كان بوسعنا سماع تساقط قطرات من تيارات غير مرئية، جداول تعبر الطريق والأرصفة. بوسعنا سماع بلورات الملح تنسحق تحت دواليب السيَّارات. بعدها، نثرت ليلي علبة الـ«كولا» على الثلج، وخطر لي أنها تكلَّمت من دون إحساس بالحدث إطلاقًا. خطر لي أنها لم تخبرني بذلك إلا لأن لا أحد لدي لأحدثه. يشبه الأمر أن ترمي بسر في بنكٍ من ثلج.

بدت شفتاي مرتبكتين حول سيجارتي.

- سيمضي ذلك، كما تعلمين. الناس يتكلّمون.

هزّت كتفيها باستخفاف للمرّة الثالثة.

- أتظنين ذلك؟ أنا لا أعتقد ذلك.

داست كتلة من الطين بحذائها، وجذبت وشاحها إلى أن أصبحت فائقة الجمال، مع ذراع مثنية طويلة ترسم أشكالًا هندسيَّة في السماء.

بدا في كلامها كثير من الرضا، بل كانت شبه معتدة بنفسها في ذلك الشأن.

تتبعتها في اليوم التالي. بعدما أكلت سندويش زبدة الفستق في الحجيرة الأخيرة في الحمَّام، خرجت وانتبهت إلى عيني ليلي متَّجِهَةً إلى مكتب المستشار. قفا رأسها، والحدبة الزرقاء لحقيبة الظهر خاصتها. لم تحضر إلى صف اللغة الإنجليزيّة تلك الظهيرة، لكني رأيتها عند نافورة الشرب لاحقًا، وقد ضمّت شعرها كلّه في قبضتها، وانحنت لترتشف الماء.

اقتفيت أثرها عندما شرعت في صعود السلم. وعند عتبة البداية، لاحقت عينيها تتحركان صوب نافذة في الطابق الثاني، تستطيع منها رؤية بضعة غربان قرمزية اللون، تسحب النفايات من مطمر الزبالة في المدرسة. توقَّفَت هنيهةً لتستوعب ذلك كله. أمكنني رؤية بياض عينيها عندما أدارت رأسها. بعدها، عندما قرع الجرس الأخير، راقبتها أثناء عبورها مشيًا إلى القاعة المضاءة بالفلورسنت، وكان الموجودون فيها يختفون من حولها.

من الخارج، لم يتغيَّر شيء بشأن ليلي. لا زالت ملابسها مبهرجة ولامعة: بلوزات ضيِّقة بدرزات متشابكة مع جينز بلون باهت ومتلاش، وممزق بشكل فائض. لا زالت تظهر كثيرًا فلقة صدرها. لا زالت تكثِرُ من المشي على أطراف أصابعها كأنها طائر يلتقط الأكل من الأرض. كانت ليلي دومًا الحيوان المدلل للجميع. الآن، صار الجميع يبتعدون عنها عندما تمر، بل لا ينظرون إليها. حتى «لارس سولفين» صديقها منذ الصف السادس، اكتسى بلون أحمر لامع تحت لحيته الشقراء عندما رآها آتية عبر القاعة. كان طوله ستة أقدام، ويقف في

الصف الأمامي الثاني في فريق الهوكي. لقد وجد طريقة بارعة للابتعاد، إذ أسند نفسه إلى خزانة قريبة، وأخذ يتفحص ساعته الرياضيَّة. تحلَّق أصدقاؤه حوله مع اقترابها، وتلمَّسوا أطراف قبعاتهم، وشدُّوا جينزاتهم. وأبقى الكل عيونهم مسدلة - بعيدًا، بعيدًا، بعيدًا عن فلقة صدر ليلي- لكن ذلك السيئ الحظ الذي كان الأقرب إلى باب غرفة الصف أحسَّ أنه مجبر على فتح الباب لها. قالت:

- شكرًا لك.

ليس بابتسامة، وكذلك ليس بلا ابتسامة.

تبعتها إلى صف علوم الحياة، لكني فتحت الباب لنفسي.

لسنوات جلست بقربها في الصف: ذلك أن اسم «فورستون» لم يكن بعيدًا عن «هولبُرن» في القيد.

لسنوات راودني إحساس غائم بوجوب حماية ليلي مختلطًا مع غيظي منها. إنها ليلي التي تعيش في مقطورة على بُعدِ ثلاث بحيرات إلى الشمال، التي أحبَّها الجميع، التي يتهاوى والدها كل سبت في مكان ما من الطريق السريع «غوزنيك هاي واي»، ويتوجّب حمله إلى الكنيسة صبيحة الأحد. الآن، قرّبت مقعدي منها قليلًا. راقبت الخيوط الخضر ترتجف على كُمِّ بلوزتها، عندما فَتَحَت دفترها. لم تكن تدوّن ملاحظات، وفق ما لاحظت، عن الحيوات القصيرة القابلة للتوسّع للكائنات الوحيدة الخلية. لم تكن منشغلة برسم تخطيطي عن الدور الأساسي للبكتيريا في تفكيك حلقات سلسلة الغذاء. كانت ترسم بقلمها ببطء حلزونيات ثعبانيَّة، ثم تعبئ الحلقات المتصلة بعشرات، بل بمئات، من الوجوه المبتسمة.

3

مَنْ يراقب مَنْ؟ تساءلت بِحَيرة صباح ذات يوم أثناء تفقدي الكلاب، إذ رأيت التلسكوب موجّهًا عبر البحيرة إلى كوخ والديَّ. كان موجَّهًا كرمح منغرس في قلب الكوخ، إلى نافذتنا الوحيدة بإطارها المحشو بالخِرَق. ثمة قماشة من القنَّب ملوثة بالعفن، تلوح على بابنا. أحسست بوخز في فروة رأسي.

نظرت إلى الأعلى. فوق رأسي، ثمة ورقة صفراء باهتة تتلاعب بها الريح. نظرت إلى الأعلى، ثم إلى الأسفل من دون أن أخفض بصري كثيرًا. التقطت الورقة من الهواء بقفزة صغيرة. ثم بيد واحدة تحسست جماجم الكلاب؛ نافخة كالعادة على سلاسلها لأذيب الجليد. ثم تنهّدت:

- هاااا.

شرعت الكلاب في التقلقل والدوران، وشرعت أحرِرها الواحد تلو الآخر. قلت لها:

- اذهبي.

أطلقت «آيب» و«دكتور» و«كوايت» و«جاسبر» إلى الغابة. لهنيهة، أصغيت إلى أنفاسها اللاهثة أثناء تقافزها في الثلج المستقر. بعدها، وفيما الشمس تبيّض أعالي الأشجار، أصخت السمع لأنين البحيرة تحت مخالب ضوئها. فهي لن تصمد كثيرًا، وفق ما أعرف.

لم تصمد. عندما انزاحت فلول الثلوج إلى الشاطئ في قطع مسنَّنة، وتراكمت فلول الثلوج على الكثبان في المنحدرات الشماليَّة، رأيت ذلك الطفل ثانية، عبر البحيرة، مقرفصًا على جانب الطريق على مسافة ليست بعيدة من بيتي.

كان ذلك من الأيام التي تستطيع فيها أن تنسى سحَّاب سترتك مفتوحًا، وعندما عدت إلى المنزل من موقف الحافلة كنت أقرأُ كتابًا. لم أعد أدري ما الذي كنت أقرؤه. عند تلك النقطة، انخرطت في شيء ما يتَّصِل بالخرائط والرسوم التوضيحيَّة. «**الإنقاذات الكبرى في الغرب الشمالي القديم، كيف تصنع قارب «كاياك» بنفسك**». كنت على مقربة من ممر السُمَّاق، عندما رأيته. هناك درّاجة هوائيّة منقلبة على مساحة من الحصى، مستندة إلى مقودها. احتجت إلى بعض الوقت كي أتنبَّه لوجود فتاة منحنية فوقها، تتلاعب بسلاسلها. عندما اقتربت، نظر الصبي والفتاة إلى الأعلى. كان لهما العينان السوداوان نفسهما، وفق ما لاحظت، وأيضًا الشعر الأشقر- البرتقالي نفسه.

فكرت في غزالين يرفعان رأسيهما، في حركتهما المنسَّقَة تلك. فكرت في شيء ما يركض. لكنهما لم يذهبا إلى أي مكان. قال الصبي، بمزيج من حماسة المُنشَغِل:

- هاي.

ثم عاد إلى عمله الملقى على الأرض.

قال للفتاة التي بجواره:

- إنها هي التي هناك.

أجابت الفتاة:

- مَنْ هي التي هناك؟ لا أعتقد أننا تقابلنا.

على غرار الصبي، كانت ودودة لكن مشتتة.

- أعتقد أننا أدخلنا أنفسنا في تشابك ما.

ضحكت بيسر، ووضعت يدًا مشحَّمَة على رأس الصبي.

- أنا نابغة في الدرَّاجات، كما ترين. جديًّا، عندما يتعلّق الأمر بالسيّارات، فحتى زوجي لا يثق بي. هو ليس بطريركًا أو شيئًا ما من ذلك القبيل. ليس ذلك ما أعنيه.

من دون أن يرفع بصره إلى الأعلى، قال الصبي:

- بطريرك.

وقالت كأنها تنتظر تأكيدًا مني:

- رجل مسؤول عن الأشياء، ومن دون عدل... صحيح؟

ردَّ الصبي مستمرا في انشغاله:

- لا بأس.

بدا أنه يكوم أوراقًا سوَّتها الثلوج في كيس أسود.

بدت راغبة في أن أوافقها الرأي. قالت:

- مثلًا، جنحت بالسيارة خارج الطريق في اليوم الأول لمجيئنا، أوصلتها إلى حافة الثلج. وآآآآم. لذا، أعلنت أنني سأتمسّك بالدرَّاجة. إنها أفضل. صحيح؟

بَدَت أصغر مما ظننت خلال مراقبتي لها عبر النافذة، أثناء تلك الأيام كلّها، وأطرافها أكثر نحولًا من جسمها. الآن، بَدَت ضئيلة الحجم إلى حد أني استطعت مقارنتها مع نفسي. ارتَدَت جاكيت صوف بقبَّعة، بأكمام مثنيّة إلى الأعلى، وأضافت:

- أنت جارتنا في الجهة الأخرى من البحيرة، صحيح؟ هل حيَّيتك؟

ثم التفَتَت إلى الصبي:

- هل قمت أنا بتحيّتها؟ لقد نسيت كيف يكون الكلام مع الناس.

وقف الصبي قائلًا:

- يكون الأمر هكذا: كيف حالك!

اندفع إلى الأمام، ومدَّ إليَّ يدًا سوداء ضخمة كي أُصافحها. كانت شيئًا منتفخًا ملتويًّا بغرابة، والأصابع مفرودة بزوايا غير متوقَّعَة.

نكصت إلى الوراء بخطوات قصيرة.

قال:

- إنه «يدي الثالثة»... من أجل البقاء.

استغرقت هنيهة قبل أن أُلاحظْ أن يد الصبي مكسوّة بقفاز رجالي له أوراق، وأنه يضربها الآن على جذع شجرة صنوبر. بعد بضع ضربات، جلس لاهثًا.

شرحت الفتاة:

- إنه مشغوف بذلك.

- إذًا، أنا بترا الوالدة، وهو الصبي بول. وإلى الآن أنت «المساحة الخالية»[1] جارتنا.

ضحك الطفل:

- المساحة الخالية.

من قُرب، بَدَت أصغر سنًّا من أن تكون أمًّا. لم يبدُ أن لديها حواجب، كانت بمثل نحولي - من دون استدارات - ترتدي حذاء تنس، بنطالًا ضيّقًا، وجوارب صوف طويلة مرفوعة فوق البنطال وصولًا إلى الركبتين. وعلى غرار الصبي، كان لها شعر أشقر ناعم، لكنه أكثر تجعُّدًا، يمسك به طوق رأس من البلاستيك. عندما ابتسمت، انزلق الطوق إلى الخلف على فروة رأسها. قالت:

- كنت أمزح. أنت....

فكرت أن أقول لها ماتي، فيما أسقط النسيم بعض الراتنج عن الأشجار. قلت:

- ليندا.

جذب الولد المقرفص على الأرض كُمَّ والدته.

- لديَّ شيء لأقوله لها .

- قله إذًا.

وهمس:

- إنه سر.

---

(1) الكلمة المستخدمة في النص الأصلي هي «بلانك» Blank، لكن القصد هو أن المتحدثة لا تعرف اسم جارتها. (المترجم)

حثّته على المتابعة. كنت على جانب من الطريق، وكانا على الجانب الآخر. حدثتني قائلة:

- انتبهي قبل عبور الطريق، رغم أني لم أر سيّارة واحدة تعبر منذ توقفنا. إنه أمر رائع. السكان المحليّون يقرؤون في منتصف الطريق العام.

هل كانت تغمز آنذاك؟ هل كانت تسخر مني؟ هل توجَّب عليَّ أن أضحك؟

قالت للصبي:

- هناك، إلى اليسار. امضِ إلى هناك.

في المحاكمة، دأبوا على سؤالي عن اللحظة التي أحسست فيها أن هنالك خطبًا ما. ربما كانت الإجابة هي: من اللحظة الأولى. لكن، تَخافَت ذلك الشعور عندما عرفته عن كثب. طريقة بول في الكلام اللاهث، الطريقة التي توجب فيها أن يجلس كلما توتَّر؛ على نحو مُطَّرِد، بدت لي تلك الميول كأنها طريقته لا أكثر. كان بول هشًّا وصعب المراس، وكذلك مهووسًا وصاخبًا. تعوّدت على أمزجته. ورغم أنه يعطي انطباعًا بعمر أكبر مما لديه، كان في الرابعة عندما تعرّفت إليه. حواجبه منسدلة، ويداه حمراوان كبيرتان. لديه خطط تتوافق مع من يكبر من الرابعة إلى سن الخامسة: رحلة إلى المريخ، الحصول على حذاء بأشرطة. كان يبني مدينة من حجارة وأعشاب على طاولته. على معظم ثيابه هنالك قطار هو لعبة «توماس» الصبي الشبيه بقاطرة محرّك القطار، أو سيّارات الماشية من القرن التاسع عشر، أو صورة لمحركات بخاريّة مطبوعة على صدره. لم يصعد قطارًا حقيقيًّا في حياته أبدًا. في الربيع بأكمله، كان يكوّر نفسه في المقعد الخلفي على درَّاجة والدته، للذهاب إلى مخزن البقالة أو مكتب البريد.

ارتدى دومًا أينما ذهب ذلك القفاز الجلدي الرجالي الذي اهترأت أصابعه وصارت قرمزيّة، وغدا كفُّه أخضر من أثر العفن.

سلمّني القفاز بمجرد عبوره الطريق. أعطاه لي ثم وضع يده مكوَّرة في حضنه. وجعلني أنحني كي أسمعه، وهمس:

- يجب أن أذهب إلى الحمَّام.

أتذكّر أنني فكرّت بشيء مثل «أوه، من فضلك». تحرّكت الشمس المشعّة مبتعدة عن الطريق، باتجاه الغابات. ماذا كان يُفتَرض أن أفعل حيال ذلك؟ نظرت إلى أمّه التي كانت تمسح يدها بقميصها، وتوقِف الدرَّاجة ثانية، وتنادي ابنها كي يعود إليها. وسارت بالدراجة المُطَقطِقَة عبر الطريق ممسكة إياها من المقود. تدَّلت خوذة الصبي، معلّقة من شريط الذقن، من خصرها. ابتدأت بالقول:

- أعتقد أنه يجب....

لكن الأمر بدا واضحًا. كان الصبي ممسكًا بحضنه بيديه كلتيهما. بدا من غير الضروري قول ما قاله، واستخدام كلمات الصغير بصوت عالٍ. وعلى كل حال، كانت تهم برفعه، ثم حشره في المقعد، وتثبيته فيه.

بدا موشكًا على البكاء، لذا قبَّلتهُ أمه على جبهته، وأزاحت الشعر من أمام عينيه.

- لا حظَّ لك مع الدراجة، يا صغيري، لكني سأدفع الدراجة ونسير ونغني. ما رأيك بذلك؟

غمغَمَ الطفل قائلًا:

- الملك وِنسِسلاس الطيِّب[1].

- هل يناسبك الأمر، ليندا؟ هل تودين العودة معنا مشيًا؟

ابتسمَت فوق رأسه، ورأيت كيف أنها تبدّل ملامح وجهها بسرعة من الأم الراعية إلى البالغ المتآمر.

سرَّني الأمر، لأسباب لا أستطيع تفسيرها بأنها جزء من الولاء الذي حدث أخيرًا. هززت رأسي موافقة، ففاجأت نفسي.

---

(1) الجملة بداية أغنية ميلاد شهيرة للأطفال. (المترجم)

حين وصلنا إلى منزلهما، كان الباب غير مغلق. أدار بول المقبض بيديه كلتيهما. سار الطفل والأم على حشية المدخل بتؤدة. ودمدم الطفل:

- فـِ- في- فـُ- فوم.

وردّت الأم:

- أشمُّ رائحة رجل إنجليزي نبيل.

ثم ارتميا على الأرض، هو في حضنها. راحت تنزع حذاءه، فيما تقبل عنقه. إنه شيء مهم، فكرت بذلك أثناء مشاهدتي أداءهما طقس الدخول ذلك.

راقَبَت القطط المشهد بحذر من حافة النافذة. تجاوزت حشية المدخل، ودخلت إلى الغرفة، وكان ذلك أشبه بالخوض في ماء ساخن؛ فالحرارة مرتفعة إلى ذلك الحد. ودفعة واحدة، أحسست بطبقات ثيابي كلّها، كل ذلك الوزن الذي كان يثقل عليَّ، وصرت قادرة على أن أحسَّ بالطبقات بالتالي: سترة الصيد، الكنزة، الرداء القطني، قميص الـ«تي شيرت» القصير الأكمام، لا يوجد حمَّالة صدر، عرَق. سالت نقاط عرَق من إبطي الأيسر. ارتجَفْت. قالت بترا:

- حسنًا، ادخلي.

وَقَفَت مرتدية جواربها، وحثَّ بول خطاه كي يتبوَّل، بعد أن أصبح بلا حذاء.

كان جلُّ منزلهم هو تلك الغرفة الواسعة التي طالما رأيتها من النافذة ليلًا. شكَّل المطبخ بمقابضه اللامعة الجدار الداخلي، ولاحت البحيرة فوَّارة بملايين الأسماك السنَّاريَّة الفائقة الصغر عبر النوافذ البعيدة. كان الأثاث جديدًا كله، إذ أمكنني رؤية ذلك، وكلّ ألوان الكستناء والكريم، كل البني والأصفر. الأرائك المخططة تتقاطع في الزاوية، وطاولة بلون أسمر مصفرّ، طريّة كحطبة اقتطعت توًّا من شجرة صنوبر، تقف في القلب من المشهد كله. عبر الرواق المعتم الوحيد، تناهى إلى سمعي صوت مياه متدفِّقة. وبرز الطفل من عتمة الرواق، يتقافز مرتديًا جواربه، طافرًا من سجَّادة بيضاويَّة إلى أخرى، في لعبة معقدة بدا أنها تستأثر بتركيزه كله. ثم عاد إلى جانبي، وقال:

- اخلعي حذاءك.

جزمة، جوارب صوف للمستنقعات، أصابع رجل متقشِّرة. هززت رأسي.

- إذًا، اخلعي جاكيتك.

أبقيت عليها. تعطي الغرفة إحساسًا بأنها مسكوبة في ضوء الشمس. ضوء يشبه البول باهت ورفيع وحار. لثانية، قلقت من إمكان أن تراني أمي هنا، عبر البحيرة والنافذة. ثم تذكَّرت كم تكون تلك النوافذ المثلثة معتمة خلال النهار. لم يكن هناك شيء لتراه. قال الصبي:

- اخلعي حذاءك.

قالت له أمه:

- أصبَحتَ طاغية يا بول.

كرّر بصورة ميكانيكيَّة:

- طاغية.

- كالبطريرك، بل أسوأ. إنك تملي على كل شخص ما يجب فعله. لم ينتخبك أحد لتولي السلطة.

كانت بترا عند المنضدة، تملأ إناءً بالماء. تذكَرت كيف تحدث الأمور بعد ذلك، عبر مراقبتي لها سابقًا. سيتبع ذلك بسرعة وجود أقداح، وأطباق مغلّفة بالبخار. سيلي ذلك سريعًا أن تقطّع لنا أشياء عدّة. ثم اقترحَت:

- لنطبخ شيئًا ما. تعالي يا ليندا.

تشبَّث بول بيدي. وأخذ يترجاني:

- اخلعي حذاءك... اخلعي حذاءك... اخلعي حذاءك.

لم أنحنِ إلى الأسفل. لم أستعمل صوتًا مُعَدًّا خصيصًا لمخاطبة الأطفال. قلت له بهدوء يكفي ليصل إلى سمع بترا. بهمس تقريبًا.

- كلا. شكرًا لك. اترك يدي. حسنًا؟

نظر إليَّ الصبي مرتبكًا. كأنني طلبت منه أن ينتزع وجهه.

خلال عشرين دقيقة، كنَّا نأكل لفائف معكرونة بالزبدة، وسلطة خضراء رقيقة الأوراق مصنوعة من نوع من الخس لم أره أبدًا في حياتي من قبل. التَفَّت الأوراق حول شوكتي. جعلت الجاكيت حركتي متيبِّسة، وبحذر لكن من دون إتقان، رفعت قدحي لأرتشف الشاي.

جزمتي ثقيلة في قدميّ. دهنت زبدة على قطعة «توست»، وكان العرق يمسح طبقاتي الداخلية، عبر الرداء وقميص «التي شيرت». لم أمانع في ذلك. في عمق قدحي، طفا كيس الشاي كشيء غارق، لكن مذاقه مبهج كالربيع، كالنعنع مع الكرفس. جعل البخار أنفي رطبًا، وصنع ضبابًا أمام عيني. وببراعة، قطّعَت بترا الطماطم الكرزيَّة في قطع مستديرة. ثم قالت:

- سأُخبر ليو عنكِ. كان واثقًا بأن قدامى الهيبيّين والنُسَّاك يقطنون هذه الناحية النائية في البلدة. وقال إنه يجب الحذر من الدببة وصراخ البط.

أبدى بول موافقته قائلًا:

- **يوجد بط.**

سألت بعيون تائهة:

- ليو؟

فسَّر بول الأمر:

- أبي.

أضافت بترا:

- إنه في «هاواي». يقدّم إحصاءات شهر مارس، يبحث عن مجرّات في طور التكوُّن. يطلق لوائح إحصائيّة.

أحنيت رأسي:

- آوه، **«هاواي»**.

جرّبت أن أقول إنني كنت هناك مؤخّرًا، ووجدت الطعام مُحبِطًا، والسكان المحليّين غير ودودين. هززت كتفي باستهانة. كأنما قضيت شطرًا كبيرًا من حياتي في البحث عما يسمَّى مجرَّات في طور التكوُّن أو الجزر الاستوائيَّة.

قالت لي بترا:

- هيبي... عمَّ تريدين أن نتحدث!

كانت تفكك لفائف المعكرونة لـبول بالشوكة والسكين، واضعة إياها على شكل خطوط متوازية في صحنه. صَمَتت.

- يجب أن نهاتف أمك، أليس كذلك؟ وأن نخبرها عن مكان وجودك، في حال كانت تفكِّر بإعداد عشاء لكِ. هاكِ.

مدّت يدًا إلى الخلف، وأخرجَت شيئًا من جيبها. أشارت خلفها من دونما تحديد.

- هناك برج خليوي لشركة «فروست سيرفس»، وثَبَّت ليو على الحافة الخشبيَّة جهازًا لتقوية البث. لذا، تستطعين الحصول على إشارة إذا خرجتِ إلى الحافة في الخلف، وراء التلسكوب.

وبعد هنيهة، أضافت:

- أحيانًا.

بحذر، أخذت الخليوي الذي أعطته لي. كان أثقل مما توقَّعت بالنسبة لحجمه.

بعد ذلك بسنوات، سأرمي هاتفي الخليوي عمدًا في النهر - راكمت فاتورة مرتفعة الثمن، وقطعوا الخدمة فأصبح هاتفي عديم الجدوى - أما في ذلك الوقت، فلم أكن قد حملت خليويًا قط. جلست هنيهة أتحسَّس وزنه الثقيل، متلمّسة هيكله البلاستيكي المستدير، والجذع المطاطي للـهوائي فيه. بعدها، ومع توخي الحذر بألَّا أصيب شيئًا بكوعيّ المحشورين في سترتي، دفعت الكرسي إلى الخلف، وعبرت الغرفة.

على الحافة الخشبيَّة في الخارج، كان الوقت قريبًا من الليل. في الهواء المتجدد البرودة خارجًا، صارت سترتي خفيفة إلى حدٍّ لا يصدق، كأنها ذابت تقريبًا. وقفت ساكنةً، وتركت عينيّ تعتادان على الظلمة المتسارعة. بين تلك

الظلال كلّها، وحده التلسكوب بدا نابضًا بالحياة، بكل غرابة. طائر كبير ممطوط - أحد الأنواع المتحوّلَة جينيًّا لمالك الحزين - حطَّ فوق خشب الغابة، وراح يراقبني. راقبت البحيرة، وتجاهلت التلسكوب. اختفى آخر الثلوج، والضوء الأخير للشمس صنع لونًا بنيًّا فوق سطحها المتكسّر. تمايل بطٌّ غوَّاص ثم اختفى في المياه.

أخيرًا، بعد أن أزحتها عن كل ذلك، ثبَّت عينيّ على منزل والديَّ.

لم يشعل أحد النور، وهو أمر ليس غريبًا. لا شك أن أبي يشرب زجاجات البيرة من نوع «كوايت» في الزريبة. في معظم الليالي، تخيط أمي أغطيتها على الطاولة قرب المدفأة إلى أن يصل الظلام حدًّا توشك معه أن تخز نفسها بالإبرة. عندها، وكأنها فوجئت، كأنها مصدومة بانتهاء يوم آخر - أن يومًا آخر جرى تسليمه - تَعْمَدُ عادة إلى إضاءة المصباح أو تشغيل المولِّد الموجود خلف المنزل، فتضاء لمبة في المطبخ. تفعل ذلك كأنها جوبِهَت به.

إذا كنت هناك، منكبة على الجزء الأخير من الوظائف المدرسيّة، تسأل:

- لِم لَم تقولي لي إنها مظلمة إلى هذا الحدّ؟

لا أعلم لماذا سرَّني دومًا أن أسمح لليل بالتسلل على ذلك النحو. لا أعرف ما علاقتي بذلك الأمر كله، لكنه كان صحيحًا؛ أني عرفت في أغلب الأحيان أن الظلام قد حلَّ، وبدا الأمر كأنه استدراجٌ لها إلى الفخ عينه المرَّة تلو الأخرى.

أمسكت بك، فكرت بذلك.

رغم أن البحيرة تصبح ضيّقة هنا، إلا أن عبورها على الأقدام يعني السير حول محيطها لمسافة ميلين - المشي لمدة ساعة في الغابة - وصولًا إلى كوخ والديّ. إنه واقف هناك: نصف مسقوف، أكوام الحطب تحدُّه من الجانبين، مظلِم خلف أشجار الصنوبر. ثمة ممر موحل ضيّق يتلوى من خارج المنزل، إلى ورشة الأدوات، إلى باب الكوخ. طوله من الداخل عشرون قدمًا وعرضه ستة عشر قدمًا، بما فيها غرفة والديّ والعليَّة فوقها، بما فيها غرفة

المعيشة التي تحتوي مدفأة الحديد والطاولة المصنوعة من خشب مستعمل. لقد قستها. في الأمسيات المظلمة، لم أتبيَّن سوى خيط من دخان يخرج من أنبوب المدفأة. بالكاد تمكنت من رؤية ظلال الكلاب سابحة في ظلال أشجار الصنوبر.

من خلفي، أستطيع سماع أصوات واضحة. شُوَكٌ تخدش أطباقًا بمخالبها، وعشاءً يبرُد.

ضغطت على مجموعة عشوائيّة من الأزرار، وقرَّبت الهاتف من أُذني. تخيَّلت بترا تراقبني من الخلف، لذا أخذت نفسًا عميقًا.

- كلا يا أمي! أنا بخير. سأعود إلى المنزل خلال ساعتين. كلا! إنهم لطفاء! بترا وبول. أرادا أن أبقى بعد العشاء. أرادا مني أن ألعب الورق بلعبة «اذهب للصيد»[1]. أن أقرأ قصة للصبي قبل نومه، وأن أشاهد فيلم «ساحر أووز» من أسطوانة «دي في دي». أرادا مني البقاء وأكل الفوشار. كلا، لا أعرف ماذا يفعلون هنا. هي رائدة فضاء أو شيء ما من ذلك القبيل، وزوجها كذلك. كلا، ليس ذلك غامضًا، إنه علمي، إنه تعريف العلوم. إنها النجوم. كلا، لن يخطفوني، إنهما أم وطفلها وليسا طائفة ولا تشاركيَّة للهيبيّين أو أي شيء غرائبي. أوه، إنهما طيّبان وبريئان حقًّا. يحتاجان المساعدة والإرشاد. يحتاجان شخصًا يعلّمهما عن أمور الغابة.

---

(1) لعبة ورق جماعية شهيرة في أميركا وأوروبا تستغرق قرابة 15 دقيقة. (المترجم)

4

فعلت ذلك. عند حلول إبريل، بدأت في أخذ بول لتمشيات عبر الغابة، أثناء مراجعة أمه مخطوطة بحث لزوجها. توزّعت الأوراق المطبوعة في رزم في أرجاء الكوخ، فوق المنضدة وتحت الكراسي. هنالك أيضًا أكوام من الكتب والمطبوعات. استرقت النظر إلى العناوين. «**توقّعات ووعود: أجسام من الفضاء الخارجي**». «**العلم والصحة مع مداخل إلى الأناجيل**». «**ضرورات الفضاء**».

كانت توجيهات بترا واضحة:

- فليكن المنزل خاليًا لبضع ساعات.

أُعطيت وجبات سريعة في أكياس بلاستيكيّة خاصة، وبسكويتًا من نوع «بريتزل» في صُرَرٍ بنية صغيرة. أُعطيت قناني مياه صغيرة في رزم زرقاء، كتبًا عن القطارات، علبًا صغيرة لمحارم ورق معطرة، كتبًا للتلوين وأقلامًا للرسم، وكريمًا ليُسَمّر الجلد بأشعة الشمس. وضعت تلك الأشياء على ظهري. أمسكت يد بول. كانت أصابعه رطبة ومهتزة. لكنه أعطاني ثقته، ولم يشعر أبدًا بالصدمة التي تحدثها ملامسة جلدي لجلده.

لم يكن كالحيوانات. لم يتوجب عليَّ التفوق عليه.

عشرة دولارات في اليوم؛ منحتني بترا ذلك، لذا تركت عملي الجزئي في المطعم، الذي يوجب عليَّ أن ارتدي مريلة ورق تشبَك بدبابيس على صدر كنزتي كملابس الدمى. لطالما أحسست بشيء من ألم التردد، عندما يترك رواد المطعم أطباقهم وأكوابهم وسندويشاتهم نصف المأكولة. يتركون خلفهم بقشيشًا من قروش رطبة محشوة بفتافيت صغيرة. كانت بترا تدفع ورقة جافة من فئة عشرة دولارات.

بعد دوام المدرسة، أخذت بول إلى مكان على البحيرة حجارةُ الغرانيت فيه مكشوفة وترسم مسارات كبيرة لامعة بلون الكوارتز. بقيت بضع أكوام من الثلج على شاطئ البحيرة. ثمة نوارس تحوّم فوقنا عاليًا. جلسنا فوق طحالب تأكلها الغزلان عادة، وبصمتٍ أكلنا كعكًا مملحًا. في العادة، يدسُّ بول يده في كيسه البلاستيكي لثوان، ثم يقلب باطنه إلى الخارج، ويلعق الملح منه. أحيانًا، كنت أُدخّن سيجارة كمن يختلسها، ثم أُلقي بها في المياه المفتوحة. وبعد عشر دقائق تقريبًا، تصبح مؤخّرتانا رطبتين، فأستلُّ حقيبة الظهر من خلف الشجرة، ثم نمضي.

بعيدًا عن الصخور التي دفّأتها الشمس، تصبح ساعات ما بعد الظهر باردة عند حلول الخامسة. لكنه شهر إبريل. فرغم أن البراعم لا تزال قاسية كأسنان رماح على الشجر، كان باستطاعتنا أن نشمَّ عطن الأوراق تحت كتل الثلج في الحُفَر. لم أَعُدْ أُمسِك بيد الصبي. في ذلك الوقت من السنة، تكون الغابة خالية وناعمة، مناسبة تمامًا لصبية صغار يرغبون في القفز عن الصخور وجذوع الأشجار. كنت أسبقه بضع خطوات، مستكشفة ممرًا عبر الوحول والعليق. في العادة، يجلب بول معه قفاز الجلد- لم يملك سواه - وصار يملؤه حينًا بالحجارة، وحينًا بأوراق الصنوبر الإبريَّة، وحينًا بِكُرات سوداء. التفتُّ خلفي وقلت:

- آوه، أيها السمين.

وَرَدَّ شارِحًا:

- من أجل المدينة.

رفعت حاجبيَّ:

- هل تحتاج المدينة براز الأرانب؟

صحّحَ لي:

- كرات المدفعية.

لم يكن مملًا مثلما توقَّعت. قال للسناجب:

- حاذري.

شُغِفَ إلى حد الجنون بالبراز، وغسلَ كراته المدفعية إلى أن ذابت في قارب مملوء بالماء وِراسٍ على الشاطئ. علًمته كيف يهشّم الأغصان الصغيرة كي يتعرّف طريق العودة إلى المنزل، أن يسير على الأجزاء المحزًزة من الصخور لأنها زلقة أقل من غيرها. لكسر الصمت، للقيام بعمل ما، شرعت في تسمية الأشياء له، أثناء تمشيتنا.

شجرة القطلب. القراقف. عندما نعثر على علب البيرة تحت نتوء صخري مخضوضر، يشير بول إليها، وأقول:

- إنها صدئة.

أحيانًا، يحدثني بول عن بحوث أبيه، (إنه يحصي النجوم الطِفْلَة)، وعمل أمه (إنها تصحّح كلمات أبي)، والمدينة التي يبنيها على طاولته. تضمُّ شوارع من لحاء الشجر، وجدرانًا من عصي وصخور، وخطوط قطار من أوراق جرى تسطيحها.

سألته ذات مرَّة:

- من يعيش في المدينة؟

تذكًرت أطفالًا من أوقات خالية، عندما كان المهجع العمومي مكتظًّا بهم. يأتون بأشياء كبناء مدن للجنيّات، ويصنعون أشخاصًا صغارًا يظهرون في الليل. نظر إليّ مُحبطًا من السؤال:

- لا أحد يعيش هناك.

- إذًا، لم تبنيها؟

هزّ كتفيه باستخفاف.

- إنها مجرد مدينة.

كرّرت وراءه:

- مجرد مدينة.

بإمكاني أن أحترم ذلك.

كان يعتبرني أمرًا مسلمًّا به. عندما يتسلق صخرة ولا يستطيع النزول، يفتح ذراعيه - من دون أن يقول كلمة - وأحمله من تحت إبطيه. عندما يريد التبوّل، وهو ما تكرَّر كثيرًا، يكتفي بالقول:

- أريد الذهاب.

عندما رأيت عُضوَهُ للمرَّة الأولى شعرت بموجة من التعاطف والقرف تشبه ما شعرت به ذات مرَّة عندما عثرت على كتلة من صغار فئران عارية متجمعة في جوف جذع شجرة. تملك تلك الفئران انتفاخات زرقاء في مكان العيون، وذيولًا زهرية تجمعها في حزمة كبيرة.

عندما ساعدته على رفع سرواله الرطب، قال بول:

- بيبه.

ثم مسح يده بورقة شجرة. قلت موافقة:

- بيبه.

في المرَّة التالية، أشرت إلى جذع شجرة وقلت:

- حاول أن تصيب ذلك.

في كل ظهيرة، نسمع الأسراب العائدة من الإوز الكندي تحلِّق فوقنا. كان بوسعنا سماعها تعطي الأوامر لبعضها بعضًا، تجهد في تيارات الهواء محنية مناقيرها الشبيهة بحرف «ڤي» بالإنجليزيَّة. عندما توشك الشمس على المغيب، نعود أدراجنا، ويكون بول متأخِّرًا بل يتأخر خلفي أكثر فأكثر، وعندما يكون النهار باردًا حقًّا - مجرد نموذج مصغَّر عن برودة ليالي شهر إبريل - أضع بول في حقيبة الظهر، وأضع الحقيبة على ظهري، ونعود إلى المنزل عبر البحيرة. تنغرس أصابعه في شعري كفتَّاحة سدادات الفلين، وتدفئ أنفاسه إحدى أُذنيَّ.

ذات مرَّة، وكنت أساعده على النزول من صخرة كبيرة، عثرنا على عش بط بري، بعيد عن الشاطئ إلى حدّ أن البطات الصغيرة لم يكن بوسعها سوى أن تتعرَّج في دوائر مذعورة، محاولة الابتعاد عبثًا. حاول بول لمس إحداها. عادت

الأم البنيَّة بضع خطوات متقلقلة، صافقة بجناحيها؛ ونظرت بعينين فارغتين إلى الكارثة الموشكة على الحدوث. لم تفعل شيئًا لتتدخَّل، وكذلك لم أفعل، فيما أمسك بول بإحدى البطَّات. كانت نواياه طيِّبَة: كان صبيًّا لطيفًا. وفي اللحظة الأخيرة، ارتد بيده كأنما فوجئ بشيء ما، كأنه أحسَّ بشيء ما فظيع تحت ذلك الملمس المزغب، شيء ما هش وصلب وغير متوقَّع.

قال:

- أوه!

سألت وقد ضقت ذرعًا به مجددًا:

- ما الأمر؟

بطريقة ما، وخزتني حساسيته، وجعلتني غضبى. أردت منه أن يأخذ البطة وأن يفعل شيئًا ما طائشًا وقاسيًا، لذا ذكَّرته بأن يكون لطيفًا. لا أعرف. أردت أن يكون الشخص الذي يوقفه عندما يكتشف تركيب العظم تحت الريش. أردت التدخُّل لمصلحة الحيوانات. ضايقني أن يكون حذرًا وخائفًا على ذلك النحو. وقفنا نتفرج على عودة البطة إلى أمها بخطى متعرجة، وعاود سرب البط التجمُّع تحت شجرة صنوبر.

في لحظة غريبة، انتابتني رغبة بأن أرفع صخرة وأقذفها بها. ربما أردت أن أبيّن لـبول شيئًا ما يجعله يخاف من الأشياء التي يجب خشيتها فعليًّا.

مرَّة أخرى، وعند بداية المساء، وفيما كنت وبول نعبر التلَّة الأخيرة، وأنا أحدّق بعينين ضيقتين في الغابة المتزايدة الظلمة، رفعت غزالتان رأسيهما دفعة واحدة وميَّزتا نفسيهما عن الأشجار.

حدَّقنا بهما، وحدَّقتا بنا، على مدار ثلاثين ثانية، من دون حركة. وتضاعفت أعدادها أثناء النظر إليها. في البداية، أصبحت ثلاثًا ثم أربعًا ثم خمسًا. لونها بمثل لون لحاء الشجر والأوراق - بني غامق - لكن الجلد حول عيونها كان أحمر. أحسست بالنسيم يسير على ظهورها، ورفعت جديلة عن صدري، وألقيتها على كتفي. همس بول:

- ستنال منّا.

وأمسك بيدي.

- إنها خائفة منا.

ظهرت اثنتان أخريان. ارتجف بول. حاولت تهدئته وقلت:

- حسنًا. حسنًا. إنها فرائس.

تحت الريح، بدت الغزلان فضيَّة اللون. اهتزَّت آذانها الزهرية. عرفت أنها ستنطلق بعد لحظة، إذ استطعت أن أرى أوراكها تتصلّب. لكن، حتى أنا انتابني التفكير غير المنطقي بأنها ستركض للنَّيْل منا. بدت مستعدة للتصالح.

ثم انطلقت صوب أَكَمَة بعيدة، بأذيال بيضاء مرفوعة. وتقافزت بتلك الأناقة الميكانيكية التي تملكها الحيوانات - كالجراد والطيور - كأنما لا شيء سوى الموت، يقدر على مقاطعة الإيقاع المتكرر لحركاتها. رشَّت الأغصان مطرًا قديمًا علينا. كنا لوحدنا.

فِ- في- فُ- فوم. حساء من علبة، خسَّة من كيس. شعر قطط على سترتي. زحفت القطط من حواف النافذة إلى السجادة، وتدحرجت كمن يؤدي طقسًا دينيًّا، مبرزة مخالبها لبعضها. شريط فيديو لكلب يتكلم، كتاب ثم كتاب. كان بول يَعُبُّ عصير التفاح بسرعة، فسال بعضه على ذقنه.

- تمهَّل قليلًا يا بول.

تدلَّت سترة الصيد التي أرتديها، من مشجب معقوف كصنارة، واحتفظت بشكل كتفيَّ المتصلّبين. على السقف، تدافعت السناجب على الأرض، حبوب شجرة القيقب وعنب الدب تطلق جذورًا جديدة كالشعر. كانت الكلاب تجرجر قيودها في الجهة الأخرى من البحيرة وتحت شجر الصنوبر، ويتزايد جوعها، وتنتظر عودتي إلى المنزل. في الجهة الأخرى أيضًا، كانت أمي تنسى إشعال الضوء في المساء، وربما أو ربما لا، تراقب كل شيء.

بعد بول، ذهبت بترا إلى السرير. خرجَت من غرفة النوم الخلفية وشعرها ملتصق بوجهها، كأنها كانت نائمة. لقد أعطتني أحجية حصان «آبالوسا» مكوّنة من مئة قطعة، كي أعمل عليها أثناء إعطائها حمامًا لـبول؛ وعادت ترمش بعينيها كأنها فوجئت بأنني لا زلت أعمل عليها. وعندما رأتني جالسة إلى الطاولة، محاطة بالقطع المتناثرة لـلأحجية، قالت:

- آه، ليندا!

وضعت يدي تحت الطاولة، عثرت على خيط في طرف كم سترتي كي أعبث به. قلت لها:

- هاي.

أعتقد أنها أُحرجَت فقد نسيتني، لانشغالها بتحضير وجبات خفيفة بسرعة: فوشار في الميكروويف وبيض مسلوق جيّدًا وضعته في شطيرتين من نوع «باغي» كي آكلهما أثناء عودتي إلى المنزل؛ كل شيء أبيض ودافئ، إحداها خفيفة كالأوراق والأخرى يتصاعد منها البخار وهي في كيس بلاستيك. وضعتهما في جيوب سترتي. وحينها، سألت في حيرة، إذ حدَّقَت بسكون عبر النافذة فيما غصن يضرب زجاجها، قائلة:

- أليس الظلام شديدًا للسير في الغابة وحدك؟

أخرجت ورقة عشرة دولارات من محفظتها، وناولتني إياها.

لففت الورقة على هيئة أنبوب، ونظرت إليها عبره كأنما أُحدّق في تلسكوب مصغّر، وقلت:

- كلا.

ثم قلت:

- ها أنت هناك.

ردت بترا، من دون أن تقصد الضحك:

- ههه.

ثنيت الأنبوبَ من منتصفه. وبعدها، ببساطة، سَرَت فيَّ موجة من الإحساس بالذل، كأنني السيد غريرسون وهو يحكي نكتة التليفون، كأن بترا هي ليلي تسخر مني وتستعجلني. هه. حتى ضحكتها تطلب مني الرحيل.

لِمَ لَمْ أرحل ببساطة؟ كل ما توجَّب عليَّ فعله هو أن أتجاهل الأمر. كل ما توجَّب عليَّ فعله هو أن أنأى بعقلي عنها، فيكون باستطاعتي أن أرى كل تلك الأشجار العتيقة تصفر فوق رأسي وأنا أمشي عبر البحيرة، القمر القديم نفسه يزيح بعض الغيوم ويرسم ممرًا مضيئًا. حسنًا، أحببت الليل دومًا. عرفته جيّدًا. ولكن، ولسبب ما، كنت أجد صعوبة متزايدة في فتح الباب. دسست ورقة النقود المطوية في جيبي مع البيض، وأمضيت وقتًا طويلًا في إقفال سحاب سترتي. في اللحظة الأخيرة، قلت:

- ما الذي يكتبه زوجك؟

نظرت اليّ بتباطؤ، قالت:

- آممممم.

وضعت يديَّ في جيوب سترتي، وقارنت وزن البيض والفوشار. قالت:

- أعتقد أنه شيء مثير تمامًا. إنه بشأن الفضاء.

- أوووه.

منحتني ابتسامة صغيرة أثناء انحنائها وهي تمد يدها إلى القط الأسود. مشى القط على البساط وارتمى بين ذراعيها، وكأنه سمكة معلقة بخيط جرى اصطيادها بملء إرادتها. حدَّقَ بي بعينين نصف مغمضتين تحت كفها، فبدا لي مثل مصباح بوجه إنسان مُحَطَّم.

- أنا آسفة.

أتاحت للقط أن يهمهم ويموء تحت يدها.

- إنها أحد الأشياء التي لا يفهمها كل شخص. هل تعرفين نيوتن؟

- الذي قتلوه؟

هزَّت رأسها.

- ذلك كان غاليليو الذي كاد يفقد رأسه. نيوتن مُنِحَ لقب فارس.

قلت:

- صحيح.
- يقول السير إسحاق نيوتن إن الفضاء هو مجرد فضاء. كأنما لا شيء فيه يستحق الاهتمام. أما آينشتاين فقد نفى ذلك. إن الأشياء تؤثّر في الفضاء، وتستجيب له.

كانت تمسّد القط بطريقة أدَّت إلى تجمع كهرباء ساكنة تحت كفّها.

- اللاشيء هو شيء في نهاية الأمر. بالطبع، هناك رياضيَّات تثبت ذلك، لكن أيضًا هناك بعض المُشاهَدات. أعرف أن الرياضيَّات تبدو متعارضة مع المُشاهَدات. تظهران على ذلك النحو أحيانًا، وزوجي منشغل بتلك النقاشات. لكن، في النظام الكبير للأشياء هناك توافق محكم.

كنت متحفّظة بتشكك، قلت:

- هل ذاك هو الكتاب؟

ضحكت.

- إنه المقدّمة. كيف يتوجَّب علينا أن نثق به...

صمتَت لبرهة.

- نثق بالمنطق إذا أردنا فهم الحقيقة الفعليَّة للطبيعة. يميل الكتاب بأكمله لأن يكون تاريخًا عن نظريَّة الحياة من وجهة نظر علم الفلك. وهو موجَّه إلى الجمهور العام. إنه لا يثبِت شيئًا جديدًا، بل يكتفي بإظهار أن فهمنا للبرهان هو موضع سؤال، ولذا...

بدا كأنها تريد إقناعي بشيء لا تؤمن به هي نفسها أو لا تفهمه بصورة تامة. كانت تنظر فوق رأسي، تفكر في كيفيَّة معاودة البدء وتكرار القول، أو إذا ما كان يجب أن تأبه لذلك. فتحَت فمها، ثم أغلقَتهُ.

قلت لها:

-   لا بد أنك تحملين درجة جامعية في الإنجليزيّة، أو شيئًا من هذا القبيل.

كشَّرَت بطريقة مسرحيَّة.

-   كنتِ تتجسَّسين على تاريخي الشخصي؟

أشرت إلى مخطوطة على المنضدة.

-   رأيت الطريقة التي تجرين فيها التصحيحات. كأنك مدرّسة.

تأوَّهَت:

-   أوه، ذلك أسوأ كوابيسي. تدريس ميلتون[1] إلى تلامذة الثانوي.

وَضَعَت يدها على ذراعي.

-   لم أقصد أي إهانة.

-   حسنًا.

ثم عادت إلى تمسيد القط، وفي حركة متكسرة؛ مددت يديَّ لألمسه أيضًا. وعندما فعلت ذلك، انفتح جيبي، وسقطت بضع حبوب من الفوشار على الأرض. انحنيت إلى الأرض، مدمدِمة:

-   اللعنة.

وببساطة، ركعت بترا على ركبتيها كي تساعدني. اندسَّ القط تحت الأريكة.

راقبت بترا تلتقط حبّتي فوشار بعيدتين وتضعهما وهي شاردة الذهن في فمها. ثم إنها انتبهت لنظرتي فاحمر وجهها.

-   كان ذلك مقرفًا. صحيح؟ كان مقرفًا.

في الحقيقة، كانت جميلة، وابتسامتها تخرجني من نفسي.

-   ليس فعليًا.

---

(1) شاعر إنجليزي من القرن السابع عشر، اشتهر بالأعمال الشعرية ذات الطابع الديني، كـ«الفردوس المفقود» و«الفردوس المستعاد». (المترجم)

نثرت مزيدًا من حبوب الفوشار على الأرض وأكلتها.

عندما ابتسمَت بترا حقًّا، ابيضَّت شفتاها واختفتا في وجهها. من قُرب، رأيت كتلة على شفتها العليا، وتجمَّع نمشٌ بني ليصنع نقاطًا على جفنها العلوي. امتدت ثلاث تجاعيد متوازية على جبهتها لكنها تتلاشى تقريبًا، وليس كليًّا، عندما تكون ابتسماتها عريضة. أكلت حبة أخرى عندما جلست على الأرض، ثم أخرى و أخرى، وابتسمت حين فَعَلَت ذلك. عندها، وللمرّة الأولى منذ تلاقينا، دار بذهني أنها ربما كانت مستوحِدة.

5

لأحكِ عما أحلم به الآن، أكثر من أي شيء آخر. الكلاب. تحاول أن تجعل أصابعي المنمّلة تلتف حول المزالج المخادعة لسلاسلها. تكسّر الثلج في أمعائها كي تحصل على ما تشربه. في أحلامي، أتعامل معها بعصا، الطرف القوي من الفأس، أو بكعب جزمتي. ثمة مشكلة، إذ يجب فعل ذلك بسرعة. في أحلامي، أعود إلى المنزل متأخرة دومًا. أصل دومًا مجتازة الانحناءة الأخيرة للبحيرة بعد حلول الظلام بكثير، وها هي متجمّعَة قرب المنزل: إنها أصغر من أن تكون كلابًا، بمعنى ما. تبدو أقرب إلى الفئران أو الغربان أو الأطفال في سن الخربشة؛ إنها نصف مقرفصة في خندق حفرته بنفسها في الثلوج. تلعق الجليد من قوائمها لكن لعابها لا يفيد إلا لتثبيت الثلج مجددًا على قوائمها التي علكتها إلى حد إدمائها. إنها تولول، وسلاسلها ملتفة حول قوائمها: تعرفون كيف تسير تلك الأحلام. أما في الواقع، بالطبع، فإن أبي يجلبها إلى الزريبة ويطعمها، عندما لا أصل إلى المنزل في الوقت المحدد. أما في أحلامي، فأرى الثلوج معلَّقَة في أنوفها كالأنياب. أراها وقد لاحظتني في الغابة، وتكون متضوِّرَةً حبًّا. إنها تندفع وتزمجر. إنها سعيدة لرؤيتي.

عمليًّا، اكتشف كلب حزمة الصور في شقة السيد غريرسون في شقته بكاليفورنيا. قرأت عن ذلك في صحيفة «نورث ستار غازيت» بعد أسبوع من طرد السيد غريرسون. أَجَّر شقته من الباطن لطالب مدمن على الكوكايين، ووفق المقال، فقد بدأت الشرطة برنامجًا للكلاب بدعم مالي من مربٍّ ثري لكلاب الـ«بولدوغ» الإنجليزيّة. كان الجميع فخورًا بالبرنامج الذي فاقت نجاحاته

توقّعات المُرَبي. أجرى محرر الجرائم في «غازيت» بضع مكالمات مع «فيرتايل هولو» في كاليفورنيا، لأن المقال احتوى اقتباسات كثيرة عن «البولدوغ». قال المربي الثري:

- أسأنا فهم الطبيعة الحقيقيَّة لتلك الكلاب، عندما وضعنا جزماتٍ في أطرافها، وصعدنا معها إلى الأسِرَّة. أعطها مهمَّة! لا تجعلها كالجدَّة في قصة «ليلى والذئب».

استطاع كلب «بولدوغ» اسمه «نستله كرانش»، في أقل من عشرين دقيقة، العثور على كيلو من الكوكايين في درج جوارب ذلك الطالب الجامعي، مع صندوق أحذية مملوء بتلك الصور القذرة تحت مغسلة الحمَّام. كان العثور على الصندوق مصادفة محظوظة، وليس جزءًا من التحقيق الأصلي. مع ذلك، لم يكن من شك في ما أظهرته أو من كانوا فيها. إنهم «قُصَّر»، وفق المقال. قُصَّر في مغلفات بريدية سميكة موجَّهة إلى السيد غريرسون القاطن في «ويست بالم بوليفار». مَنْ يعرف لِمَ تركها هناك بعد مجيئه إلى «مينيسوتا»، أو لماذا استخدم اسمه الحقيقي في تلك المسألة. كان المقال غامضًا بشأن الأجزاء الكريهة، ومتحمسًا وفَرِحًا في سرده، مُركّزًا على السيد غريرسون واعتقاله أكثر من الانتصار الذي حققه الكلب الذي اكتشفه. في النهاية، رُقي «نستله كرانش» الآتي من مركز «فيرتايل هولو» إلى رتبة رقيب ومُنِحَ درعًا ذهبيًّا، وإجازة أسبوع، وملء قبعة شرطي من بسكويت الكلاب ماركة «ميلك بونز».

لم يكن هناك شيء في ذلك المقال الأول - ولا في تقارير الشرطة الأولى - عن السيد غريرسون وطالبة ما. لا شيء عن بحيرة «غوون» أو القُبْلة. لكن ذلك لم يوقف الشائعات.

في ذلك الربيع، أبقيت عيني مفتوحتين على ليلي. وأنا في طريقي إلى المدرسة ذات صباح من إبريل، رأيتها تخرج من شاحنة أبيها خلف ملعب

البيسبول. تدنت الحرارة في الليلة السابقة، وأعطت طبقة من الجليد الطازج إحساسًا عابرًا بعودة الطرق إلى رغوة الثلج المرشوش بالملح.

وفيما ابتعدت الشاحنة مزمجرة، راقبت ليلي تلعق كفيها العاريتين، وتنحني لترطب بلعابها أطراف بنطلونها الجينز الملوثة بالملح. تأرجح معطفها المفتوح، وكانت يداها عاريتين، ورأسها مكشوفًا وشعرها مبللًا. لاحقتها أثناء عبورها الملعب لتصل إلى المدرسة، وأحسست أن باستطاعتي رؤية شعرها يتجلَّد أثناء مشيها. تأرجَحَت مع ظلها، ثم تيبَّسَت. بدت كشيء يمكنك كسره بيديك.

في الداخل، لم تذهب رأسًا إلى غرفة الصف. قُرِعَت الأجراس كلها، ولاحقتها عبر القاعات الخالية، نزولًا في السلالم المعتمة، عبر الباب المغلق لقاعة الرياضة، بعد خزانة تذكارات البطولات والميداليات البرونزية وصور الفتية الذين أحرزوها رافعين إبهاماتهم الصغيرة. كانت هادئة وأنا أشد هدوءًا، أضع كل قدم على الأرض بحذر - قدمًا تلو الأخرى - كأنني أمشي في الغابة. جعلت الغطاء الفليني المطلي بـ«اللينوليوم» يمتص صوت خطواتي. وكان حذاء تنس ليلي يصدر صَريرًا.

اشترت علبة كوكاكولا من آلة البيع، وتوقَّفت هنيهة لتعُبَّ جرعات منها قبل أن تحشر العلبة نصف الفارغة خلف مُبَرِد الآلة. تثاءبَت مليًّا فبرزت ذقن ثانية لها في عنقها. كان ذلك إلهامًا بالنسبة لي. ستكون ليلي سمينة مستقبلًا. أعرف كيف قضت أم ليلي في حادث سيارة عندما كانت الابنة في الثانية عشرة، كيف يوصلها أبوها إلى ملعب البيسبول كل صباح، كيف تذهب إلى أستاذ خاص لمعالجة عسر النطق، في درس منزلي.

أعرف أن «لارس سولفين» قطع علاقته معها أخيرًا، قبل حفلة الرقص لنهاية المرحلة الثانوية بأيام قليلة ، وحينها عرفت ما الذي كانت تقوله عما فعله السيد غريرسون لها. قادها بالسيارة إلى بحيرة «غوون» الخريف الفائت، وفق قولها، قادها في سيارته عقب دوام المدرسة ثم **قبَّلها**. تلك كانت الكلمة التي سمعتها

باستمرار في القاعات، «قُبلة»، وكان هناك شيء ما غير مقبول في ذلك، كأنما لم تكن قادرة على جعل نفسها تسمي شيئًا آخر أشد وضوحًا.

لا أدري لم تتبعت ليلي طويلًا ذلك اليوم، ولندع جانبًا أن الأمر كان سهلًا. وفيما استمرت في عبور القاعة الخالية، مرَّرت أصابعها في شعرها وفتحت البُكَلَ التي تجمعه. خلَّفَ حذاء التنس خاصتها آثارًا رمادية على الـ«لينوليوم». فكَّرت أنها ربما تتجه إلى رصيف الصعود إلى المركبات كي تتسلل خارجًا، تهرب من الصف؛ لكن لا. ذهبَت مباشرة إلى غرفة خزانات الفتيات، تبوَّلَت على أحد المقاعد، غسلت يديها، نظَّفَت أسنانها بأصابعها، وسارت إلى ركن المفقودات، في الزاوية.

بقيت خلف رصَّة من الخزانات المفتوحة، وراقبتها. اعتاد الناس القول بأن ليلي صمَّاء قليلًا. اعتاد الناس القول بأنها عاطفيَّة قليلًا، إنها تُرِكَت في الخارج طويلًا في البرد، عندما كانت طفلة، ولم تنضج أبدًا، لأنها لم تكن تقول سوى بضع كلمات في المرة الواحدة، ولأن مقطورة أبيها تلاصق المحميَّة بعد ثلاث بحيرات شمالًا، سُمّيت «ليلي الهنديَّة» عندما كانت طفلة. مسكينة «ليلي الهنديّة»، اعتادت صغيرات الكشافة قول ذلك وهن مرتديات بدلاتهن، وكُنَّ يمنحنها أكواب حلوى «البودينغ» التي يأخذنها من وجبات الغداء الخاصة بهن، رغم علم الجميع بأن أطفال «الأوجيبوا» الحقيقيين لديهم مدرسة خاصة قرب بحيرة «واينساغا». رغم ذلك، استمرت القصة لحين موت والدتها، بأن جدَّة ليلي لأمها، أو جدَّة جدَّتها، كانت عضوًا في تلك القبيلة، وخطر لي أن ليلي لم تنفِ ذلك أبدًا.

كنت أفكر بهذا في ذلك اليوم وأنا في غرفة الخزانات، أثناء مراقبتي لها وهي تنثني على نفسها، وتفتش بسرعة في صندوق عُلِّقَت فيه سترات وحمَّالات صدور. فتشت بطريقة ممنهجة في الأشياء المُعاد العثور عليها، إلى أن وجدَت زوجين من الجزم السوداء بكعب عالٍ، جعلاها تبدو فجأة أكبر عمرًا بمجرد ارتدائهما. طويلة بأناقة، بإطلالة مؤثِّرة من دون تكلُّف. بدت كمن يستطيع أن

يرفع عينيه إلى المرآة، فتراني خلفها تمامًا. لكنها لم تفعل. عصرت شعرها المبلل بقبضتيها واعتصرته حتى آخر قطرة ماء. ثم، مع تنهيدة، خلعت تلك الجزمة، وانتقت شيئًا لن يطالبها به أحد أبدًا؛ زوجين من القفازات الصوفيَّة الزرقاء السميكة، ثم حشرتهما تحت أحد إبطيها. راقبتها ترد شعرها إلى الخلف مستخدمة مشبكًا فقدته واحدة غيرها، ولفَّت على عنقها وشاحًا زهريًّا قديمًا لغيرها. وقبل أن تربط شريط حذاء التنس خاصتها، دسَّت في جيبها زجاجة قرمزية فيها مزيل لطلاء الأظافر.

إنه شهر مايو، مَنْ يحتاج جزمة على أية حال؟ كانت أزهار الليلك تتكاثر انفجاريًّا بشكل مبكر. غطت براعم التفاح الحامض الأغصان على نحو ما فعل الثلج قبلها؛ بيضاء مثله لكنها أشد ابتذالًا. تراكمت البتلات على قبعة بول أثناء تمشيتنا. تجمعت القراقف في أنشوطات.

إنه شهر مايو، وصار بول يسأم من الغابة، تمامًا في الوقت الذي غدت فيه الغابة مثيرة للاهتمام. وعادت بطَّات الغابة بقلنسواتها الخضر اللامعة كي تبقى، على غرار ما فعلت القنادس. كان ممكنًا أن تراها تسحب جذوعًا كاملة مستخدمة أحناكها وحدها. سألت:

- راضٍ؟

ضرب بول عصا على صخرة. أراد نصب أرجوحة، وزلّاقة.

أراد اللـهو في ساحة ملعب مع علبة فيها رمل، ومجرفة، ودلاء؛ شرط أن يكون أفراد «قسم المنتزهات والمياه» أنهوا تنظيفه، وحافظوا على جماله. يعرف بول عمله جيدًا عندما يتعلق الأمر بالمتنزهات. عاش معظم حياته في ضاحية في شيكاغو فيها أرصفة للتنزة وما شابه ذلك.

كلاب ذهبيَّة من نوع «ريتريفر» تلتقط أقراصًا بلاستيكية تستعمل في تدريبها. أراد بول أرجوحة من دولاب سيارة، ملعب بيسبول، وهكتارات من العشب المجزوز. قال:

- أيها الأخ، قندس آخر.

سخرت منه قائلة:

- أيها الأخ.

ثم انتابني إحساس سيئ.

إذ تمثّل الجانب الإيجابي أنه في يوم من الرذاذ الخفيف في شهر مايو، جعلته يبدو مرتَّبًا في رداء للمطر من المشمع الأخضر، أجلسته في الكرسي الخلفي للدرَّاجة وقدتها ستة أميال وصولًا إلى البلدة. عند صعود التلال، كنت أقف على البدَّالتين، وعندما ننحدر من القمة، نتعرَّج بين برك مزيَّتة بعرض الطريق نفسه. في دقائق، يغدو كلانا مبتلًا. وعند المدرسة الإعداديَّة، نخبخِب فوق الحصى المرصوصة في الملعب، وأدفع بول جالسًا في إحدى أرجوحتين بلاستيكيَّتين. سألته:

- هل ذلك ما تريده؟

قال:

- أعتقد ذلك.

كان واضحًا أن ذلك لم يكن كل ما يريده. مضى جيئة وذهابًا: وقفت في الخلف، وراقبت قبعة معطفه تتهزهز. سرى شيء من الأسف في صدري، كعصا مغروسة في رمل رطب، وانقضى الوقت على ذلك النحو. لاحقًا، كان إحساس يشبه الرذاذ يعاودني كلما شاهدت صبيًّا على أرجوحة. يرافق ذلك إحساس بانعدام الأمل، الإثارة قبله، والعودة في منتصف رحلة الطيران. الاعتقاد العبثي بأن المرة القادمة آتية، الطيران إلى الأمام مقبل، ولن يسحبك أحد منه مرة أخرى. لن يتوجَّب عليك البدء مجددًا ومجددًا. سألته:

- هل أدفعك بقوة أكبر؟

أجاب بعد هنيهة:

- نعم، أعتقد ذلك.

انتهى دوام المدرسة منذ ساعات، لذا في البداية كنا وحدنا في هذه الأعمال.

تعبت ذراعاي، رغم أن المطر بدأ في التوقف. في وقت ما، وصلت أم شابة مع مظلة، وطفل في عربة بلاستيكيّة، وطفلة صغيرة. بدت الطفلة أكبر سنًّا من بول: ارتَدَت جزمتي مطاط صفراوين، وسترة مطر زهريّة. عندما رآها بول، ابتهج فورًا.

أخرج كل الحصى من قفازه الجلدي، وأدخل يده فيه وصولًا إلى الكوع. أراد من الفتاة أن تدفعه، وعندما حلت محلي وأخذت تدفع أرجوحته بيديها، ظهرت تلك النظرة البلهاء على وجهه، تجمع بين التركيز والانبهار كأنه يحاول أن يراها من دون أن يدير رأسه. سرت إلى المقعد الطويل في المنتزه؛ لم أكن غيورة تمامًا ولا كريمة أيضًا. لم ينطق بول كلمة أخرى، بعد أن طلب من الفتاة أن تلعب معه. جلس بسكون على أرجوحته، متيحًا لها أن تدفعه من الخلف.

حينها، حصلت على رؤية كاملة له عندما يبلغ الخامسة عشرة. ظننت أني عرفت نوع الفتى الذي سيكونه بول. سيكون فتى من النوع الذي يترك نفسه على أرجوحة صغيرة طفوليَّة، تدفعها فتاة معجبة به، يكتب اسمه بقلم قرمزي على كفها، وتنتظره هي بعد دوام المدرسة. سيكون نجمًا متردّدًا لكن لامعًا، في مسلسل «**بلدتنا**»[1] أو نائب الرئيس في مجلس للطلبة بطريقة ساخرة لكنها مملوءة بالطيبة أيضًا. سيكون المُزاحِم البطولي المتوسط الكفاءة، لفريق اللعب. سيكون قد وَشَم رسمًا صينيًّا غامضًا على رسغه، شيء ما يستطيع وحده قراءته ومحوه جزئيًّا لأنه حصل عليه من صالون حلاقة قذر في «بيرفين». ربما نادوه بلقب «غاردنر»، ربما. سيكون صبيًّا من النوع الذي يعرف باسمه الأخير وحده.

قال للفتاة:

(1) مسلسل تلفزيوني تدور أحداثه في بلدة صغيرة، ويظهر التبدلات العميقة التي تحصل فيها، استنادًا إلى الحياة اليومية للأشخاص العاديين. (المترجم)

- إلى الأعلى.

من دون ضغينة ولا رغبة، كأنه يسدي لها جميلًا بأن يتيح لها أن تدفعه.

فوقنا، مرَّت طائرة مائية مستطلعة رؤوس الأشجار. في موقف السيارات، رسمت شاحنات عدة لصبية بالغين دوائر بين البرك الصغيرة دوى فيها الصراخ. كانت نوافذها مفتوحة. وكانوا يصرخون:

- ماركو!

عندما جلست قربها على المقعد الطويل الرطب، قالت لي الأم الشابة:

- أسنان.

قلت:

- آآآآم م، همممم.

أومأت برأسي موافقة، متجاهلة أن تلك الكلمة وصلتني كأنها أحفورة نظيفة آتية من حقبة أخرى من المعاني، إذ تلاءم مع مزاجي تصديق أن كلمات كـ«أسنان» و«ماركو» لا تحتاج مزيدًا من الشرح.

ثم قالت المرأة الشابة:

- يكاد هذا الوضيع أن يقضم حلمتي.

إذًا، حصلت كلمة «أسنان» على تعريف، ونُحِّيَت إلى ملف كل الأحاديث الصغيرة التي تقال من دون تفكير، كل الأشياء الواضحة التي تقولها لغرباء يجلسون في المطر على دكَّة في المنتزه. تنهَّدت، واستمرت في الكلام:

- أخوك نموذج لساحر النساء.

- ابنتك وقعت في سحره بسهولة.

راقبناهما لبرهة في صمت. وقفت الفتاة الصغيرة ذات الجزمة الصفراء قرب الأرجوحة تمامًا، وفي كل مرَّة رجعت فيها الأرجوحة، كان بول يعبر بسرعة محتكًّا بصدرها. بدت الفتاة موشكة على الوقوع.

زفرت المرأة من أنفها عندما تعثرت الفتاة.

- ليست ابنتي، حمدًا لله. أقصد أنها أختي.

اختلست نظرة إلى المرأة، ورأيت بثورًا على ذقنها وحواجبها منتوفة.

أسالَت لعابًا على سترتها الرياضيَّة، ووضعت في زاوية فمها حلوى «بيكسي ستيكس» على شكل قصبة صغيرة، كأنها شخصية خرقاء في فيلم رسوم متحركة؛ كان بمقدورها أن تكون إحدى فتيات الـ«كورنِ» اللواتي كُن في صفي قبل بضع سنوات؛ وعندما أدركت ذلك أردت أن أضحك، ليس لأن الأمر كان طريفًا. فالفتيات اللواتي يلبثن في «لوس ريفر» بعد الدراسة الثانوية يصبح لديهن أطفال دومًا، وهُنَّ يتزوجن في الثامنة عشرة، ثم ينتقلن إلى قبو في منزل آبائهن، أو يُقِمنَ في مقطورة للتخييم في فنائه الخلفي. يحدث ذلك عندما تكونين جميلة كفاية لتصبحي قائدة فريق التحميس، لكن دون أن يؤهلك ذكاؤك لدخول الكليَّة. وإذا لم تكوني جميلة كفاية تحصلين على عمل في الكازينو أو في بيت رعاية المسنين في «وايتوود».

حينها، سألتها لأكون ودودة معها:

- كم عمر طفلك؟

قالت:

- خمسة عشر أسبوعًا. أصبحت في منتصف الطريق. في الأسبوع الثلاثين، لن أستمر في هذا الإرضاع، أتعلمين؟ بات صديقي يخاف من حلمتيّ! يقول إنهما تقرفانه.

ألقيت نظرة جانبية أخرى عليها، بفضول. فكرت أنه أمر جيد أن صديقها بقي معها، على أية حال. في الحقيقة، أدهشني ذلك، إذ لا تمضي القصة على ذلك النحو غالبًا - في العادة الفتيات الجميلات يتزوجن الفتية الذين يغادرون البلدة إلى الجيش، أو إلى دوري الهوكي للكبار - إذًا لعل هذه الـ«كورنِ» لديها خيط سري من الموهبة. من طرف عيني، رأيت صدرها نافرًا من قميصها. بدا طويلًا بطريقة مفاجئة، مع حلمة على هيئة كتلة.

غامرت بسؤالها:

- لم لا تتوقفين الآن؟

رفَعَت حاجبًا ضيقًا:

- لست أمًّا سيئة! تقول الدراسات إن حليب الأم هو **الأفضل**[1] للطفل. صديقي مرتاح للبقاء **هناك**. يسميه النصف الأفضل.

تساءلت عمًّا يعنيه ذلك. كيف يحس بذلك.

صرخ بالغون من شاحناتهم:

- ماركو.

ردت سيارة أخرى:

- بولو.

تساءلت فتاة الـ«كورنِ»:

- ماذا يفعل لها؟

لاحقت نظرتها العائدة إلى ساحة اللعب. كانت الفتاة الصغيرة ممدَّدة تمامًا على ظهرها فوق الحصى، وقد أفرَغَ بول قفازه الأسود قربها. هل سقَطت؟ هل ضربتها الأرجوحة ورمتها إلى الأرض؟ فيما نحن نراقب، زحف بول فوقها فاردًا ركبتيه فوق بطنها، وكفَّاه على الصخور. بدا أنه يكلمها بهدوء تام، ورغم عدم وجود سبب للتفكير في أنه يفعل شيئًا سيئًا؛ أحسست أن هنالك شيئًا ما افتراسيًّا في وضعية الركوع تلك، شيئًا عدوانيًّا. كانت الفتاة الصغيرة ساكنة، ووجهها إلى الناحية البعيدة عنا. بدا بول كأنه موشك على تقبيلها في فمها.

لكنه اكتفى بالكلام. بدا كأنهما يلعبان لعبة ما. قال:

- هناك... مادة... ذلك كله... عقل.

لثانية، رنَّت كلماته كأنها آتية من كتاب، من قصة جنيَّات، تراكضت الكلمات معًا فكان صعبًا سماعها. ثم أضحت كلمات أغنيته واضحة:

- لا يوجد موضع الله غير موجود فيه.

---

(1) في النص الأصلي، استخدِمَت كلمة «براز»، لإيصال هذا المعنى، وهو أمر شائع في اللغة اليومية في أميركا. (المترجم)

سألتني الـ«كورِن»:

- ما الذي يقوله؟

- ما الذي يحدث؟

لم أكن متأكدة. نهضنا معًا. لكن، لسبب ما ترددنا في الاقتراب. بدا أن هناك شيئًا ما خاصًا جدًا بشأن ما نشاهده، شيئًا سرّيًا ومفرطًا يستثنينا كليًا. شرعت الفتاة الصغيرة في الأنين قليلًا، لكن بقي بول مقرفصًا فوقها، شعره الأشقر معلق فوق وجهه.

- لا يوجد موضع لا يوجد الله فيه.

صرخت الـ«كورِن» فيَّ:

- اللعنة، ما هذا؟

بدأت في السير قدمًا:

- اللعنة، ما هذا؟

- جلست في منتزه، ثم جاء مهاويس المسيح من اللامكان.

قلت مجفِلَةً:

- كلا.

- أخذت المخلوقات غير الطبيعيَّة في التقاطر إلى هذه البلدة، كالإوز الملعون.

سرت وراءها:

- انتظري...

أحسست بموجة من ضرورة القيام بالدفاع، وبعدها - كورقة تتأرجح في الريح. ثم اجتاحتني موجة من الارتياح. وضعت يديَّ على شفتيَّ. أحسست كأنني أخفيت أمرًا ما عنها طوال هذا الوقت، ثم دعتني هي أخيرًا للخروج من كذبة أدهشتني قدرتي على الاحتفاظ بها كل ذلك الوقت. لم يكن لدي فكرة عمَّا يعتزمه بول، وفي تلك اللحظة، لم يكن ذلك يهمني حقًّا. إذًا، كنَّا مهووسين. إذًا بول وأنا، لم نكن من سار طويلًا في الظهيرة للخروج

من «شارع السمسم»[1] في قبو، أو بسبب إصابة في الدماغ إثر ضربة بقرص الهوكي على الرأس، إذًا لم نكن متوجهين للقاء تلك الـ«كورِن» محدودة الموهبة وصديقها وطفلها الأصلع. إذًا، ماذا.

هرعت الـ«كورِن» إلى الفتاة، حاشرة الطفل تحت أحد ذراعيها. ثم أمسكت الفتاة بيدها، وجرّتها من تحت بول. لثانية، بدت الفتاة مصعوقة، كأنها لا تقدر حتى على التنفس، ثم أصدرت عويلًا حادًّا يصلح لطفل أصغر منها بكثير، مع بقبقة المخاط من أنفها. نظرت إلى بول بوجه واضح الانكسار، مع نظرة حب ويأس مطلق؛ كأنها أعطته كل شيء في الدقائق العشر التي عرفته فيها، وأنه قبل ذلك. آوه، لقد قبله على كل حال، إذا عُرِف مقدار كلفة ذلك.

لم أخطط لأن أسأل بول عما فعله معها، لكنه تحدث بنفسه عن ذلك. أثناء رحلة العودة إلى المنزل بالدراجة، جلس هادئًا لوقت طويل. وبعد فترة، أخذ يقول:

- تلك الفتاة... تلك الفتاة.

لذا، لويت عنقي إلى الخلف، وقلت:

- ماذا؟
- تلك الفتاة...

أحسست أن واجبي قول هذا:

- بول، هل آذيتها؟
- هي التي سَقَطَت!
- أنت أمسكت بها.
- أنا شفيتها.
- كفى!

---

(1) إشارة إلى مسلسل الأطفال الشهير «شارع السمسم» الذي ظهرت نسخة مقتبسة عنه بالعربيّة باسم «افتح يا سمسم» في آخر السبعينات من القرن العشرين. (المترجم)

بطبيعتهم، فالأطفال، وفق ما خطر لي، مخلوقات غير طبيعية.

يؤمنون بأشياء مستحيلة كي ينسجموا مع أنفسهم، يظنون أن تخيلاتهم المشتطة هي مركز العالم. إنهم أفضل أنواع الدجَّالين، إن رغبت بذلك، إنهم يدَّعون كذبًا من دون معرفة أنهم مُدعون. ذلك ما كنت أفكر به أثناء قيادتي الدراجة في العودة إلى منزل بول. صَرَّت الفرامل بأثر من المطر، وأزَّت دواليب الدراجة.

قال بول:

- كفى.

بطبيعتهم، الأطفال هم أيضًا ببغاوات.

6

في الحقيقة، أنا وبول لم نكن متفقين دومًا. احترمنا بعضنا بعضًا معظم الوقت، وبصورة عامة كنا جيّدين في التوصل إلى تسويات. قضيت مع بول ظهيرة كاملة نأكل الفطائر، ومنحني هو في المقابل ساعة في قارب «كانوي» في البحيرة. جلسنا إلى طاولة خلفيَّة في المطعم، ودفعت أنا من مدخراتي البطيئة النمو، وسوَّيت على الطاولة إحدى ورقات بترا من فئة العشرة دولارات، عند انتهائنا من الأكل. لا أرباع أو قروشًا مزيتة، ولا انتظار للفكَّة، ولا حديث قصيرًا مع «سانتا آنا»: النادلة ذات اللحية الخفيفة.

عند خروجنا، سأل بول:

- ما الذي يجعل هذه الفطيرة طيبة إلى هذا الحد؟

كان تحت تأثير إثارة السُكَّر. جعلته النشوة يتراقص قليلًا، يقفز من رجل إلى أخرى، مطرقعًا بأطراف أصابعه.

قلت:

- بسبب الاسم.

- تشوكليت؟

رفعت حاجبيَّ.

- مووس.

نظر بول إلى رأس وعل «الموظ»[1] الضخم عند المدخل، بقرونه العريضة

(1) هناك تشابه صوتي بين لفظتي «مووس» Mousse (قشدة مخفوقة) و«موس» Moose (وعل الموظ) بالانجليزية. (المترجم)

بحجم رجل فاردًا ذراعيه إلى أقصاهما، وقد بدا منخاراه الضخمان كأنهما كرتان.

كانت رحلة القارب صفقة أكثر صعوبة. لم يكن أمرها واضحًا منذ البداية. لم يرغب بول في أن يبتل حذاؤه أثناء دخول البحيرة، لذا خضت في الماء بجزمتي، حاملة بول بين ذراعيّ، ووضعته في التجويف قرب مقدمة القارب.

بدا ذلك أكثر ثباتًا من إجباره على أن يجثم بسكون على المقعد. ثم أعطيته بسكويت «البريتزل» وسترة نجاة كالحة كي يجلس عليها، على طريقة السلاطين. أخبرته أن يبقى ساكنًا عندما أجذّف: لا تهتز إلى الأمام والخلف، واكتَفِ بالنظر إلى الأمام. في ذلك اليوم، كانت المياه ساكنة وسوداء، تمتص كل ضربة من المجداف. أحسَّ بول بالملل إلى حد أنه نام. رأسه إلى الأسفل، ويداه معقودتان على وسادة، والماء يضرب القارب من تحتنا مصدرًا أصوات قرقعة. اضطررت إلى حمله أثناء العودة إلى المنزل، وساقاه ملتفتان حول خصري كطفل صغير. اضطررت إلى ترك قارب «الكانوي» في نصف رسوّ بين الصخور، حيث يمكن للريح أن تجرفه. لم تكن يدي حرَّة كي أجرَّه.

مع ذلك، كان يتذمر بين ذراعيّ، رافضًا أن ينزل إلى الأرض. استمر يقول:

- **توقفي عن ذلك، توقفي عن ذلك، يا ليندا.**

كأني كنت أعذبه بسعادة تلك الرحلة في القارب، بهدية يوم مثالي.

لا أقول كان التعامل معه صعبًا، لكنه امتلك مساحة شرسة. في مكان ما بداخله، ثمة خط حاد يفصل النظام عن الفوضى. مثلًا، لم يكن يتحمل أي تغيير في روتين حياته. إذا تصادف أني بقيت قليلًا بعد توصيله إلى المنزل، كأن تأتي بترا بطبق إضافي لتريني كيف أخفق الزيت مع الحامض لإعداد صلصلة للسلطة، تتفاقم لجاجته باطراد. متملّك. طوال العشاء، يتوسل كي يبقى في حضن بترا، وفي النهاية يشق طريقه إلى الأعلى ويلتصق برقبتها، ويكون عليها أن تأكل ورقة خس بشوكتها بيد، وتداعب شعره الأشقر بالأخرى.

في ليلة لها خصوصيتها كان بول متبرّمًا، وبترا تحاول البحث عن موضوع للحديث عنه، غير القطارات ومواعيد الاستحمام. أتذكّر كيف نَحَّت طبقها، وأسندت ذقنها إلى يدها، واستدارت ناحيتي.

قالت:

- حسنًا، يا ليندا.

في تلك الليلة، كان هناك شيء مضطرب في سلوكها، تشنجات حادة صغيرة في الجلد المحيط بعينيها.

- أخبريني. أنت من الفتيات اللواتي يرغبن في تربية الأحصنة أو شيء ما، أن تكوني طبيبة بيطريَّة عندما تكبرين. أستطيع قول ذلك. أنا محقة، أليس كذلك؟ ذلك ما تريدين أن تكونيه.

فعليًا، لم أكن من أولئك الفتيات. لم أفكر كثيرًا في المستقبل، لكن عندما أفعل، كل ما أستطيع الإتيان به هو صورة غرائبيَّة لنصف شاحنة، بيضاء تتهادى على الطريق السريع. بالطبع، لم أستطع قول ذلك. لا أستطيع القول سائقة شاحنة. ولكسب الوقت، نظرت نحو الجهة الأخرى من الطاولة، إلى بول الذي أخذ ينزل بتباطؤ من كرسيه إلى الأرض. كان يغني:

- أريد أن أكون فيـ-زيا-ئيًا... أريد أن أكون فيـ-زيا-ئيًا.

لم تكن بترا تسعى إلا إلى إثارة الغيظ. بإمكاني معرفة ذلك. لم تكن مهتمة فعليًا بما أقوله، طالما أني أتابع اللعبة. أرادت شيئًا قبل تنظيف الطاولة، قبل التودُّد إلى بول كي يذهب إلى السرير. تسلية قبل أن يتصل الزوج.

قلت مسلّمة نفسي:

- أستطيع أن أكون طبيبة بيطريَّة.

ثنت بترا ساقًا تحتها:

- أوه، كلّا! عندي لكِ شيء أفضل. أنا أجيد ذلك النوع من الأشياء. لنر بشأنك، ليندا، أنت تستحقين شيئًا لم تريه؛ مدينة كي تستكشفيها،

أتعرفين؟ حفنة من الأشخاص يدخلون عليك. يجب أن تكوني...

طرقعت أصابعها وأضاءت وجهها ابتسامة.

- موظفة في مطعم، فندق.

سأل بول:

- فندق؟

زفرت كي لا أبتسم.

- كأن أكون نادلة؟ فعلت ذلك قبلًا.

لوحَّت بيدي مشيرة إلى الغرفة كلها، كأني أقول، ما أمر كل ذلك، إذًا؟

- تركت ذلك كي أتفرغ لكِ.

فتحت عينيها على اتساعهما، وتظاهرت بأنها مصدومة.

- تركتِ أعمال المطعم لتكوني جليسة أطفال؟ يشكّل ذلك ضغطًا كبيرًا علينا كلنا هنا، أليس كذلك يا بول؟ إذًا، يجب أن نعطيكِ لقبًا أفضل. من أين جاءت كلمة «جليسة أطفال»، على أية حال؟

هزت كتفيَّ باستخفاف.

- إنها كلمة قبيحة، صحيح؟ هل ندعوك مربية، بدلًا من ذلك؟ لا ،لا، للكلمة رنين سيدة عجوز. ماذا عن مدبرة منزل؟

باتت تضحك الآن.

- ذلك أفضل بكثير. فلن يستأجروا جليسة أطفال أبدًا لرعاية «فلورا» و«مايلز». هل قرأتِ «تدوير البرغي»[1]؟ كما أن جليسة الأطفال لا تستطيع الوقوع في حب السيد «روتشستر»، أليس كذلك؟ كوني البطلة. أنت مدبّرة منزل.

صرخ بول من تحت الطاولة:

---

(1) رواية من القرن التاسع عشر، تأليف هنري جيمس تتميّز بأن مساراتها يمكن تفسيرها بطريقتين مختلفتين. والأسماء الواردة في الجملة، مستقاة منها. (المترجم)

- مدبرة منزل!

كان ينتظر تعريفًا للكلمة من بترا، وعندما لم تفعل، سحب قبضة من الحصى من قفازه الأسود، ورماها.

قلت له: احذر.

وتوجَّهت إلى بترا:

- لا أعرف. لست متأكدة. تبدو وظيفة مائعة بلا ملامح. وزيادة على ذلك، سيظنك الناس مليونيرة، أو شيئًا من هذا القبيل.

كنت أحاول عدم التكشير في وجهها.

عبست بترا:

- أنت محقة.

عبس بول أيضًا:

- حان وقت استحمامي.

سمحت له بترا أن ينام على صدرها. ربَّتت على خده، لكن عينيها كانتا مثبتتين عليَّ.

- أنت محقة يا ليندا. يظن الناس هنا أنني متكبّرة. ويعيدون ذلك إلى خلل ما فيَّ.

قطَّبَت حاجبيها، متابعة خطًّا جديدًا من الأفكار.

- لا زلت أستطلع هذا المكان، وأتعرف عليه. إنه أمر طريف. ذهبت إلى المطعم مع بول أربع مرات، أو ربما خمسًا؟ للغداء؟ أرى الأشخاص أنفسهم في كل مرَّة أذهب هناك، وينظرون إليَّ. يبتسم الكل ويلقون التحية. لكن أحدًا لم يسألني شيئًا عن نفسي. لا اسمي، ولا أي شيء. بطريقة ما، الناس ودودون ولكن أيضًا...

قلت:

- ليسوا كذلك.

سحبت يد بول عن أزرار قميصها، فاستعاض عنها بشعرها، مُمَرّرًا أصابعه في جدائلها الشقراء.

- «هل كان المجيء إلى هنا فكرة جيدة؟»، تسألني، «فكرنا أنه أثناء وجود ليو في «هاواي» هذا الربيع سنذهب إلى المنزل الصيفي الجديد. نذهب إلى مكان هادئ وجميل. أكون أنا وبول وحدنا، كنوع من الاختباء..»
- اختباء ممَ؟

لوَّحَت بيدها بحرية وبطريقة غير محدَّدة.

تعمَّدت إغاظتها:

- مِمَ أنت هاربة؟
- هل سطوتِ على بنك هناك، في «إلينوي».

ضحكت:

- ها، ها، ها.

واصل بول نتف شعرها، ليس بقسوة، بل بهدوء وتكرار. مازحتها:

- إذا كان الأمر كذلك، فلا أحد يهتم هنا بما تفعلينه طالما تبقين الأمر سرًّا لنفسك، وطالما أنك مثلًا لا تستولين على كل نقاط الصيد الجيّدة.

ردَّت:

- همممم.

أجفلت من قِدَم اللعبة التي سرت فيها. ولم يمنعني ذلك من تكرار المحاولة:

- وطالما أنك لستِ شخصًا لا يمكن أن يغفروا لك، كأن تكوني مطلَّقة أو ملحدة أو ما شابه.

حاولت بترا فتح أصابع بول التي كانت تنتزع شعرها:

- بلطف، يا حبيبي.
- أو مثلًا، أو..

قالت:

- بول، توقَّف.

أبعَدَتهُ عن حضنها، مربّتةً على ردفه كي تزيل أثر موجة الغضب في صوتها:

- اجلب لعبة «الأحجية»، أيها الشاب الصغير. لنلعب لعبة البومة، ما رأيك بذلك؟

عندما تركها، بدأت في تجميع الصحون والأطباق، مُصدِرَة ضوضاء، ومتحرّكَة بسرعة. وفجأة، عاودت الجلوس:

- لم أعد أدري فعليًّا مدى فائدة ذلك كله لنا، كل هذا السكون. لماذا أفكر أنه شيء جيد لنا؟ ربما كان الأفضل لـبول أن يعود إلى الحضانة، أن يخالط أناسًا يكونون... ربما لم يكن المجيء إلى هنا فكرة جيدة أساسًا.

بعدها، نظرت إليّ، وكان هناك شيء لم أتوقَّعه في عينيها.

قلت، من دون التأثُّر بالإحساس بالذنب في تعابير وجهها:

- لا زالت فكرة جيّدة.

في تلك الليلة، أثناء عودتي مشيًّا إلى المنزل، استمررت في التفكير بالسيد غريرسون، إذ اعتاد المجيء إلى المطعم لوحده في أغلب الأحيان. اكتشفت ذلك عند بدئي العمل نادلة هناك في الخريف. ومثل بترا، كان دومًا ينأى بنفسه عن الدردشات العابرة. وفي المرَّات القليلة التي خدمته فيها، كان يطلب طبق البيض المخفوق الخاص، ويقرأ رُزَم أوراق سميكة تعلوها صور مركبات فضاء، أثناء تناوله الطعام بالشوكة. كان يناديني «الآنسة أصالة» في إشارة إلى الجائزة التي حزتها في مسابقة «أوديسة التاريخ» في السنة السابقة. كان ليقول:

- شكرًا لك، «آنسة أصالة».

ويرفع كوب القهوة الأبيض، طالبًا مزيدًا منها. لم أكن أعرف ماذا أقول ردًّا على ذلك. أحيانًا، كان يسألني عن أساتذتي الجدد في الثانوية، قبل أن

يعود ثانية إلى كتبه. في العادة، يكتفي بطلب الكريما، مبقيًا إصبعه على السطر الذي يتوق للعودة إليه.

لكن، في آخر مرَّة رأيته فيها، في نوفمبر، لم تكن فترة دوامي في المطعم. قصدت المطعم لكي آخذ الشيك، لذا فالأرجح أنها كانت قرابة الخامسة مساء يوم الجمعة. كانت العاصفة الثلجية الأولى لتلك السنة متوقَّعَة في نهاية الأسبوع، وكنت آتية من مخزن بقالة السيد «كورهونِن»، أحمل حقيبة ظهر مملوءة بمشتريات اللحظة الأخيرة من لوازم الشتاء كالكاز، والملح، وأوراق التواليت وأشياء مُشابِهة. بدت ندفات الثلج الكبيرة والرطبة كأنها أوراق مطوية بعناية على طريقة الـ«أوريغامي»[1]، مُعلَّقة في الهواء خارج النوافذ كلها. وفيما عَدَّت «آنا سانتا» مستحقاتي المالية المكتوبة في السجل، مسحت الثلج عن شعري، وتظاهرت بأني لا أرى السيد غريرسون في الركن الخلفي. لم أعرف أبدًا إذا كان لقب «الآنسة أصالة» استهزاء أم مديحًا. لم أعرف أبدًا ماذا أقول له بعد انتهاء مسابقة «أوديسة التاريخ» والتوقُّف عن مقابلته بعد الدوام.

أذكر أن المطعم كان على غير العادة فارغًا في ذلك اليوم، إذ أن الجميع في بيوتهم استعدادًا للعاصفة. على نحو خاص، بدت طاولات الـ«فينيل» الكالحة وحيدة وباردة، مع كل ذلك الثلج الذي أرخي بياضًا على المساء في الخارج. هل رآني السيد غريرسون واقفة هناك؟ لا أعتقد أنه فعل. كان يقطِّع طعامه بالشوكة والسكين، ملقيًا نصف البيض في طبق آخر، ولم يخطر لي، إلا بعد أن غادرت حاملة الشيك، أن أحدًا ما ربما كان جالسًا قبالته على الطاولة، وظَهْر ذلك الشخص مُدارٌ لي. ولم يخطر لي بعد ذلك بكثير، سوى عند عودتي مشيًا من منزل بترا في ليلة دافئة في مايو، في الليلة الأولى التي سمَّتني فيها مدبِّرة منزل، أن ذلك الشخص ربما كان ليلي.

---

(1) أوراق زينة تقليدية في اليابان، تطوى بطرق مختلفة لتصنع أشكالاً متنوِّعة، وهي منتشرة عالميًا. (المترجم)

يحدث أحيانًا أن يتصل الزوج ليو بالهاتف، قبل الانتهاء من العشاء، ويُجفِلنا خليوي بترا برنين نغمة «**حرب النجوم**»[1]. في تلك الليالي، تدفع بترا كرسيها إلى الخلف، وترسل لي كلمة «**شكرًا لك**» مرسومة بفمها، وتسير إلى الحافة الخشبية الخارجيَّة. تعني «**شكرًا لك**» أن بترا تريد مني وضع بول في السرير. أفعل ذلك، بتلكؤ، وأرافقه إلى الحمام، وأترجاه أن ينظف أسنانه، مهدِّدة إياه لكي يبقى تحت الأغطية.

عندما أسير على رؤوس أصابعي إلى الباب، يصرخ:

- يفترض بكِ أن تعدي إلى المئة!

أواجهه، وأستدير عائدة، وأدفعه إلى الأسفل، قائلة:

- يفترض أنك تشعر بالبرد لأنك رفعت الأغطية عنك.

تلوَّى بين يديّ:

- يفترض بكِ أن تكوني لطيفة معي!
- «يفترض بكَ أن تكون طيِّبًا وهادئًا.» تنهَّدت، «أن تكون صبيًّا صغيرًا محبوبًا. أن تكون أفضل، لكنك لستَ كذلك دائمًا.»

ذات مرَّة، أُضيء الخليوي على الطاولة مع نغمة «**حرب النجوم**»، فيما كانت بترا على وشك الانتهاء من حمام ما قبل النوم لـبول. هرعت خارجة من الحمام لتجيب، مع منشفة معلقة على كتفها، وبول يسير وراءها مسرعًا وعاريًا. تقافز في المنزل وهو يقطر ماءً، مفزِعًا القطَّين اللذين جهدا في الوصول إلى الأريكة وتحت الطاولة. لا بد أنني أمسكت ذراعه بأكثر مما قصدت لأنه صرخ كما لو أنه طُعِن. وعندما جذبته نحوي، استدار على نفسه، وجرح وجهي بأظفره. أمكنني أن أُحس بلسعته الحادة تشق قوسًا من عيني إلى أذني. بحثت عن بترا، لكنها كانت مع هاتفها على الحافة الخشبية في الخارج. عند تلك اللحظة، تغيَّر

---

(1) إشارة إلى فيلم «حرب النجوم» (Star Wars) الذي اشتهر بذلك العنوان. (المترجم)

شيء ما في داخلي وغيَّر المسار، وببساطة حملت بول بكامل جسده - متقلّبًا وعاريًا، ويداه تضربان في كل اتجاه - واقتدته إلى السرير. رميته، وكأنني أفرغ حملًا من جذوع الأشجار، على فراشه. بدا مثيرًا للشفقة، وابتلت الأغطية من جسده المنثني العاري. لم تستطع أنفاسه إزالة البلغم من حلقه، وسحب أنفاسًا قليلة وطويلة، صدر عنها صوت غرغرة، فيما حدق بي بغضب. قلت:

- ليكن ذلك عبرةً لك.

أحسست كأني أبي، إذ كان ذلك ما قاله تمامًا عندما جررت قارب «الكانوي» لمسافة ثلاثة أميال في الوحل. أحسست كأني أبي، وفي الوقت نفسه كأني الطفل الذي حمل القارب، وكان يائسًا ومتألمًا ويبكي من شدَّة الإجهاد.

صرخَ بول:

- كوني هادئة!

سألتهُ:

- هل تريد مني أن أكون هادئة؟

كنت لا زلت أحس بذلك الجرح الذي أحدثه ظفره على طول خدي، والشكل الرطب الذي خلَّفه على ردائي القطني.

- هل تريد مني أن أكون هادئة؟

كان وجهه كرخام معرَّق بالأبيض والأحمر. قال:

- أنا طفل الله المثالي.

أمسكت بذراع بول.

- ماذا قلت لي؟

كان هناك شيء ما في عبارته المستقاة من أغنية - يشبه ما حدث عندما كان يتحدث إلى تلك الفتاة الممددة على ظهرها في المنتزه - جعل قفا رقبتي، بصورة غير متوقعة، يلسعني كالشوك. وجدت نفسي أهمس له:

- مَنْ أنت؟

لا بد أنني أخفته حقًّا، كما أعتقد، لأنه عندما تركته حشر ذراعيه تحت مؤخرته، امتص خدوده إلى الداخل، وحدَّب كتفيه. كان عاريًا إلى حد أن جلده بدا لي مثل لباس يرتديه. بدا مضمومًا بإحكام في بدلة زهريَّة ضيِّقة، بلا تجاعيد ولا درزات. رطب وغير شفاف بطريقة مبهمة. رائحة شامبو أطفال. رائحة بَوْل.

سمعت بترا تقرقر بالضحك طوال الوقت على الحافة الخارجيَّة، ثم تضيف شيئًا وتبدأ بالضحك مجدَّدًا. سرت إلى الباب وأغلقته.

قال بول:

- جرحتِ وجهكِ.

قلت:

- بللتَ السرير.

عندها، بدأ بالبكاء. بكى كما لم أر أحدًا يبكي قبلًا. كان وجهه متقلصًا، ولم يصدر صوتًا، لكن شهقة هواء حادة الصوت صدرت عنه كلما التقط نفسًا.

قلت له:

- اهدأ. سأساعدك في ارتداء ملابسك.

كان يئن، وقال:

- أريد أمي.

قلت:

- ليس بعد.

توسَّل قائلًا:

- أمي.

أشرت إلى بقعة داكنة على أغطيته:

- لا تريدها أن ترى ذلك.

وضع عينيه الرطبتين فوق ركبتيه، ولم ينظر إلى الأعلى. قلت:

- فلترتدِ بيجامتك.

سحب وجهه عن ركبتيه:

- بيجاما الـ«تشو- تشو»؟

قلت:

- نعم. بيجاما القطار.

تمدد على ظهره، فيما أدخلت قدميه في البيجاما الصوفيّة.

وشيئًا فشيئًا، جعلته يرتدي ملابسه، ثم نزعت الأغطية، وفردت لحافًا دافئًا فوق الفراش العاري، وخبّأت الشراشف المبللة في الخزانة مؤقتًا، وأشعلت الإنارة الليليّة في غرفته، وهي مصباح محدَّب يشع بنور أحمر دافئ. معًا، رتبنا ألعاب حيواناته المحشوة بالطريقة التي يحبها، فكانت في صفين مستندَيْن إلى الحائط. فتحنا كتاب الرواية المصوَّرة «وداعًا أيها القمر». طوال ذلك الوقت، كان بول يلف شعره بإصبعه ليأخذ شكل قرن مرتجل فوق جبهته. طوال ذلك الوقت، كنت أفكر في سترة الصيد خاصتي، على أي علّاقة وضعتها، كي أتمكن من ارتدائها والخروج بسرعة. كلانا كان مذنبًا وخجِلًا. كلانا بحاجة إلى راحة لا يستطيع أيٌّ منا منحها للآخر. كنت أحاول التفكير في ما أقوله لـبترا، التي ربما تعود في أي لحظة بنظرة حيرة وإحباط على وجهها، وهو الأمر الذي أخافه. أستطيع القول إن بول طاغية، وهو كان كذلك فعلًا: تسبب في جرح في وجهي ما زلت أُحس بلسعته. لكن، بالطبع كنت أكبرُه بإحدى عشرة سنة، وأفوقه في كل شيء - العمر، الوزن، التعليم (وفق ما كان يمكن لأبي قوله) - وكل ما طلبه هو نصف ساعة مع أمه قبل النوم، وكل ما يملكه من العالم هو قدرته على الانخراط في نوبة بكاء.

جلسنا متصلّبين على الحافتين المتقابلتين للسرير المجعد. تظاهر بول بأنه منشغل، وتظاهرت بأنني مستمتعة بصور ذلك الفأر الصغير في الغرفة الكبيرة الخضراء[1]. قلبت صفحة، وقلب بول صفحة أخرى. كنا بانتظار بترا.

---

(1) إشارة إلى الصور في كتاب «وداعًا أيها القمر». (المترجم)

لكنها كانت شاردة الذهن عندما دخلت. فتحت الباب، ورأيت وجهها متورّدًا وشفتيها رطبتين. انحنت وقبّلت بول على فمه، دافعَة شعره المبتل إلى الخلف بيدها. ثم قبَّلتني أيضًا كمثل نقرة طير، على فروة الرأس. أحسست أن قلبي يصنع شيئًا ما لِجِلْد حلقي، ورجوت ألا تراه. ثم تدفقَّت بالكلام:

- احزروا ما الأمر؟

لم نقلْ شيئًا.

- سيأتي والدُكَ لعطلة أسبوع طويلة.

نظرت إليها. سكبت شعرها بين يديها، وردَّته فوق رأسها هنيهة، قبل أن ترخيه. استطعت أن أسمع صوته الصغير «ووش» أثناء ارتطامه برقبتها.

ثم قفزت إلى السرير معنا.

كان فارق الإحدى عشرة سنة يشملنا جميعًا. كنا بأعمار الرابعة، الخمس عشرة، والسادسة والعشرين. لست ممن يؤمنون بالخرافات على نحو خاص. لم أنجذب كثيرًا إلى الأبراج وما إلى ذلك، لكن في ذلك الوقت، اكتسب هذا الرقم دلالة بالنسبة لي. بدأت أراه في كل مكان. عندما كنَّا في الاستعراضات التحضيرية خلال الربيع، كان هناك 11 إشارة للمخارج موزعة بصورة متساوية بين المدرَّجات. لاحظت أنه في لعبة الورق «بلاك جاك»، يمكن اعتبار ورقة الآس رقم واحد أو أحد عشر، وفقًا لما هو الأنسب لما بين يديك من الأوراق.

ذكَّرني أبي بذلك القانون عندما كنا نلعب الورق ذات ليلة، ومولّد الكهرباء مطفأ، والمصباح يرسم ظلالًا كبيرة لأوراقنا على الطاولة. في تلك الليلة، كسبت منه سيجارًا فاخرًا ملفوفًا باليد، ووعدته بألا أدخنه إلا عند بلوغي الثامنة عشرة. أو أن أُجرّب هذا. بعد أن خان يهوذا الاسخريوطي السيد المسيح، سُمِّي بقية الرُسل بـ«الأحد عشر»، وهم المُختارون. ذكّرتني أمي بذلك، أثناء استعادتها إحدى العظات.

أحسست بما يشبه المفاجأة عندما تذكَّرت أن الزوج - رائد الفضاء الغائب دومًا - في السابعة والثلاثين. ورغم أنني لم أتعمَّق في مادة الجبر إلى أبعد من المدرسة، إلا أنه بدا أن نمطًا ثابتًا كهذا يجب أن يمتلك معنى ما أبعد من مجرد المصادفة. هل يجب أم لا؟ في ذلك الوقت، فكرت في ذلك كثيرًا. جرَّبت إعادة ترتيب المتغيرات في معادلات الجبر، مع الإبقاء على القيم الثابتة فيها. تساءلت عما كانتهُ بترا في عمر الخامسة عشرة. تخيّلتها في المدرسة الثانوية: أقصر مني، بل أشد نحولًا، ومحبوبة أكثر مني. لا بد أنها كانت من الفتيات اللواتي لديهن صديق حميم، شخص ما رحَلَ وهي في الثانية عشرة، وتركها منفطرة القلب في البداية، ثم صارت، بعذوبة وتراجيديّة، باردة المشاعر. لا بد أنها امتلكت أقلامًا ممتازة، وكان خط يدها واضحًا للقراءة. تخيَّلت نفسي في عمر زوجها، في السابعة والثلاثين (أنا الآن في السابعة والثلاثين: أدفع قسط سيارة، وعندي صندوق بريد)، ثم جعلت الزوج طفلًا. إنه طفل عدواني في الرابعة يرتدي حذاء من نوع «فِلكرو»، مع لحية زَغب طفولية وطبع حاد. أرسلت بول إلى العشرينات من عمره بنفسه. أعطيته درجة جامعية، ربما ماجستيرًا، وأطلقته حرًّا في العالم بشعره الذهبي، مع درجة في الهندسة المعماريَّة، وأذن تثير الإعجاب في التقاط الموسيقى واللغات الأجنبيَّة. أعطيت بول وقتًا ليكون ساحر نساء حقيقيًّا، ليأسف على وشمه الصيني، ليشرع في الأسف على أشياء كثيرة. كما تعرفون. ليكون في السادسة والعشرين.

7

كان مقررًا أن يأتي الزوج قبل «يوم الشهداء»[1] مباشرة. توافق قدومه مع البداية غير الرسمية للربيع. كان صيّادو سمك «الوول آي» يتقاطرون لأسابيع، لكنهم، وقبل عطلة طويلة في نهاية الأسبوع، شرعوا في الوصول في عربات هي بيوت متنقلة. قادوا مركباتهم من «توين سيتيز» مع مقطورات التخييم، وحبال القوارب، وأَسِرَّة شاحناتهم مربوطة تحت أغطية قماش سميك. أنشأوا مخيَّمات، واستأجروا كابينات حول البحيرات الأضخم؛ وآنذاك، كان معظم الآتين من الخارج من المستأجرين والساعين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. بعضهم ممن يجيئون صيفًا بانتظام، وكثيرون منهم قرأوا عن «لوس ريفر» في أدلة الصيد ذات الصفحات اللامعة، وحاولوا كلّهم استدراج الموظف في مخزن بيع الطعوم كي يزل لسانه ليكشف الأمكنة السريّة لصيد «الوول آي» التي يعرفها السكان المحليون. كانوا كلهم يرتدون، بتفاؤل ولكن بصورة متوقعة، قمصان «تي- شيرت» وسترات صدر من الصوف، وسراويل بضائع بجيوب متقنة الصنع. تدور عيونهم في الاتجاهات كلها عندما ينزلون من شاحناتهم في البلدة كي يشتروا وقودًا، ويتزوَّدوا بالبيرة وقناني رش السائل المُضاد للبق. يتظاهرون بمعرفة بعضهم بعضًا، لأنه ربما سبق لهم ذات مرَّة أن تشاركوا وجبة سمك «موسكي» مقليَّة، في الرابع من يوليو[2] في السنة السابقة. يتظاهرون أنهم يعرفوننا.

---

(1) تحتفي به الولايات المتحدة سنويًا في الإثنين الأخير من مايو. (المترجم)

(2) إشارة إلى عيد «يوم الاستقلال» الأميركي. (المترجم)

لديهم السؤال التالي:

- هل تعرف البقعة المفضَّلة هذه السنة؟

يطرحونه على «جي. دي.» في مخزن المعدَّات، أو «كاترينا» الشيوعيَّة عندما يتزوَّدون من محطة الوقود.

ببساطة، تكتفي «كاترينا» بهز كتفيها باستهانة أو بالابتسام. وتسأل مسبلة جفنيها الثقيلين:

- هل أبدو لك كصيَّاد سمك؟

إنها فعلًا تبدو كذلك - إذ ترتدي معطفًا طويلًا رماديًّا، وتعتمر ما يشبه القبَّعَة - لكن أحدًا لم يرغب أبدًا في قول ذلك. ويبيعهم «جي. دي.» شرائح طويلة من لحم الغزلان وخرائط قديمة، ويؤشّر بدوائر ملتبسة على الأمكنة الأقل احتمالًا لوجود السمك، مستخدمًا قلمًا برأس كروي. يلمس طرف قبَّعته، ويعقد ذراعيه. يقولون له:

- حسنًا، شكرًا. شكرًا لك يا... هل اسمك «جاي»؟

لسبب ما، يحرص الآتون من خارج البلدة على مناداة كل شخص باسمه، محتفظين باعتقادات قديمة عن حُسن ضيافة أهل البلدات الصغيرة. ينادون السيد «كورهونِن»، صاحب مخزن البقالة - الذي ارتدى في كل يوم من حياته قميصًا مكويًّا بنقشات مربعة - بلقب «إد». ينادون نادلة «سانتا آنا» في المطعم، «آنا»، «آني»، وحبيبة قلبي.

يقولون لي:

- ألم تكن ابنة «جيم»؟ لقد كبروا كلهم!

يقتربون مني في البنك، عندما أودع أوراقًا نقدية في الحساب الجاري الذي فتحته، أو يلوحون لي عندما أنزل إلى الطريق مع حقيبة الظهر الخاصة بي. غرباء كليًّا قالوا ذلك لي، أناس قابلتهم مرتين أو ثلاث مرات - قبل سنوات، عندما كنت طفلة صغيرة - عندما كان أبي يتمكن أحيانًا من العمل صيفًا كمرشد سياحي. كأنهم ليسوا قابلين للاستبدال بالنسبة لي، كالإوز والعصافير التي تملك

علامات مكرَّرة يمكن الاعتماد عليها. تعجَّبت من إمكان أن أبدو لهم خاصة جدًا وصامدة في المكان. مميّزة تمامًا.

قُدّمت الامتحانات النهائية أسبوعًا قبل «يوم الشهداء». كانت النوافذ كلها مفتوحة ومُسْندة بالمساطر. اليعاسيب القليلة التي تصادف وجودها ماتت مرتطمة بألواح النوافذ. يكون شهر مايو زمنًا فصاميًّا جدًّا. تتكوّن لكل شخص تلك النظرة المائية الغائمة، خصوصًا المدرسين. يكون صعبًا تمامًا الاهتمام - إذا رغب أي أحد أصلًا بالاهتمام - بقوانين جيب التمام في علم المثلثات عند تكرارها للمرَّة العشرين.وكذلك بمجموع مساحة المربع الذي يصنعه وتر المثلث. حتى الفتيان المهتمون بالمجادلات يكونون في حال متقلبة، يستبدلون قوانين جيب التمام بالشِعر والأشرطة المصنوعة بمزج مسارات موسيقيَّة، وبالجدال عن المعنى السري لمصطلح «أغاني الواحة». كان مقعد ليلي آنذاك - عند نهاية أسبوع الامتحانات - خاليًا. عندما رأيتها آخر مرة، بعد ظهر الإثنين، تسلّم الآنسة «لوندغرِن» مظروفًا وردي اللون من المدير. عبست الآنسة «لوندغرِن» عندما قرأت الرسالة، وتركتها ليلي من دون انتظار ردها، ساحبة شعرها الأسود الطويل عبر ياقة سترتها، وجعلته فوق رأسها، وتركته ينزلق تحت قبعة جاكيتها. قبل إكمال الأسبوع، كانت قد ذهبت.

بعد ظهر الجمعة، كتبت المقال المطلوب كجزء من امتحان مادة علم الحياة، في أقل من عشرين دقيقة: ثلاثة مقاطع عن أسس التكاثر في الخلية. وبعجلة، رسمت اسمي على المغلف، ودسست ورقتي الزرقاء في حزمة على مكتب الآنسة «لوندغرِن»، وانطلقت إلى ظهيرة هادئة مبارَكَة. في الطريق إلى البلدة، توقَّفت أمام كشك للسجائر وعلكة عرق السوس، ودخَّنت سيجارتين متتاليتين - تمشيت بين نباتات الصقلاب في الطريق السريع، مراقبةً تحليق النحل وملكات الفراشات - ثم، في اندفاعة، رشقت العلبة على ظهر سيارة

«بيك آب» مرَّت بي. وعندما فعلت ذلك، حلَّقَت ثلاث بجعات فوقي، كأنها مكافأة على حسن التصرُّف. **اذهبن، اذهبن**، قلت لهن بابتهاج. صفقَت البجعات أجنحتهن الضخمة معًا، واختفين فوق الأشجار.

بين الرابعة والسادسة من ذلك اليوم، جلست مع بول على الخشب الدافئ لمقعد موضوع على الحافة الخارجية، المصنوعة من الخشب، لمنزل عائلة «غاردنر»، وراقبنا وصول البط في أسراب، راقبنا الإوزات تنزلق على سطح البحيرة واضعة رقابها السوداء تحت الماء. أشرت إليها كي يلاحظها بول، لكن قلبي كان يتمنى مزيدًا من البجع، أو حتى وصول شيء ما أكثر ندرة كالصقر. قضمت علكة السوس أثناء انشغال بول بتكديس أكوام الحجارة. جرجَرَ نفسه على ركبتي بنطلون الرياضة، مرتِّبًا قطعًا من لحاء الشجر في خطوط كالممرات. كان يغير مدينته من قرية في القرون الوسطى إلى عاصمة حديثة لـ«أوروبا»، وهو القمر السادس لكوكب المشتري.

شَرَحَ ذلك الأمر:

- باستثناء المريخ، هو المكان الأكثر تأهيلًا لأن تكون عليه حياة.
- كيف تعرف ذلك؟
- في منطقة «جدائل الذهب»[1].
- ماذا؟

---

(1) في علم الفلك، يطلق تعبير «جدائل الذهب» على المنطقة المجاورة لشمس ما، لكنها لا تكون قريبة منها كثيرًا، ولا بعيدة عنها كثيرًا؛ وتكون الحرارة فيها معتدلة نسبيًّا ما يتيح للكواكب فيها التمتع بمناخ مؤهل لاستقبال الحياة، خصوصًا الماء. ويقع المشتري فعليًّا ضمن تلك المنطقة بالنسبة للشمس، إضافة إلى الأرض والمريخ، ما يجعل قمره الشهير «أوروبا» صالحًا لاستضافة الحياة عليه، خصوصًا أنه يحتوي ماء على شكل جليد. (المترجم)

- ليست باردة جدًّا، ولا حارة جدًّا.
- آه، فهمت.

قضمت لفَّة من علكة السوس. ثم تذكرت:

- لكن أحدًا لا يعيش في المدينة، صحيح؟ أليس ذلك ما قلته أنت؟

أحنى رأسه من دون أن يتطلع إلى الأعلى.

- لم تكن قد اكتشِفَت آنذاك.

على الحافة الخارجيّة، رتَّب كل الجدران والطرقات المتقاطعة هندسيًّا، كل الأبراج والخنادق، وصنع ما يبدو تشكيلًا من الحجارة وأوراق الشجر، ما يمكن أن تحمله الريح، أو قطارًا كبيرًا. تابع نقل ورقة من شجرة القيقب عليها علامات معينة؛ من موضع إلى آخر كي يحسّن التصميم الذي لا يراه أحدٌ سواه.

كان ذلك هو السبب في أن بترا داست مباشرة على «عاصمة القمر أوروبا»، عندما عادت من تجوالها في البلدة، بعد ساعة من ذلك. صرخ بول بصوت كالعواء لمدة ثانية:

- مااااااما!

ثم استلقى على ظهره فوق أطلال مدينته، رافضًا الكلام.

في البداية سألت بترا، باستمتاع:

- ما الأمر؟

ثم نالها التعب. قرفَصَت وقبَّلته في ذقنه:

- ما الأمر يا صغيري؟ ماذا فعلت؟

لكنه لم يفتح عينيه. تطلَّعَت اليَّ وكنت جالسة وركبتاي مثنيتان إلى صدري؛ ورغم سهولة قول ما الخطأ الذي ارتكبَتْه بقيت صامتة. لم أكن واثقة كيف يمكن شرح مسألة «عاصمة أوروبا» لها من دون استعلاء، من دون التكلم كأن بول ليس هنا. هززت كتفي. قالت بترا:

- حسنًا.

- الفتى بول يأخذ وقتًا مستقطعًا. يأخذ صغيري استراحة، لأنه منفعل جدًّا بشأن قدوم والده غدًا. صحيح؟

كان واضحًا أن بترا هي المنفعلة. في تلك الظهيرة، ركبت الدراجة إلى البلدة لشراء كميات إضافيَّة من سلع البقالة، وقصت شعرها؛ بدل العمل على المخطوطة. ضربت موعدًا مع نيللي بانكس - التي ترتاد معهدًا للتجميل - وصار من الغريب الآن رؤية شعر بترا موزَّعًا كالريش وقصيرًا، ملتفًّا تحت أذنيها. صارت تتحرك كأن أثر الجاذبيَّة عليها مختلف، ربما كحال الجاذبيَّة على قمر «أوروبا» في المشتري، وباتت تتنقل بطريقة معقَّدة في تلك الظهيرة.

بتعمُّد وبطء، لبست قفاز بول الجلدي، مشَّيت إصبعين منه على بول، وتنفست على ركبته كحيوان صغير.

اعتدلَ جالِسًا، وقال:

- هيييه.

عندما فعل ذلك، رأيت وجهه يتصبَّبُ عرقًا، وتجمع في نقطة كبيرة عند ذقنه. ملأت حدقتاه عينيه، كأنهما طبق فضائي. تمايَل.

قالت بترا:

- حسنًا، إذًا.

كأن بول أورد حجةً وقَبِلَتها. ضمته بين ذراعيها، وأدى صوتها نغمة ثمانية مغايرة:

- فـِ- في- فـُ- فوم.

ثم عادت ببطء على السلم:

- أنا. أشم. الدم...

وأخذت تعضعض رقبته، وعندما ابتسم نصف ابتسامة، قالت:

- هييه، أيها الرجل الصغير. ماذا تخبرنا لعبة «كاونتر سترايك»؟

- أنا أشم الدم.

- لا يوجد موضع محدد لله في...

قال لها:

- أنتِ الرجل الإنجليزي.

دفعت بترا الباب المتحرك بإحدى ركبتيها ودخلَت، وكان بول بين ذراعيها كأكثر من طفل - مع أطرافه الأربعة متدليَّة - ووثب القط إلى الخارج، في لحظة إغلاق الباب. لم تلاحظ بترا ذلك. وثب القط إلى الجانب البعيد من الحافة الخارجيَّة، ثم توقَّفَ فجأة، كأنه وَصَلَ إلى حدود غير مرئية. نهاية «أوروبا». بداية الغابة. سألته:

- ما الأمر؟ فلتجرب العالم أيضًا.

استدار القط ونظر إليَّ. كانت أذناه راجعتين إلى الخلف، وشارباه يهتزَّان. هدَّدته:

- ماذا تظن أنني سوف أفعل؟

كان المساء قد حلَّ، والساعة تجاوزت السادسة. لكن، أثناء إصغائي لصوت حنفية مفتوحة، ومقاطع من قصيدة تصلني عبر الستارة، بدا اليوم بأكمله كأنه يكشف لي فكيه المفتوحين. لا شيء يمكن فعله بعد ذهاب بترا وبول إلى الداخل. في الأعلى، كانت الشمس مازالت مرتفعة في السماء، وتعطي الإحساس بأنها ثابتة إلى الأبد. على الحافة الخارجية، رسم القط دائرة بطيئة حولي، ثم جلس متيبّسًا قرب الباب الزجاجي المتحرك، منتظرًا السماح له بالعودة إلى الداخل. أخذ يموء بنبرة حزينة كرنَّة منبّه الساعة، وبلا توقُّف. كان يتوجب عليَّ ببساطة الانصراف والعودة إلى المنزل. يتوجب عليَّ النزول ببطء على السلم، العثور على الممر الترابي، والوصول إلى تلة الصنوبر الأحمر التي تليها مجموعة أشجار البتولا. عش البطِّ الغوَّاص، سدّ السمُّور، ممر السُمَّاق، الكلاب. يتوجب عليَّ العودة إلى المنزل والكلاب التي كانت ستلعق كامل وجهي ويديَّ بسعادة. بدلًا من ذلك، نهضت، وسرت بحذر حول أطراف المنزل، وتسلَّقت الأغصان الشبيهة بالأشواك لشجرة «راتينج» قرب نافذة بول. كانت بترا على السرير مع بول، ويقرآن كتابًا. كان جسداهما ملتفين على بعضهما، ذراع

بترا ملتفة حوله ووجهها مندس في شعر حبيب قلبها، عند مؤخرة رأسه. حَمَلَ بين يديه كوبًا بغطاء نصف مفتوح، وأثناء قراءة بترا له، استمَرَّت في تقبيل أذنه المكشوفة، تلك الزهرة البريَّة الصغيرة الصاعدة من ملابس النوم. **هناك، هناك.** عذوبتها تخطف الأنفاس. أمكنني الإحساس بها - حتى من خارج الغرفة، حتى من مكان جلوسي أعلى الشجرة - تبدّد كل شيء. هكذا يختفي العالم. هكذا يختفي المنزل. **بووووف.** هكذا يختفي سريرك وجسدك أيضًا. هكذا تذهب الأفكار. ارتعشت عيناه بضع مرات وهما مقفلتان. أصدرت الريح خَشْخَشَة عبر الأشجار. غامت السماء في الأعالي. عندما انفتح فم بول في نومه، وقفَت بترا بحذر، استَخرجَت الكوب من يديه، وغادرت الغرفة. عادت ونزعت عنه ملابسه وهو نائم. راقبتها وهي تخرج رجليه من بنطاله وتفردهما، ثم تلبِسه حفاظًا.

تثنّى بطنه الناعم تحت الحزام البلاستيكي للحفاظ. لم أره في حفاظ من قبل. لا أدري لم تأثّرت بذلك، لكن دفقة من اللعاب وصلت إلى حلقي - شيء ما فاجأني، مخلب من سائل - وفي تلك اللحظة، قفز القط إلى حافة النافذة، وارتد منها. بلا مبالاة، ومن دون أن ينظر إليَّ، أخَذَ يلعق قائمته. ورغم ذلك، أجفلت؛ ولذا نزلت.

ظننت أن شيئًا لن يحدث قبل الثلاثاء، بسبب عطلة «يوم الشهداء» في نهاية الأسبوع. لكن، صباح اليوم التالي، كنت جالسةً على سقف الزريبة أقرأ مجلة «بيبول» التي سرقتها من سلّة مهملات السكرتيرة عندما رأيت سيارة بترا «الهوندا» الزرقاء تصعد الطريق المفضي إلى منزل والديّ. كانت الغابة تصخب بأصوات المحركات، لذا لم أسمع السيارة قبل وصولها إلى منتصف «ممر السمّاق». تطاير الحصى، وتباعدت الأشجار.

بقفزة واحدة، نزلت من السطح في اللحظة التي غدت الكلاب فيها متوفّزَة، وجذبت سلاسلها من الوحل مُحَدّقةً في الطريق. قلت لها:

- شهههه.

هرولت مسافة قصيرة في ممر السُمَّاق، وتوقفت أمام سيارة بترا مربّتة بلطف على غطائها. أنزَلَت زجاج نافذتها، وانثنت إلى خارجها:

- ليندا! احذري!

لم تبدُ بترا كأنها هي نفسها كليًّا. كانت شفتاها زهريتين كدود تحت صخرة، وتجعَّدتا تحت أحمر الشفاه. علا خديها تورُّد لامع، ما أعطاها مظهرًا شبيهًا بالـ«كورنِ»، أو الفتيات اللواتي يزدرين مظهرهن في المرآة فيحككن البثور إلى أن تنفتح ثم يدملنها بطلاء الوجه الأساسي. بدت أكبر وأصغر سنًّا في الوقت نفسه. طفلة بملابس بالغ، أو امرأة في منتصف العمر تجهد لتظهر شابة.

وتابَعَت:

- اسمعي، ليس لديَّ رقم هاتف أمك. فتَّشت المنزل كله هذا الصباح، لكني لم أتمكن من تذكُّر أين كتبته. المسألة هي أن ليو قادم اليوم. خططت مع بول للقائه في «دولوث». سنذهب بالسيارة معًا إلى هناك، لكن بول...

أردت أن أساعدها على قول ما تريد:

- لكن بول...

أردت غريزيًّا أن أُنهي الجُمَل التي تثير اضطرابها. أن أخفف أحمالها، أن أقوم بالعمل القذر نيابة عنها. قلت:

- بول...

- حسنًا. مازال نائمًا. فعليًّا، لا زال في المنزل...

قلت:

- وحده؟

غيَّرت تلك الكلمة شكل عينيها، وصدر منهما بريق. توسلت إليّ:

- تعالي معي. اليوم فقط. ابقي معه اليوم خلال فترة غيابي.

عندي امتحان منزلي في علم المثلثات، كما وعدت أن أُقطع غصنًا كبيرًا كسرته الريح. في تلك اللحظة، كان والدي لا زال عند البحيرة يصيد سمك

«وول آي»، ويتوجَّب أن أنظفه قبل حلول الظلام. ورغم ذلك، كنت أعرف أنه يجب عليَّ أن أفعل ما تريده بترا. كانت هنا، تشدُّ قبضتيها على مقود سيارتها إلى حد أن الأوردة نفرت من يديها. من زاوية عيني، استطعت أن أرى أمي آتية من ممر في أعلى التلّة إلى المكان الذي علَّقَت الغسيل فيه. قلت لـبترا:

- انتظري.

قالت:

- أستطيع الدخول، والحديث إلى أمك.

أطفأت محرك السيارة، وشرعت في فتح الباب. استطعت أنْ أسمع سلاسل الكلاب تصلصل على التراب، وصوت غطاء القماش يصفق (فلاب... فلاب) عند الباب الأمامي. قلت لها:

- انتظري!

لا بد أني صرخت، لأنها وضعت يديها كلتيهما على أذنيها. باستسلام.

- حسنًا.

رأيت أمي تحدِّق بعينين ضيقتين في السيارة لمرَّة واحدة، قبل أن تذهب إلى الداخل.

تبعتها إلى الداخل.

امتلأت الغرفة التي أنارتها الشمس بغبار متكاثف. أمي تطوي الغسيل على طاولة المطبخ، كومة ضخمة من الملابس التي تكرمَشَت تحت الشمس مجمَّعة في كومة مجنونة.

- تلك الفتاة آتية من الطرف الآخر للبحيرة؟ تلك التي تقضين وقتًا طويلًا معها؟

كان في وجهها نظرة مُدعَّمة تحمل الأمل والشك معًا. ثُبِتَ شعرها الأسود في جدائل ساكنة، وكان مطويًّا في مستطيلات عند منتصفها، ثم ينطوي كل نصف عند منتصفه.

- بيه.

أحنت رأسها متجنبة النظر إلى عينيّ. لسنوات، دأبت على القول بأنها تريد مني أن أكون كبقية الأولاد في عمري. لطالما قالت لأبي إنها تريد مني تمضية وقت أقل في الزريبة، وأن أكتسب مزيدًا من الخبرة العادية للصبايا.

وهآنذا، ألبي ما طلبته.

- إذًا، فهي لطيفة؟

لكنها كانت تعني: **أنها ليست مثلنا، صحيح؟** لأنه في الوقت نفسه، وفق ما أعتقد، أرادت أمي دومًا أن أمتلك طموحات أعلى من الفتيات المحليّات، أن أكون أعلى منهن قليلًا.

- بيه.
- حسنًا، اذهبي وسلّي نفسك.

ذهبت إلى رفٍّ فوق الحوض، فتحت وعاء حجريًّا قديمًا، واستخرجت بأصابعها أربع أوراق مكرمشة من فئة الدولار من مخزنها. لوت أنفها عندما لوَّحَت بيدي كمن يبتعد. لوت أنفها باتجاهي.

- أنا جادة.

في يدي، كانت تلك الأوراق بنعومة الملابس. لم يكن لها ملمس المال.

- أمي...

الآن، كانت تبتسم بمعرفة.

- إنه أمر مهم.

كان في حلقي خفقة. إنذار.

- ما هو؟
- المضي في مغامرة ما.

لم أعرف كيف صاغت تلك العبارة.

- **أمي.**

كأنها كانت تعرف ما كنت أقوم به عندما لا تسأل، ولن تسأل. كأنني سأهرع

إلى الكازينو، أنتشي، أنفلت من الضوابط، بدولاراتها الأربعة اللعينة. كأن ذلك هو ما أرادته. قلت:

- كل ما أريد إخباركِ به هو أنني سأؤجل تنظيف السمك إلى الغد، حسنًا؟ أقول لكِ أن تخبري أبي ذلك، أيوافقك ذلك؟

رمت لي ردائي القطني الأزرق الذي أخرجته من كومة الغسيل، ومازال دافئًا من الشمس، مع رائحة المنظّف وشجر الأرز. قالت:

- اذهبي.

وعادت إلى طيّ الغسيل.

- لن أصلي لأجلكِ. لن أسألكِ ما الذي تفعله هي هنا، مع ذلك الطفل. امضي في إجازة طويلة. اذهبي، كوني حرَّة.

* * *

قادت بترا السيارة بقدم على دوّاسة البنزين والأخرى على الفرامل. اهتزّت السيارة بأكملها كلما أبطأتها بالفرامل، ثم أعادت إطلاقها ثانية في دفعات سريعة. حاولت مسح بقعة عن قميصها أثناء قيادتها، وكانت تتلو قائمة من الأوامر أطول من المعتاد: اعطيه كوبي ماء قبل أن يأكل، أربع كعكات عند الساعة الثالثة، تونة مع «توست» عند الخامسة. أصغيت ولكن لم أُجب. كنت منشغلة بأوراق النقد في جيبي، بالوعاء الحجري للنقود على الرف فوق الحوض. أفكر بطعوم السمك التي نصنعها ولم نفلح أبدًا في بيعها، في أوعية المربى التي ملأناها وحاولنا بيعها عند المطعم في عطلات نهاية الأسبوع، في أن الملابس التي كانت تطويها أمي مصنوعة من ملابس أخرى.

ولأني بقيت صامتةً رمقتني بترا بعينها بسرعة، ثم عاودت النظر إلى الطريق.

- هل سارت الأمور بشكل جيد مع أمك؟

- هل بترا اسمك الحقيقي؟

أحسست كأنني أدينها بشيء ما. لا أعرف لماذا. فجأة، كنت غاضبة من

لُطفها. كنت غاضبة من القميص، بنقشات الزهور المتشابكة، تحت البقعة التي كانت تدعكها أصابعها. تفاجأت:

- ليس فعليًّا. اسمي «كليوباترا»، ودومًا سمّيت «كليو» اختصارًا. لم تسألين؟

اختلست نظرة إليها. على خدها، تمددت حلقة أذن ذات حبوب، كأنها يرقة.

- ليس من سبب.

وبدت في موقف دفاعي، قالت:

- «بعد لقائي ليو، غيَّرته. من هم الذين قد تطلق عليهم تسمية ليو و«كليو»؟»، أضافت، «في أي عالِم تكون تلك التسمية مناسِبَة؟»

لن تكون مناسِبَة. كانت على حق.

- «اسمعي، ستحبينه»، وعدت، «إنه من أولئك الذين تستطعين سماع ما يفكرون به. تستطيعين سماعه يجري تلك الحسابات أثناء مشيه. إنه ذكي إلى ذلك الحد.»

تساءلت. تساءلت إن كنت أستطيع سماعه الآن على بعد كل تلك الأميال، هناك في الهواء، في طائرته، يُجري حساباته، يلاحق نجومًا طِفلة وحقول جاذبيتها، يضع جداول لمجرَّات شديدة البُعد إلى حد أن بلايين السنين تمضي قبل أن نعرف أنها موجودة، ويرتب تحركاتنا أنا وبترا وبول وهذه السيارة التي، وفق ما لاحظته، نظفتها بترا من الملح قبل وصوله. قلت:

- بالتأكيد.

كانت بترا متوترة بشأن ترك بول نائمًا في سريره. لكن، عندما عدنا إلى منزلهم، كان قد استيقظ وصنع لنفسه سندويشًا من السُكَّر، ورغب في حشره في إحدى قاطرات لعبة «تونكا»، وأخذه إلى كابينته في الغابة. لم تكن تلك الكابينة سوى كرسي مقلوب، لذا اقترحت صنع خيمة حقيقية - باستخدام واحدة في الكاراج لم يستعملوها أبدًا - فوق السجادة في غرفة المعيشة. وحده اللون الرمادي على جلده جعلني أفكر بالكيفية التي أمضى فيها اليوم السابق، مع

كل ذلك النضح المحتقن للعرق على ذقنه. دُهِشَت بترا إلى حد الافتتان. قبل أن تغادر، استمرت في تقبيله على رأسه، مع مسح وجهها على شعره، متنشقة رائحته ككلب. تدفق كلامها:

- ستفخر بك أمك، كم أنا سعيدة برؤيتك. أحسَنْتَ عملًا يا حبيب قلبي.

صرفنا اليوم بأكمله في إنشاء مخيم. وعدْتُ بترا ألا أصطحبه خارج المنزل، وكي نقتل الساعات الطويلة لبقائنا في المنزل، علَّمته كل ما أعرف عن كيفية القتال مع الدببة، البقاء على قيد الحياة بواسطة التوت ولحاء الشجر، والاستمرار في الحياة اعتمادًا على السكين وحدها في حال الاضطرار إلى ذلك. أخبرته بألّا يتتبع جدولًا على أمل أن يوصله إلى حضارة ما. تلك مجرد خرافة. تأكد من العثور على مصدر للماء النظيف قبل مرور يومين على بقائك وحيدًا. إذا اضطررتَ، اربط كُمَّي سترتك على كاحليك وسِرْ عبر العشب الطويل كي تجمع الندى على الأكمام. امتصها. (طبَّقت ذلك مع بول مجرجرًا سترته على السجادة). لا تخف من أكل الجراد. تجنَّب النباتات ذات النسغ الحليبي. تجنَّب التوت الأبيض.

علمته كيفية الزحف على الجليد حين يكون رقيقًا، وتوزيع وزن جسمه، والسير كجندي على مرفقيه. قلت له:

- جاءك دب.

فيزحف لدقيقة، ثم يأخذ راحة.

- جاء ذئب.

قال لاهِثًا:

- لا يجب القلق بشأنه. الذئاب لطيفة.

وكانت خدوده مورّدَة. قلت:

- حسنًا.

وتمدَّدت على بطني قربه.

في الخامسة تمامًا، أعطيت بول سندويش الـ«توست» مع التونة. كان ذلك بالضبط على النحو التالي: تونة من العلبة بعد اعتصار نقيع الماء المالح، هرس اللحم ذي اللون البني الفاتح بالشوكة، ومدّه على الخبز الجاف. التهم بول ذلك، ثم تناول الكثير من الرقائق المُكَسَّرة التي لها هيئة حيوانات. تجمعت فتافيت منها في قميصه، وتناثرت على الأرض عندما نهض واقفًا.

في السابعة، أعطيته حمَّامه. ملأت المغطس بالماء أولًا، مع طبقة كبيرة من الرغوة الشبيهة بقارب، صنعتها من تحريك الشامبو فيه. ثم تظاهرت بالانشغال بتفحص قرصة حشرة على كاحلي، أثناء نزعه بنطاله وخلعه الحفاظ بشرود. نزَعت القشرة عن ندبتي، فنزلت قطرات من الدم كأنها جرح حديث. أخذت وقتي في تنظيف جلدي. في النهاية، اختلست النظر إلى بول في مغطس الحمام، وكان يبني بسرعة برجين من الرغوة على ركبتيه. لم نتكلم.

فقط بعد أن رتّبت بيجامته، ورميت حفاظه المريع، وسلمته سرواله الداخلي، دخل في حوار. سأل:

- هل أنت مستكشفة؟

أبعد نقطة وصلت إليها كانت رحلة في حافلة المدرسة إلى بلدة «بميدجي» في ولاية «مينيسوتا» لزيارة تمثال «بول بونيان»[1]. أبعد نقطة وصلت إليها في قارب «كانوي» كانت رحلة ستة أيام في نهر «بيغ فورك ريفر» للوصول إلى الجانب الكندي من بحيرة «راني ليك». بأسف، أخبرته:

- لا، ليس فعليًا.

- أوه، إذًا أنت متزوجة.

وضعت ذقني في ياقتي. فكّرت أني أعرف ما الذي يسأل عنه الآن. يريد أن يعرف في أية خانة يضعني، هل أنا طفلة أم راشدة، هل أشبِه أكثر أباه أم أمه أم

(1) شخصية من الفولكلور الأميركي تمثّل قاطع خشب عملاقًا. (المترجم)

هو نفسه؛ أم شيئًا آخر، شيئًا ما يكون اكتشافًا جديدًا. بدت أصابعي ثقيلة أثناء غلق أزرار بيجامته.

- لا، ليس فعليًا.

عندها، بدا مستاء بطريقة غير منطقية. حينها، فكَّرت في ليلي. فكَّرت كيف أنها انتقلت من مجرد كونها فتاة غبية إلى فتاة تعامل بوصفها تهديدًا محتملًا؛ وفعلت ذلك في بحر شهرين؛ وأثناء ذلك، استرقت نظرة إلى عيني بول الداكنتين اللتين تبدوان رماديتين أحيانًا، وسوداوين تقريبًا حينًا آخر.

- ذات مرَّة، كان هنالك صبي اسمه آدم.

- هل كان مستكشفًا؟

قلت متوقِّعَة أن أؤثِّر فيه قليلًا:

- كان من كاليفورنيا، كان ممثلًا. حسنًا، لا. كان أستاذًا.

- كأنك تتحدثين عن أبي. كان أستاذًا لأمي في الكلية.

كنت أود سماع المزيد عن ذلك، لكن بول - وقد صار مرتديًا ملابسه الآن، وشعره المبلل يقطر ماء على رقبته - ركض كي يذبح دبًّا، يشرب بضع قطرات ندى، ويشعل نار المخيم.

عند الساعة الثامنة، وصلت بترا، لذا زحفنا إلى الخيمة التي نصبناها على السجادة، وأقفلنا سحاب لسانها الخارجي. قلت:

- هل نزعت حذاءك؟

- نعم. تثبَّت من ذلك.

- الفأس فوق رأسك كي تدافع عن نفسك؟

لمس اليد الخشبيَّة للفأس، وقال:

- ييه.

كوَّر جسمه في كيس النوم، حشر قفازه الجلدي تحت رأسه، ثم، كحجر

ألقي في الماء، غطَّ في النوم. تمدَّدت على الجانب الآخر من الخيمة؛ هناك كان دفءٌ شديد وهدوء تام يعطي إحساسًا يشبه الوجود تحت الأرض. تعمَّدت البقاء مستيقظة لحين عودة بترا وزوجها، لكن الخيمة داخل المنزل كتمت كل الأصوات الليلية المعتادة، فلم أسمع الجنادب والبوم ولا أي شيء. كل ما سمعته هو صوت بول على النيلون، صوت مكتوم تمامًا. وسمعت القط الأسود يقفز عن حافة النافذة، وجرسًا يرنُّ في الغرفة.

بعد قليل - بضع دقائق؟ بضع ساعات؟ - سمعت بترا تهمس. كانت تجلس على ركبتيها في منتصف الخيمة، منحنية فوقنا. كانت ظلًا ورائحَة، ليس أكثر من ذلك، وسترة متهدلة عند وركيها. سألت:

- هل كل شيء على ما يرام؟

قلت:

- إنه بخير.

زَحَفَت على يديها وركبتيها، وقبلت بول على خده، ثم تنهدت وتمددت بيننا. كان لسترتها رائحة وجبة طعام سريع وغابة رطبة. لا بد أنها قدمت بسرعة من سيارتها، لأنني تمكنت من سماع خفقان قلبها الذي أخذ يهدأ بعد ذلك قليلًا ثم قليلًا، ويعود إلى نظامه الطبيعي.

لكن، ربما ما سمعته كان قلبي. ربما استيقظت خائفة من شيء ما. قالت:

- إنه شيء مريح. أكثر من البقاء خمس ساعات في السيارة، أو الجلوس في كاراج المطار.

توجَّهت إليها:

- أين هو؟

أطلقت زَفيرًا كبيرًا، قالت:

- تأخير، تأخير، تأخير، ثم إلغاء.

لم تقفل بترا لسان الخيمة، لذا زحفت وفعلت ذلك نيابة عنها. تمدَّدت

ثانية. عندها، أحسست بشعر بترا الجاف قرب أذني على الوسادة. استطعت أن أشمَّ رائحة الغابة الباردة في شعرها، أقوى حتى من رائحة الشامبو بجوز الهند خاصتها. كانت ماتزال مرتدية سترتها، وفي كل مرَّة تقلَّبَت فيها، سمعت صوت الألياف الاصطناعية تنكمش تحت وزنها.

همست قائلة:

- يجب أن آخذه إلى السرير.

قلت:

- حسنًا.

لم تتحرك. تمدَّدت بسكون إلى حد أن سترتها كانت صامتة. قالت شاكية:

- أنا متعبة.

خلال كلامها، رسم صوتها استدارة في الظلام، إذ انتقل من التعب إلى اليأس، عبر جسر غير مرئي بيننا.

لم أتساءل عن السبب الذي جعل صوتها كذلك. لم يكن عليَّ أن أُخمّن ما الذي يثير اضطرابها. قلت:

- إنه بخير فعليًا.

بدأت في البكاء. كانت تتنفس، ثم صار النفس شيئًا آخر. وضعت يدها على فمها محاولة، من دون جدوى، كتم الصوت. ربما قالت بين الأنفاس **آسفة**، أو **بحق الله**، أو **ابقي هنا**. بعد لحظة قلت:

- لا يسمح بالأحذية في الخيمة.

لذا، زحفت إلى قدميها، وحللت شريط جزمتها المعقود عند كاحلها الصغير. دسست أصابعي، وتحسست النتوء العظمي عند كعبها، كان حارًّا ورطبًا بين يدي، داخل جواربها. نزعت أحد زوجي جزمتها، ثم الآخر. بدت لي جواربها هشَّة، صغيرة إلى حد سخيف. قرَّبت كعبيها من بعضهما. توقف البكاء. سمعتها تعود إلى تنفسها الطبيعي.

قبل أن أتمدد، قبل أن أجذب كيس النوم خاصتي، تفقَّدت الفأس بحكم

العادة. كانت اليد الخشبيّة تحت أصابعي كأنها وعد يتحقق. قبل أن ألمسها، كنت أعرف كل شيء بشأنها؛ ما جعلني واثقة وسعيدة.

لاحقًا، عندما استيقظت، وجدت بترا ملتفة حول بول. كان ظهرها لي. لكن، أمكنني الإحساس بفقراتها المنحنية عبر سترتها؛ عندما اقتربت منها، كل تلك الفقرات المتصلة ببعضها، كل تلك العظام كانت هناك، كالسر. أخيرًا، حلَّ ظلام ليلي كثيف. هدرت العاصفة من البعيد. أطلقت الرياح أمواجًا، وصارت صاخبة الآن إلى حد أني استطعت سماعها على شاطئ البحيرة، تطلق زبدها وتسترده. استطعت سماع تساقط أوراق الصنوبر الابريَّة على سقف المنزل. استطعت سماع بترا وبول يتنفسان في إغفاءة.

سعيدة. كنت سعيدة.

بالكاد تعرَّفت على ذلك الشعور.

إذًا، من يلومني إن تمنيت لو أن طائرة الزوج، التي أعيدت جدولة إقلاعها، تاهت في غيوم العاصفة؟ لو أنها دخلت في اضطراب هوائي مفاجئ، وهوت بسرعة؟ من يلومني إن تمنيت لو أن طيّارها كان شابًّا ومذعورًا، وقرر الاستدارة والعودة عبر المحيط؟ يملك الزوج نجوم ابنه ليراقبها، وجبلًا لإنجاز عمله عليه، في «هاواي». تُقتُ إلى رياح تباعد مباشرة بيني وبينه، لأعاصير تهب قبالة شواطئ كاليفورنيا. أمطار غزيرة وبروق. كانت العاصفة تشتد الآن. أحسست أن الخيمة التي بنيتها داخل المنزل، تضمُّنا في الداخل، أنا وبول وبترا. أنا وبترا.

نمت واستيقظت. حلمت بالكلاب. حلمت أني آخذ بترا وبول في رحلة في قارب «كانوي»، تيارات كأنها أيدٍ تحت الماء، تتلاعب بالقارب ما يجبرنا على الصراع معها كي نتقدم. يقودنا مجذافي إلى الشاطئ. أو ربما يقودنا بعيدًا عنه، ربما كُنَّا بصدد المغادرة بعد كل شيء. نمت واستيقظت. نمت.

في النهاية، قبل الفجر مباشرة، سمعت صوت خطوات متثاقلة في الخارج.

بدت كأنها لحيوان لبون يتحرَّك ببطء، «راكون» أو «بوسوم»، محرّكًا حجارة الطريق الجانبي عند مدخل المنزل. ثم سمعت صوت غلق باب سيارة. بهدوء كبير، سحبت الفأس من تحت مخدة بترا. ففككت سحاب الخيمة، سرت على أطراف أصابعي على السجاد المحزز، زحفت إلى النافذة. هناك، على الطريق، في ضوء الصباح، وقف رجل مرتديًا معطفًا مشمعًا للمطر؛ قرب سيارة أجرة. حمل كيسًا بنيًّا لمشتريات البقالة، حقيبة من قماش خشن. بدا رقيقًا وغير مؤذٍ؛ لذا عندما فتح الباب، تركت الفأس مُدلَّاة بيدي كي يتمكن من رؤيتها. وكانت بترا على حق: أستطيع أن أسمع أفكاره. أستطيع سماعه داخلًا إلى الغرفة المظلمة والخيمة على الأرض، فيما صبي طويل ونحيل يخرج من الظلال، مع سلاح بحجم مناسب.

لأحكِ عن الطريق التي سارت فيها قصة ليلي. كانت بسيطة في البداية، لكن مع مرور الوقت، مع تكرار الشائعة وانتشارها، اكتسبت المزيد والمزيد من التفاصيل. في آخر خريف، اصطحب السيد غريرسون ليلي في قارب «كانوي». تعتبر بحيرة «غوون» الأكبر بين أربع بحيرات خارج المدينة. كانت شديدة الاستدارة إلى حد أنها تبدو، من منتصف الضفة، كشريط مطاطي أسود؛ وفي عتمة بعد الظهيرة، في منتصف أكتوبر، تختفي كليًّا. يستطيع كل شخص أن يتخيَّل ذلك. كانت بحيرة «غوون» خيارًا جيدًا. جذَّف كلاهما لأن السيد غريرسون قال إن قليلًا من التمرين يصنع ثقة بين الناس. جلس في المؤخرة، وأدار الدفة؛ رغم أن ليلي كانت ستوصلهما بسرعة أكبر بالطبع إلى حيث رغب في الذهاب.

مثلنا جميعًا، كانت تستطيع التجذيف بقارب كقدرتها على ركوب دراجة هوائيَّة. وترنح السيد غريرسون الآتي من كاليفورنيا، وأثار الماء حوله. ابتل بنطاله، وصار حذاؤه رطبًا. وعندما وصلا إلى منتصف البحيرة، كان النهار في نهايته، والمياه سوداء. السماء صافية مثقلة بالغيوم. ورغم أن البرد كان قارصًا،

وأشجار الحور تخلّت عن أوراقها منذ بعض الوقت، فإنهما لم يرتديا قفازات ولا قبعات. توجَّب عليهما وضع مجذافيهما في حضنيهما، وأن يتداورا في تدفئة أيديهما على بخار القهوة الساخنة عند حافة «الترموس».

عند كل نقطة في ذلك الطريق، كان بإمكان ليلي أن تقلب القارب، وتجعل السيد غريرسون يتوه. ولم يتطلَّب منها ذلك سوى أن تميل القارب بقوة على جنبه. إنها تعرف البحيرة مثلما تعرف تفاصيل وجهها الجميل. لم يكن السيد غريرسون يعرف شيئًا عن البحيرة على الإطلاق. وعندما أخرج كاميرا قابلة للاستعمال مرة واحدة، وصوَّبها عليها، أقرَّ لها بذلك. قال إنه أراد أن تعرف ليلي مدى هشاشة وضعه، وأن مصيره بين يديها. قال إنه إذا كان محظوظًا كفاية للعودة إلى السيارة، فسيكون ذلك بفضل طيبتها ورحمتها. وقبل أن يفك سحاب بنطاله، قبل أن يقول لها «**مجرد قبلة**»، ويدفعها إلى الأسفل، أرادها أن تعرف أن لديها فرصة.

8

كانت فطائر ليو محشوة برقائق الشوكولاتة والزبيب، وعصير البرتقال الذي جلبه كثيف ولزج وحلو ويحتوي لبًّا. شارك في ألعاب الكلمات («لاير لاير» و«هانغ مان») أثناء ممارسته الطهو. جاءت تخمينات بول متشابهة دائمًا. ل - ا و ب - و - ل. وفيما أعدَّ فطورنا، وجد ليو أعذارًا كثيرة ليلمس الناس؛ بترا بالطبع - التي كانت تقهقه كبلهاء، مرتدية ملابس الأمس - وكذلك بول الذي تبادل معه التحية بضرب الأكف مفتوحة بالأصابع الخمسة أثناء الطهو، أثناء تقليبه الأشياء بملاعق مسطحة. وكذلك أنا. قال لي:

- هاك ليندا.

ووضع كفَّه على كتفي ورافقني إلى الطاولة مع أطباق الفطائر. عندما دخل للمرَّة الأولى عبر الباب في ذلك الصباح، تردَّد هنيهة قبل أن يمد يده ليصافحني. تحت معطف المطر الذي رماه على الكرسي، كان يرتدي قميص «تي شيرت» أزرق، مع كنزة صوف تتناسب معه. لكن حذاءه كان يكفي. جزمة من ماركة «ريد وينغز»[1]. لم يطلب منه أحد أن ينزعها عند الباب. قال:

- اجلسي، وكلي!

وتابعت تهديدي بالمغادرة، استمررت في القول بأنني بحاجة للذهاب إلى المنزل، إنني بحاجة لتنظيف أسناني، وأن أبدأ في إنجاز وظائفي المدرسيَّة. صرخ بول:

- اجلسي وكلي!

---

(1) نوع فاخر من جزمات الجلد، مصنعه في ولاية «مينيسوتا». (المترجم)

وضرب على الطاولة بأدواته المنزليَّة.

كانت بترا قد جلست على الطاولة منذ بعض الوقت، ورجلاها مطويتان تحتها، فيما رمشت عيناها الحمراوان. صنع شعرها المصفف حديثًا هالة مجعَّدة من الأصفر والذهبي. تلاشى مكياجها كله، ما عدا خط «ماسكارا» على أحد رمشيها. غمست سائلًا من صحنها بإصبعها، ثم امتصته. رفعت الفأس بيد دبقة، وتظاهرت أنها تلوِّح بها في وجه ليو عندما أخبرها بأن عصير البرتقال قد نفد. صاح بول مذعورًا:

- فـِ- في- فـُ- فوم!

أنبها الزوج قائلًا:

- «باتي»!

لكنها بدت مُحاطة بحقل قوة من السعادة، واكتفت بالقهقهة في وجهه. أنزلَت الفأس، ومسحت يديها على قميصها. سأل زوجها:

- من يحتاج مناديل؟

وقدم واحدة إليها أولًا.

غادرت عندما وصلت الشمس إلى رؤوس الأشجار، عندما صبَّت عمودًا من ضوء وغبار على جمجمتي، وأحالت كل شيء آخر في الغرفة إلى ظلال. كان بول يصرخ بشأن عاصمة «أوروبا»، وأوردت بترا شيئًا ما عن «عرض» قدَّمه بول البارحة، لذا لم يلاحظ أحد شيئًا عندما نهضت لأحضر مزيدًا من الحليب، ثم انسللت عبر الباب. أعطى مطر الليلة السابقة للغابة المشمسة مظهر وليد بعيون نصف مغلقة. بدت فوارة ومختمرة؛ كل أشيائها تومض وترمي أضواء. كاد المنزل أن يختفي عن ناظري - إذ شارفت الوصول إلى أشجار الصنوبر المزينة - عندما سمعت شخصًا خلفي على الطريق. نادتني بترا:

- ليندا، انتظري!

استدرت ورأيتها تركض بطريقة غير منتظمة، متعثرة بالحجارة وأكواز الصنوبر. مازالت مرتدية جواربها. حبست أنفاسي عندما رأيتها آتية بتلك

الطريقة. تجعدت التنورة بين رجليها، وتطاير شعرها في الشمس كعرف حصان. قالت:

- أشكرك.

وناولتني أربع ورقات من فئة عشرة دولارات.

غاص قلبي. كان في جيبي أربع أوراق ناعمة لم تنفَق من والدتي. لدي من المال الذي حصلته مقابل شهر من رعاية بول ما يكفي لشراء قارب «كاياك»، إن أردت، أو شراء تذكرة حافلة للذهاب إلى «ثندر باي»، أو كلب من سلالة صافية من نوع «ملاميوت».

كانت المشكلة أنه لم يكن لديَّ رغبة كافية للحصول على أيٍّ من تلك الأشياء كلها. دمدمت قائلة:

- لا شكرًا.

ورفضت أن أمد يدي. تظاهرت أنها غاضبة، ضربت الأرض برجلها.

- لا بأس في ذلك.

قصدت بكلماتي أن ذلك ليس مشكلتي. استدرت لأغادر.

- سأدفنها هنا تحت الصخرة، إذا لم تأخذيها. لا أمزح.

أمكنني أن ألاحظ أنها مازالت تحت تأثير صخب نقاش داخل المنزل، بما يحمله من أخذ ورد، ومداعبة من دون مقصد.

- «سأنفذ ما قلته. سأدفن رواتبك»، قالت، «سأحفر. سأحفر».

فعلت ذلك حقًّا. جثت على الأرض بيديها ورجليها في الوحل، وبتنورتها. مضت في سعيها، ورفعت قطعة من الغرانيت، فظهر تحتها في التراب الرطب مجموعة من دود الأرض تتلوى باتجاه السماء. كأنها كشفت أحشاء الغابة. نادتني:

- أنا جادة.

هززت كتفي باستهانة.

- هكذا تختفي نقودك. تحت صخرة مع الحشرات.

قلت:

- وداعًا.

أخيرًا، وقفت وهزت رأسها باتجاهي، غير قادرة على التوقف عن الضحك. يداها حول وسطها.

- أنت صَبيَّة مرحة إلى حد ما، أتعلمين ذلك؟

كانت جواربها وكفاها سوداء من الوحل.

- أنت راشدة غريبة الأطوار.

وصلت إلى المنزل مملوءة بالوحل من سيري عبر الغابة. تقافزت الكلاب شادةً قيودها عندما شققت طريقي عبر الباب. قلت لها:

- أيتها النُغول!

وانحنيت عليها، مع الحرص على ملامستها جميعها في الوقت نفسه بالضبط، بما فيها «آيب» كلبي العجوز المفضل.

تَربيتَتان على جانب القفص الصدري. ثم، وقفت. بالكاد استطعت أن ألتقط الأصوات المدَمدِمَة لوالديّ في الداخل، آتية عبر ستارة النافذة. ظننت أنني ربما سمعت اسمي - «مادلين» - لكن، لا؛ كانا يتحدثان عن الخُلد في الحديقة. استدرت مندفعة وسرت في الاتجاه الآخر.

كانت الزريبة باردة ومظلمة. عند عارضة السقف حوَّمت عصافير مجفلة. وقفت ساكنة واستمعت إلى خفق أجنحتها. حدَّقت في ثلاجة الأسماك لكني لم أحتمل الفكرة - ليس بعد ما حصل الليلة الماضية، ليس الآن - أن أقطّع صدر سمكة «وول آي». بعد أن يمر عليها يوم تكون السمكة على شفا الفساد، لكني لم أتحقَّق من الثلج. سيكون هناك كثير من العظم لأتعامل معه، إذا ما فعلت، ومِلء دلو من الجلد اللامع. لن يكون إنجاز امتحاني المنزلي في مادة علم المثلثات خيارًا أفضل - يحتمل أن يكون أسوأ - لذا، وقفت لدقيقة في الزريبة العتيقة مترددة، قبل أن أملأ حقيبة الظهر بأشياء قليلة، بعد أن عقدت

معطف مطر ممزقًا على خصري، وجررت قارب «كانوي» من نوع «وِنوناه» إلى الشاطئ.

في اللحظة التي لامس «الكانوي» الماء، تحرَّك من تلقاء نفسه. كل ضربة مجداف كانت شيئًا فائضًا تقريبًا. لم يكن من تموُّجٍ في البحيرة، ولا حتى موجة. تستطيع أن ترى القعر مباشرة. تستطيع أن ترى سمكة «الخيشوم» ترتفع، وأوراق الزنبق تغرق تحت مقدم القارب. تستطيع أن ترى فقاعات الهواء تلتف مبتعدة عن القارب، صانعةً ذيلًا خلفه. في الزاوية البعيدة من البحيرة، جررت القارب إلى الشاطئ، انحنيت، ورفعته على كتفي، مُدخِلَة رأسي في تجويفه. استغرقني الأمر هنيهة قبل أن أتوازن لأنقل الحمل الثقيل إلى شاطئ آخر.

البحيرة التالية، «ميل ليك»، أكبر من بحيرتنا، كان شاطئها مكتظًا بحافلات للتخييم وشاحنات «بيك آب»، عند فسحة مخيم في الغابة المحمية حكوميًا. زَلزلت القوارب السريعة سطح البحيرة محدثة حُفَرًا بطول ثلاثين قدمًا. لم يبطئوا عندما رأوني آتية، فقد كانوا مستعجلين الوصول إلى نقطة الصيد التالية، مستحثين محركاتهم، وتموَّجَت ظلال خضراء عند مرورهم.

تفاجأت برؤية امرأة تلبس مايوه «بكيني» تهتز داخل حاوية خلف أحد القوارب. المياه ما زالت باردة إلى حد كبير. صرخت موجّهَة تحية لي عبر زعيق المحرك، لكني لم أحاول الرد. مرَّ القارب قربي بسرعة كأنه يطير.

تابعت التجذيف. بعد نصف ساعة أخرى، تلبدت الغيوم فوق رؤوس الأشجار، وهزهزت الريح سطح البحيرة وأعطته مظهر جلد مُسِن. عند تلك النقطة، انكفأ كل المخيمين في عطلة نهاية الأسبوع إلى الداخل، إذ خشوا عودة الطقس السيئ. كانوا يخلطون دومًا بين الغيوم والخطر، إذ يرون كل الغيوم متساوية. أشعلوا الأضواء داخل الحافلات، فبدت الساعة الثانية بعد الظهر كأنها الغسق.

شققت طريقي عبر جدول صغير يربط بحيرتي «ميل ليك» و«واينساغا».

من تلك النقطة، امتدت «واينساغا» أمامي كسهم طويل ورفيع متَّجه إلى الشمال. المحميَّة عند الطرف الآخر البعيد. عندما كنت هناك في المرَّة الأخيرة مع أبي، قبل سنوات لشراء مصائد لـ«فأر المُسك»[1] ، لم تكن المحميَّة سوى مبانٍ قليلة، فيها طريق واحد معبَّد، مع ربما العشرات من المنازل المتحركة، ومجموعة كلاب «لاب ميكس» شاردة. الآن، وإذ أقترب من الشاطئ، رأيت أن الكلاب كلها خلف أسيجة متصلة كسلسلة. هناك أكشاك لبيع «آيس كريم» من نوع «ديري كوين»، موقف سيَّارات بحجم ملعب كرة قدم، وإشارة مرور. أبلى الكازينو الجديد على الطريق السريع بلاء حسنًا. رأيت مركزًا للثقافة المحلية مشيدًا من جذوع أشجار عتيقة، مع يافطة على شكل سمكة كُتِب عليها «مينو- أو- دابين»[2]! أهلاً وسهلاً». أرسيت الـ«كانوي»، وركنته بشكل لائق تحت شجرة تنُّوب، ثم انطلقت إلى الطرق المعبَّدة التي تتوزَّع وصولًا إلى الباحات الخضراء أمام المنازل الجاهزة. كلها بيضاء بجنبات من الألومينيوم. مزوَّدة بمداخل مظللة، وكاراج لسيَّارتين، تتوجها الأطباق اللاقطة، وشاحنات «بيك - آب» واقفة أمامها.

بدت المحميَّة مهجورة خلا بضعة فتية برزوا من الغابة مرتدين ستراتهم اللامعة لمدرسة يوم الأحد[3]. حملوا صلبانًا مصنوعة من عيدان البوظة، وكانوا يلهون بها كبنادق. قال أحدهم:

- بوووه

حمل آخر صليبه وصرخ:

- ابق بعيدًا يا «ليفياثان»[4].

---

(1) نوع من القوارض الأميركيّة يجري صيده للحصول على فرائه الثمين. (المترجم)

(2) مصطلح يستخدم في محميات السكان الأصليين لأميركا، تستعمل للترحيب بالعابرين. (المترجم)

(3) فصول دراسية تعطى يوم الأحد، وهي مخصصة لدروس الدين. (المترجم)

(4) وحش بحري موصوف في التوراة. (المترجم)

سـألت:

- هيه، أيعرف أحدكم منزل «هولبُرن»؟

وأضفت:

- «بيت» وابنته ليلي.

حينها، كانت قد تغيَّبت أربعة أيام عن الصف.

سأل أحد الصبية - ذاك الذي كان يقودهم في تصيُّد «ليفياثان» -:

- لِم يتوجب علينا إخباركِ؟

- سأعطيكم نقودًا. سأعطي دولارًا لكل منكم إن أخبرتموني عن مكان منزلهما.

صمتوا هنيهة. ثم وافقوا معًا، كأنما تخاطبوا بالتخاطر، من دون أن يرفعوا أكتافهم. أشار أحدهم إلى طريق فرعي مكسو بالحصى عند نهاية الطريق المعبَّد:

- هناك، عند آخر الطريق.

سلمتهم دولارات أمي، مسطحة ودافئة لبقائها يومين في جيبي. وفي اللحظة التي تسلموا النقود انقلبوا ضدي. حملوا صلبانهم وشرعوا في وعظي:

- ماذا تريدين من ليلي البولندية؟ تلك التي تمص عضوًا طوله أربعة إنشات، وهي مثليَّة غرائبيَّة. هل أنت مثليَّة أيضًا، أم ماذا؟

تنهَّدت. لطالما تلقيت أسئلة من صبية مثلهم في المدرسة، في مرحلة ما قبل الثانوية. كانت تلك الاتهامات الأسوأ التي يقدر صبية في ذلك العمر على الإتيان بها؛ وكنت مستعدة تمامًا للرد عليها، استنادًا إلى خبرة سنوات من الاضطهاد في ملاعب المدرسة. سألت كمن يقترح أمرًا:

- تقصدون «الإنسان العاقل»[1]؟

---

(1) الشتيمة التي وجهها الصبية تعتمد لفظة مختصرة لمثليي الجنس Homosexual هي «هومو» Homo، لكنها أيضًا بداية كلمة «هوموسابيانس» Homosapiens الذي هو إنسان الحضارة البشرية. (المترجم)

هزوا أكتافهم، وبدوا حائرين. قلت:

- أنا كذلك. نعم.

صرخوا:

- مقرف! مثير للقيء! ييععع!

رغم ذلك، كانوا مبتهجين.

تركتهم وقد وضعوا صلبان أعواد البوظة على أفواههم، وتوجَّهت إلىٰ الطريق الذي دلُّوني عليه. سرت بعض الوقت على التبن والوحل قبل أن ألحظ مقطورة صدئة بين أشجار الصنوبر. لم أقترب من منزل ليلي عند مدخله. استدرت إلى مدخله الخلفي، حيث العشب غير مجزوز، والأشجار تطاوله، شجر التنُّوب ثم المزيد منه. لكن، كان هناك فناء اسمنتي منَظَّف، تحت زريبة زرقاء باهتة. وعندما تطلعت عبر النافذة الخلفية، استطعت رؤية أطباق مكدَّسَة بعناية في المُجَفف. استطعت رؤية طاولة من خشب «فورمايكا» وكراسيها مدفوعة تحت سطحها، وحوض سمك مضاء يدور فيه الماء والفقاعات. كانت مقطورة عتيقة، لكنها مرتَّبة، مع سجادة صغيرة على الأرض ولحاف مطرز بالكروشيه، فوق أريكة ضيقة. رأيت الوشاح الزهري الذي سرقته ليلي من ركن المفقودات - بأهداب تهتز في الهواء - معلَّقًا على خطَّاف عند الباب. وأثناء مراقبتي، تحرَّك الوشاح في الريح، وأدركت أن الخطّاف ليس سوى قرن على رأس غزال ميت.

كان لذلك الشيء فمٌ عريض مغلق، ومنخاران عريضان منتفخان.

من خلفي، جاء صوت رجل، قال:

- ليلي؟

استدرت. يجلس شخص ما على مقعد جزازة العشب، تحت ظل شجرة تنُّوب بعيدة.

- هل عُدتِ يا ليلي؟

كان ذلك السيد «هولبُرن»، وأثناء مراقبتي له، أخذ نفسًا عميقًا ودفع نفسه ليستقيم أكثر فوق مقعد النايلون المتآكل. حاولت التفكير بشيء ما لأبرر نفسي

- كنت أجمع زهور «توت يونيو»، تهت عن الطريق -، لكن عندها رأيت تلك الخزانة بيده، كومة من القناني الفارغة مقلوبة على الطحالب. كان الوقت بعد ظهر يوم الأحد في عطلة «يوم الشهداء»، فكَّرت أنه ليس مهمًا ما سأقوله. لن يتذكر شيئًا بمجرد أن أغادر.

تدلت ورقة صنوبر إبريَّة من لحيته الرماديَّة.

أرجحَ رجليه خارج كرسي الجزازة، وشرع في النهوض.

- هل عُدتِ الآن؟ كنت أنتظر هنا...

تلاشى مظهر المظلوم عن وجهه، بمجرد خروجه من الظلال. حينها، أدرك أن خطأً ما قد حدث، وبالسرعة نفسها نسيَ أنه ارتكبها، ودخل في إغماضة طويلة، بعيون مثقلة. عندما فتح عينيه ثانية، كان يحدّق بعينين ضيِّقتين بشدَّة إلى حد أنه بدا متألمًا. سأل:

- أنت؟

ثم أضاف بكل لطف:

- هل أعرفك؟

قلت:

- لا.

رغم أن ذلك لم يكن صحيحا تمامًا، إذ سكبت له القهوة ذات مرَّة في المطعم، قبل بضع سنوات، عندما كنت في الثانية عشرة، وتباريت مع ابنتي أخيه في سباق محليّ لكلاب سحب عربات التزلُّج («سباق الدبِّين التقليدي لكلاب الزلّاجات»)، وفزت عليهما. وربَّتَ على كتفي عند نهاية السباق.

وضع كفَّه على بطنه وسحبها إلى الأعلى عبر قميصه الـ«تي شيرت»، وصولًا إلى حلقه. ابتسم لي كرش فضي بارز.

- كأن شجرة تنمو خارجة من صدري، أتعرفين؟ لا أحس أني على ما يرام. كأن فمي لا يناسب وجهي، أو شيءٌ ما من ذلك.

حرك فمه. واعتذر:

- لا تهتمي بشأني.

ابتعدَ عني، وعثر على علبة أخرى على الأرض، وفتحها. وعندما استدار ثانية نحوي كان حاجباه متجعدين.

- ألا زلت هنا؟

تناولت حقيبة الظهر، وفتحت سحَّابها. أخرجت جزمة. عندها، قال لي شارحًا:

- إنها ملكية خاصة.

ثم أضاف بحزن، وكأنما يتحدث عن أمر غير ممكن الحدوث:

- لا يسمح بالصيد والقنص.

هل ظن أنني أخرجت علبة عدَّة صيد أو ما يشبهها؟ بندقية؟

- لا أصطاد.

قال:

- كلا...

ثم توجَّب عليه البحث عن الكلمة. توجَّب عليه أن ينظر إلى إشارة بالأسود والبرتقالي معلّقة على شجرة في ملعبهم، ويقرأها بلعثمة:

- التعدّي.

بادرت إلى القول:

- أين ليلي؟

قال:

- ليلي؟

هزَّ رأسه ببطء، كأنه يحمل عبء أسرار العالم:

- خرجت مع ذلك المحامي ابن الزانية. عندما غادرت، قالت لي «أبق المنزل جميلًا». وانظري. جعلت كل تسليتي في الخارج، مثلما طلبت. ورتَّبت الأطباق. صحيح؟

عاد للجلوس على مقعد جزازة العشب لاهثًا، كأن مجرد ذكر تلك المهمات استنزفه. وأثناء جلوسه، أشار بحذر إلى الجزمة اللتي بِتُّ احتضنها بين ذراعيّ الآن:

- ما ه..؟

حاولت التفكير في طريقة للشرح:

- إنه...

قبل أن أتمكن من الإجابة، وضع كفه على وجهه كأنه يغطيه.

عُدت إلى مقدمة المقطورة، وتردَّدت لحظة عند الباب. وضعت أرضًا الجزمة المصنوعة من جلد الغزال التي أخرجتها من حقيبة الظهر. تساءلت إن كان ثمة طريقة لترك رسالة، وقرَّرت فورًا أن ذلك غير ممكن. انحنيت، ووضعت الجزمة في الظلال عند السلم الأمامي: الإبهام إلى الأمام، والكعبان على خط واحد. ربَّت على جنب إحدى الفردتين، قبل أن أنطلق جريًا إلى الطريق. جئت بالجزمة من ركن المفقودات في آخر يوم خميس، بعد انتهاء الصفوف، وحملتها في حقيبة الظهر في «الكانوي» عابرة بها ثلاث بحيرات، وجئت بها عبر تلك المسافة كلها لأعطيها إلى ليلي. أعتقد أني قصدت أن تكون نوعًا من الهدية. لكن، عندما هرعت إلى الطريق المكسو بالحصى متَّجهَةً إلى بحيرة «واينساغا» وقاربي، حدَّقت خلفي مرَّة، وها هما واقفتان هناك: فردتا جزمة سرقتهما من أجل ليلي. تركت الفردتان تأثيرًا مختلفًا في مدخل المقطورة عما توقعته. بدتا كشخص غير مرئي ولا يعرف الصفح، واقف ليحرس بابها. يسدُّ المدخل، مُتَّهِمًا.

***

أثناء عودتي، وجدت البحيرة مضطربة بالأمواج. اضطربت معدتي. لم يكن في حقيبة الظهر الآن سوى السكين السويسري ومعطف المطر المشمع.

لم أجلب مؤونة. انتزعت بضع حبوب غير ناضجة من التوت البري من دغل قرب الشاطئ، وتذوَّقته بلساني قبل أن أبصقه. كان مملوءًا بالشعر وقاسيًا. فكَّرت في بول. فكَّرت في بول وكوخه - إنه يساعد بترا على تفكيك الخيمة، فيما يوجِّه ليو الأمور بالملعقة المسطحة - وقرَّرت أن أمارس الصراع على البقاء، آنذاك وهناك. جرَّبت أن أكون جائعة، منهكة، وعلى بعد مئة ميل من الحضارة، من الناس. انطلقت بـ«الكانوي» مستخدمة مجذافي، واتَّجهت رأسًا إلى مركز بحيرة «واينساغا»، حيث تلاطمت الأمواج على مقدمة المركب، وبللَّ الضباب وجهي. تمايل القارب، وجعلت ضربات مجذافي في الماء عميقة كي أحافظ على استقامة مساري. عن يميني وشمالي، ظهرت الوجوه الرُمحيَّة السوداء للبط الغوَّاص، مرارًا وتكرارًا. لربما كانت البطة نفسها، تغوص تحت قاربي، وتلاحقني. يعرف عن البط الغوَّاص أنه يفعل ذلك.

في ذلك الوقت، كانت مياه البحيرات الثلاث تتدفق معًا. بدت كل حافلات التخييم على شواطئها متشابهة. خفقت حبال الغسيل بالمناشف، وعَقَدَت قواربُ الصيد حبالها. وعلى سطح الماء، انزلَقَت أحيانًا كرتونة حليب أو علبة بيرة. لتمضية الوقت، لإلهاء نفسي، أحصيت إحدى عشرة (زائد واحد) حافلة تخييم، وأحد عشر (زائد واحد) قاربًا. أحصيت إحدى عشرة إلا اثنتين من البط على الضفة، إحدى عشرة ضربة مجذاف للانتقال من شاطئ إلى آخر؛ فمن السهل العثورعلى أنماط؛ إذا راوغتَ قليلًا. بإمكانك أن تأخذ أحد عشر نفسًا ثم تتوقف. بإمكانك أن تعدَّ إحدى عشرة نجمة في الأفق، إذا لم تبحث عن البقية.

أملك ذكرى حقيقية وحيدة عندما كنت في السنة الرابعة من عمري. إنها تتعلق بـ«تامِكا» التي تكبرني بسنة تقريبًا، وقد نامت معي في قبو في المهجع العمومي إلى حين تفككت المجموعة. كان لديها سترة برتقالية اللون مكتوب عليها بحروف كبيرة، اعتادت أن تثني كميَّها إلى المرفقين، فتبدو مثل كعكتي «دوناتس» كبيرتين.

ثمة ندبة قرمزية على كوعها الأيسر. يداها بنيتان غامقتان من الخلف، وباطنهما أبيض. بالطبع، كان هنالك كثير من الفتيان الكبار، أكبر سنًا وأسرع منا نحن الاثنتين، يتحركون في زُمَرٍ، ويهاجمون. لكن «تامِكا» كانت أهدأ وودودة أكثر. اعتادت قرض أظافرها وتجميعها في كومة، ثم تخبئها في أكياس نايلون صغيرة من نوع «باغي»، وتكوِّرها ثم تخفيها تحت إبطها. سمَّته **مخبأها**. همست:

- **لا تخبري** أحدًا.

بالطبع لم أفعل. بالطبع لا. اعتاد الجميع أن يقولوا لنا:

- كم أنتما محظوظتان للعيش على ذلك النحو.

تساءلت «تامِكا»:

- بطتان محظوظتان؟

قلت موافقة:

- بطتان.

وهرعنا إلى الغابة.

لأحكِ خير ما أتذكره عن ذلك الوقت. لبضعة أسابيع، قبيل بلوغي الخامسة مرضنا انا و«تامِكا» معًا. تمددنا على سريرنا، ونمنا، سبحنا في أحلام ثم خرجنا منها، واستيقظنا نسعل معًا وفي اللحظة نفسها. أتذكّر الحرارة، والأغطية المترامية الخانقة. أتذكَّر أنني مصصت طرف جديلة من شعر «تامِكا». أتذكر أن «تامِكا» قررت أنه لا يتوجب علينا التحدث إلى بعضنا بعد ذلك: كُنا نعرف أفكار بعضنا لأننا موجودتان في العالم معًا، وفق ما قالت. يشبه ذلك ما يفعله البط الغوَّاص أو سمك الكراكي ذو الوجه المزدوج؛ إذ تعرفين كيف يغوص معًا دائمًا، في اللحظة ذاتها بالضبط؟ إنه يقرأ عقول بعضه بعضًا، يرى المستقبل، يتجنب الكوارث؛ وذلك شأن المرض معًا. حسنًا؟

في السرير، جذبت «تامِكا» طرف جديلتها من فمي، وانتظرت موافقتي. فكَّرت أنه لا بأس في ذلك.

بعدها، صرت أنظر إلى «تامِكا» وكأنني بطة غوَّاصة، بتلك العين التي تشبه زرًّا مسطحًا فلا تتحرك، رأت كل شيء في البحيرة ولم ترمش. كلما رفعت ملعقتها إلى فمها رفعت ملعقتي أيضًا، ابتلعنا معًا الأرز المهروس، ودفعناه إلى معدتينا.

لاحقًا، كلما أرادت «تامِكا» أن تحك قشرة ندبتها، رغبت في حك قشرة ندبتي إلى أن تنزف دمًا على رجلي، ويصل إلى شقوق في ظفر قدمي. وعندما شرع الآباء في الشجار أثناء الاجتماعات، ملوّحين بأيديهم ورافعين رؤوسهم، قررت «تامِكا» وأنا التسلّل من الباب الخلفي وصولًا إلى دغل «ذيل القط» - إمبراطورية من الأعواد الخضراء - وعندما وصلنا إلى الجهة الأخرى أخذنا نحدق بأعين ضيِّقة في الشمس اللامعة. معًا صعدنا ركضًا على الصخور الكبيرة، ممزقتين بقعًا من الطحالب بأقدامنا المتيبّسة. هرولنا على الضفة الأخرى لنصل إلى الطريق، ثم تابعنا بأنفسنا المشي وصولًا إلى الطريق السريع؛ جامعتين أكواز الصنوبر الجيدة وتاركتين الغبيَّة منها، حاملتين منها ملء ذراعين - أدهشنا أنفسنا بقوتنا المكتشفة حديثًا، بصمودنا - وتابعنا السير إلى البلدة. لم نخف من الشاحنات التي دفعت بالريح صوبنا.

فكَّرت أنها تصرُّ بأسنانها.

فكَّرت «تامِكا» أنها تستعرض مخالبها الرهيبة.

تباطأ أحد سائقي تلك الشاحنات عند مروره بنا، ولوَّح بذراعه البيضاء من نافذة نصف مفتوحة، قال:

- هيي، حاذِرا.

لكننا انتظرنا إلى أن أصبح قريبًا إلى حد يسمح بإطلاق النار عليه من بندقية - استخدمنا سبابتينا وصحنا «باااام» - ثم صرخنا:

- لا تتحرك.

لكننا لم نأبه له، ولا ليده الصغيرة البيضاء التي لوَّحت، لوَّحت لنا من أعلى الشاحنة. كنا نعرف إلى أين نسير. كنا نعلم ذلك بطريقة تجعلنا لا نقول

لأحد عنه، بطريقة تفوق الشرح، بطريقة تشبه سمك الكراكي أو البط الغوَّاص الذي يغوص تحت الماء في اللحظة نفسها ثم يظهر كنقط صغيرة عند الطرف البعيد من البحيرة. واحد، اثنان. أطلقنا في الهواء قبلتين إلى غزال. رمينا أكواز الصنوبر في الطريق.

راقبنا الشاحنات وهي تنحرف.

في خاتمة المطاف، ظهر أحد الفتيان الكبار، صرخ علينا، جاء عبر الطريق من خلفنا. أعجبنا أن شعره الأسود الدَبِق نفخته الريح فتجمع في نتوءين عند أذنيه، كأنهما بداية قرني وعل.

ضحكت و«تامِكا». توقَّفَ عند اقترابه منا. بدا بوجه من حاول مضغ شيء لا تستطيع شفتاه الإحاطة به، ولم أعرف سوى لاحقًا ماذا يعني أن تكون في الرابعة عشرة ضمن ذلك الحشد، كل أولئك الصبية الصغار الصاخبين وأغاني «الهيبيز» المولولة، مع عدم وجود غرفة فارغة قطعيًّا. دومًا، وُجِد كثيرون منا، القليل جدًّا من الأسِرَّة والملاعق النظيفة، القليل جدًّا من لفائف ورق التواليت.

ماذا كان اسمه؟ هل أرسله أحدٌ في أثرنا؟

ما لم يعجبه كان ضحك الفتيات الصغيرات. أثار ذلك غيظه، وأوضحه لنا، صارخًا:

- هل جننتما؟ اخرجا من الطريق بحق الجحيم!

ثم صمت، وهدَّأ نفسه. وبيديه، سوَّى قرنيه الوليدين، الواحد تلو الآخر، ورسم شعره على هيئة ذيل قصير وثخين لمُهْر. ثم أخيرًا، دفع فمه لقول ما يفترض أنه جاء ليقوله:

- أنتما تنتقصان من مجموع تجربتنا الإيجابيَّة.

ثم تنهد. ذكَّرته «تامِكا» مشيرة برأسها إلى الأمام. مرتين:

- نحن محظوظتان.

صحّح لها قائلًا:

- أنتما براز كلاب.

عندما بلغت السادسة والعشرين، حطّمت سيارتي كليًّا. كنت عائدة إلى «دولوث» بعد انتهاء مراسم دفن أبي، وانحرفت لأتفادى غزالين، ثم انزلقت مرتطمَة بمجموعة من شجر الأرز. جرحت شفتي قليلًا من أثر الاصطدام، لكن ما عدا ذلك، كنت بخير. لربما كنت على مسافة ميلين من كوخ والديّ، ثلاثة أميال ونصف من «لوس ريفر»، واستمررت في محاولة تشغيل هاتفي الخليوي، رغم أن تغطية الشبكة متقطعة هناك وثقتي بأن الخدمة أُوقِفَت عني لأنني فشلت في دفع فاتورتي في وقتها. استمررت في فتح هاتفي والنطق بكلمة «رجاءً». مرت سيارات قليلة قريبًا من هناك، وكلما ظهرت إحداها انحنيت إلى الأسفل. لم أرغب في العودة إلى الكوخ. لم أرغب أن أشرح لأمي السبب في كوني ما زلت هناك. لذا، عندما عاد الغزالان من الغابة ليتلصصا، ورأيتهما يحنيان رأسيهما لالتقاط براعم الشجيرات، استخرجت حقيبة ظهري من السيارة واتجهت إلى الطريق.

عند الثالثة، شرعت في المشي، ووصلت إلى أول محطة بنزين بعد حلول الظلام بكثير. سرت في الاتجاه المعاكس لـ«لوس ريفر»، متَّجِهَة صوب «بيرفين» التي تبعد 11 ميلًا شمالًا.

عند بداية المشي، استمررت في اللجوء إلى الأعداد، وصنعت عشرات الخطط المختلفة لدفع تكاليف إصلاح سيارتي، وفاتورة تليفوني، وجزمتي التي فقدت - بعد فترة من المشي - أحد كعبيها. ثم، عند نقطة ما توقفت عن إعداد الخطط. توقفت الخطط عن الورود إلى رأسي. منحني ميكانيكي من «بيرفين»، أقلني رجوعًا إلى سيارتي، 750 دولار ثمنًا لقطع الغيار التي يمكن استخراجها من السيارة بمجرد معاينته لها. أخذت المال نقدًا، وحجزت غرفة في «موتيل 6»، ورميت هاتفي في النهر خلف كاراج الـ«موتيل»، واشتريت دراجة نارية صدئة صباح اليوم التالي. اتصلت بمركز عملي كبائعة بالمفرق في «دولوث»، وأخبرتهم أني تركت العمل. لم اتصل بأمي التي كانت قد مدَّت في تلك الآونة خط تليفون أرضيًا، كي تستمر في اعتقادها بأني في طريق العودة إلى «دولوث».

استغرقت الرحلة إلى «توين سيتيز» ست ساعات، وطوال الطريق كنت أُحدث نفسي بأني أحب درَّاجات «كوازاكي» الناريَّة، وأني أحب السرعة. لكني كنت أظنها شبيهة بالعربات من نوع «الدراجة ذات الثلاث عجلات»، وأنه يتوجَّب علي إحكام قبضتي على جانبي المقود كل الوقت، كي أحمي نفسي من الانحراف. وأدركت أن قيادة الدراجة النارية أمر منهك. لذا، عندما وصلت مدينة «سان بول» بعت الدراجة إلى ميكانيكي آخر لديه حلقة مغروزة في لسانه وأخرى في سرَّته علمت بأمرها لاحقًا لأنني بدأت في معاشرته بعد أن استعملت نقود الدراجة لاستئجار شقة في «مينابوليس». بدا الأمر جيدًا أن أعود بالميكانيكي إلى استوديو تشاركته مع رفيقة حجرة عثرت عليها عبر إعلان علّقته في مقهى «ستارباكس»[1]. أحببت أن أُدخِله خِلسة وأعاشره بسرعة وهدوء على أريكة من نوع «فوتون»، ولا أرى شيئًا في الظلام، وأتخلص منه في الصباح التالي.

في الصباح، دومًا عند السابعة، تنهض رفيقتي لتمارس رياضة التمدد، تمارس الـ«يوغا»، قبل بداية نهار من المقابلات لإيجاد عمل، كي تطوّر نفسها.

عند ذلك الوقت، أستيقظ على صوتها تغني أثناء رفعها الستائر، وبين اليقظة والمنام أسميها بترا. أقول مفاجِئة نفسي:

- بترا، صباح الخير.

كأنما بترا ليس اسمًا لشخص محدد، بل شعور امتلكته ذات مرَّة؛ إحساس مفقود يعود إلي، ليس بعيد الشبه عن السعادة. تتجاهل «آن»، رفيقتي الآتية من مزرعة قمح في «مانيتوبا»، تلك الأطوار المنحرفة كبقية تصرفاتي المعتلَّة، وصديقي المتسلل، وخزانتي الفارغة. مؤخرًا، وضعت وشمًا لقلب على كاحلها وهو التمرُّد الأقصى الذي يمكنها التفكير به، ضد والديها اللوثريين، وجلست

---

(1) في مقاهي «ستارباكس»، يوجد عادة لوح يعلق عليه الرواد إعلانات شخصية متنوِّعة، كالبحث عن شقة، عن شريك لغرفة مستأجرة، عن عمل وغيرها (المترجم)

على سجادتنا كي تنظف كاحلها الملتهِب بمنديل رطب مخصص لتنظيف الأطفال. وليس سوى بعد انتهائها من ذلك، كانت تضع المنديل في سلة المهملات، وتنظر ثانية إليَّ قائلة:

- صباح الخير، ليندا.

كأنما لم نتبادل المزحات نفسها قبل خمس دقائق، كأنها تقدر عبر النظام أن تتعامل مع غرائبياتي المقلقة مثل تعاملك مع رائحة غير حميدة أو طفلة تلوك أظافرها. قلت:

- صباح الخير، بترا.

فعلت ذلك كي استفزها، كي أمازحها قليلًا.

في وقت قريب من بلوغي السابعة والثلاثين في الخريف المنصرم، خطر لي أنني قد أستطيع الوصول إلى بترا عبر الإنترنت. لا أعرف لم خطر لي ذلك بعد كل تلك السنوات، لكن بمجرد أن فعلت ذلك صرت أمضي ساعات طويلة في تتبعها. لقد بدَّلَت اسمها الأخير، لذا لم يكن سهلًا العثور عليها. لكني تذكَّرت أنها كانت تدعى «كليو» قبل أن أعرفها. عثرت على «كليو ماكارثي» التي أمكنها أن تكون بترا، رغم قلة المعلومات الموجودة عنها.

سوى مقالات قديمة عن المحاكمة، لم أقرأها، كان عنوانها حاضرًا في «توكسون»، ووَصفَةٌ مُقَدَّمَة إلى موقع عن الخبز تتحدث عن صنع كرات الفوشار. وصفها أحد التعليقات بأنها لزجة إلى حد ما. لم يعجبني الأمر، وبحثت بصبر في موقع جامعة شيكاغو، وبالنتيجة، ولأنني لم أعثر على المزيد، قررت البحث عن «تامِكا» بدلًا من ذلك. بحثت عن «تامِكا»، ووجدت حياتها هناك كأنها وضعتها كي أعثر أنا عليها، وكل خطوة مشروحة بنصوص سرديَّة من النوع الذي يندر وجوده على الإنترنت. تخرَّجَت «تامِكا لونا تريفور» من «الكلية العليا للفنون - بِربيش» في مدينة «سان بول»، وذهبت إلى «جامعة ويسليان»، وأضحت محامية في شؤون الميراث، وتزوَّجَت مختصًّا بطب الأطفال اسمه

«واين»، ينتمي إلى منظمة «أطباء بلا حدود»، لديها بنتان رياضيتان، تظهرهما صورة في مجلة خريجي «ويسليان» أثناء لعبهما كرة السلة. اشترت مزرعة في «إيدنا»، بولاية «مينيسوتا»، وهي ضاحية راقية في «مينابوليس»، وكان منزلًا لفريق الـ«هورنيتس» لكرة السلة. في صور للمنزل قبل شرائها له، يظهر محاطًا ببحيرة اصطناعية.

نحن نعرف أفكار بعضنا بعضًا لمجرد وجودنا في العالم؛ قالت ذلك لي ذات مرة.

كنت قد عُدت إلى «لوس ريفر» عندما بحثت عنها. ومنذ سنوات، دأبت على الاعتناء بأمي، وقسَّمت ملكيتنا كي أسدد الديون. آنذاك، كانت «تامِكا» قد فارقت عالمنا منذ فترة طويلة. أو ربما أنا المسؤولة عن ذلك، إذ لم أستطع أن أتخيَّل ولا حتى واحدة من أفكارها.

في يوم الثلاثاء الذي تلا «يوم الشهداء» وصلت مبكرة بضع دقائق إلى منزل بترا. كان مطر عطلة نهاية الأسبوع قد توقَّف. غادر كل الذين جاؤوا من خارج البلدة، استعدادًا لبقية الأسبوع، وبعد برهة من مغادرتهم ارتفعت الحرارة إلى ثمانين درجة فهرنهايت. أدى ذلك، إضافة إلى المطر، إلى مجيء طلائع البعوض.

حطَّ على كل بقعة مُظللة. وأثناء سيري على الطريق السريع بعد المدرسة، حاولت البقاء في منتصف الطريق، في الشمس، لتجنُّبه. وجهت صفعات إليه أثناء طيرانه المهتز في طريقه عبر الغابة. كنت أمسح الدم عن قفا يدي، عندما لمحت بترا في آخر الطريق الجانبي عند منزلها. كانت ترتدي سترتها الجامعية وجزمة زوجها الضخمة غير المربوطة. حييتها بابتسامة:

- هاي.

جاءت عبر طريق مفروش بالحصى، رافعة حاجبيها كأنما تستعد لترتيبات أرادت عقدها معي.

- شكرًا جزيلًا مجدَّدًا على مساعدتك في عطلة نهاية الأسبوع.

قلت:

- بالتأكيد.

ثم، توقفنا هناك. أمكنني رؤية البعوض يشق طريقه إلينا قادمًا من الغابة، وتساءلت لم كانت بترا لوحدها على الطريق إذا كانت جاءت لتلاقيني. رفعت حقيبة الظهر إلى الأعلى على كتفي. قلت لها:

- آممم، كنت أفكر أنه ربما استطعنا، أنا وبول، تجربة السباحة اليوم، ربما، فالجو دافئ بما يكفي لذلك.

- آوه، سيكون أمرًا رائعًا. نعم. شكرًا.

التمعت ابتسامتها الأشد فعاليَّة في أرجاء المكان. وقالت:

- لكن، فعليًّا، ذلك ما أردت قوله. أعتقد أننا سنكون على ما يرام في اليومين المقبلين.

كانت تعني أن ذلك سيحدث من دون وجودي.

حدَّقت في المنزل خلفها بستائره المسدلة، بابه المقفل، وواجهته المغلقة بجذوع الأشجار. كانت كل النوافذ على الجانب الآخر، ذلك الذي يواجه البحيرة. وخلال العطلة كلها، تصبح تلك النوافذ سوداء بتأثير أشعة الشمس (إذ صرنا نحصل على مزيد من الأيام المشمسة الآن)، ما عدا ساعة أو اثنتين في الأماسي عندما تتناول بترا الطعام مع زوجها في الضوء الخفيف لمصباح. لم أرَ أيًّا منهما على الحافة الخارجية لمدة أيام. تساءلت إن كانوا خرجوا معًا بالسيارة؛ إلى «مركز الطبيعة لخدمة الغابات» أو «بيرفين» لإعادة السيارة المستأجرة، أو إلى المطعم في البلدة للحصول على قطعة من فطيرة الشوكولاته بالقشدة.

تساءلت إن هما ذهبا بعيدًا حتى «وايتوود» حيث يوجد ملعب فيه زلاقتان. ملعب للغولف المُصغَّر. قاعة سينما.

كانت بترا لا تزال تبتسم بشدَّة:

- أقصد، سنتدبر أمرنا بوجودي مع ليو حاضرًا. لكن، شكرًا لك ليندا.

- بالطبع.
- حتمًا سأتَّصل.
- عظيم.

لم يُتَح لها إطلاقًا أن تتصل بي.

الآن، صار معظم البعوض فوق بترا، ينقر يديها ورقبتها. كانت تكشحه عن أُذنِها. وقفت ساكنة متيحة له النيل مني، إذا أراد. استطعت أن أحس بالعشرات منها تنبش الشعر على يدي، وفي ما فعلت ذلك، أحسست بشيء من الارتياح. بدا أنه يصح الآن، أن أُقدِّم للبعوض وليمة، ألا أفعل شيئًا لتجنبه. قلت:

- سلّمي على بول.

ولوَّحتُ بإشارة فرح باتجاه بترا مباشرة. صوَّبت بدقة. قلت:

- أخبريه أني آمل أنه يشعر براحة أكبر الآن.

هل لاحت نظرة ذعر في ابتسامتها؟ أم أنني أتذكرها بتلك الطريقة الآن فقط؟

- طبعًا! بالتأكيد! إنه يحييك أيضًا!

لكن، عندما استدرت لأرحل، أوقفتني بترا. سارت بضع خطوات غير منتظمة إلى الأمام، بل كادت تتعثر بشريط جزمتها. لَمَسَت كتفي وقالت:

- هيي، ليندا، هناك أمر آخر.

انتظرت أن تقول ما هو. كانت قريبة جدًّا مني، تمضغ شفتيها، متعرّقَةً قليلًا.

- إنه دريك.

أزاحت بعوضة عن عينها، وكشحت أخرى عن رقبتها.

- هل رأيته؟

قلت:

- كلا.

9

بعد أقل من أسبوع، ابتدأت العطلة المدرسية. توفَّرت أربعة أيام طويلة لمشاهدة أفلام الحرب أولًا - «مجد»، «دكتور زيفاغو»، «ماش» - فيما انكب المدرسون على الجانب المظلم من الدراسة، وشرعوا في حساب الدرجات. استمر مقعد ليلي خاليًا. صادر مجلس الطلبة كل الأشياء غير المستعادة في ركن المفقودات، وتبرع بها إلى الأعمال الخيريَّة. نُظّفَ ملعب كرة القدم من براز الإوز استعدادًا لحفل التخرُّج، وتجرَّدت لوحات الإعلانات لتظهر دبابيس التثبيت والحفر المتناهية الصغر على الفلين. ابتدأ اليوم الأخير للمدرسة بأن جذب شخص ما جهاز الإنذار من الحرائق، فخرجنا إلى موقف السيَّارات، ووقفنا عشر دقائق على الإسمنت الموحل، ثم عدنا بتثاقل إلى الداخل. وعندما قرع الجرس الأخير بعد الظهر، قذف الطلبة القدامى دفاترهم من النوافذ المفتوحة في الطابق الأول. أمكننا سماعهم يدفعون كراسيهم إلى الخلف، مصدرة زعيقًا مكتومًا. هرع الجميع إلى ترك حصة علوم الحياة، للانضمام إليهم، لاعبو الهوكي من الطلبة الذاهبين إلى الجامعة وفتيات الـ«كورِن»؛ لكني بقيت ساكنة في مقعدي أنظر إلى كل تلك الأوراق المتساقطة في الخارج. كانت تسقط ببطء مفاجئ، فأمكن رؤية نصوص فيها. كان بإمكانك رؤية الامتحانات والاختبارات والملاحظات والرسوم البيانيَّة. بإمكانك رؤية سنوات من الدراسة تنجرُ في الهواء لتسقط إلى الأسفل، تحوّم فوق السيَّارات في الموقف وعبر الشارع الرئيسي، لتهبط على المجاري، وتعَلَّق على الأسيجة.

عندما وقفت، لم يكن باقيًا سوى الآنسة «لوندغِرن» تعيد شريط فيديو لفيلم «بروجِكت إكس» إلى البداية، في الجهاز. قالت وهي جاثمة أمام التلفزيون:

- ليكن صيفك سعيدًا.

قلت لها:

- تقنيًّا، لا يبدأ الصيف إلا بعد أسبوعين.

حدَّقت فيَّ، وقالت موافقة:

- إذًا، ليكن ربيعك سعيدًا.

بعد ذلك، انفتحت هوَّة فراغ الأيام. لا مدرسة، ولا عمل، فيما ضوء النهار يستمر ويستمر، كأنه لن يغادر أبدًا. نظَّفت تمامًا سمكتي كراكي، وتجوَّلت في مساحة واسعة من الغابة الشماليَّة، ثم سعيت بتردد إلى عمل المزيد في القارب، وتمكنت من التقاط سمك «الكرابي» عند «سد القندس». ملأت شبكة الكلمات المتقاطعة بصورة مباشرة من دون محاولات، نظَّمت حبال الأشرعة ذات صباح، وأخذت مشطًا وذهبت إلى الكلاب كي أسوي أغطية صُنِعَت من معاطفها الشتويَّة. وذات ظهيرة، مشيت خمسة أميال إلى البلدة، واشتريت معجون أسنان وورق تواليت من مخزن البقالة. زوَّدتني أمي بلفة أربطة مطاطيَّة مخصصة لتلك الغاية، وبعدها ذهبت إلى البنك وملأت ورقتين زهريتي اللون، وسحبت ورقتين من فئة عشرين دولارًا. سألتني امرأة عند شباك البنك إذا كان ذلك ما أردته، فأجبتها بالإيجاب. في السوق، أنفقت متباهية على شراء كيس من الإجَّاص الأخضر الصلب لأمي (أخبرتني أن أجلب النوع المكتوب عليه «أرجنتينا»)، ومرطبان زبدة الفستق من نوع «سكيبي» لأبي. ثم ذهبت إلى دكان الطُعْم والبكرة الذي يملكه «بوب»، وانتقيت من صناديقه شِراكًا لامعة للأسماك، ثم أعدتها، وخرجت دون أن أشتري أي شيء. توقَّفت خارج المحل تحت الشمس. وبعد برهة طويلة، دفعت باب المطعم، واشتريت علبة من علكة «بابل بيوم» من النادلة «سانتا آنا»، قبل أن أطلب منحي سيجارة. حشوت العلكة في فمي، وشرعت في العودة إلى المنزل، وتابعت العلك إلى أن جُرِحَ فكِّي.

الغسق والمزيد منه. حينها، كانت النجوم تؤدي دورها الصيفي، و«مثلث الصيف» النجمي ينزاح شمالًا، وكذلك الحال مع «برج العقرب»، مع أشكال

من الكمّاشات والخطّافات الملتفَّة. بعد العشاء، كنت أحيانًا آخذ «الكانوي» إلى الخارج وأبقى حتى يحل الظلام، خصوصًا في الليالي المعتمة، بعد التاسعة عندما ينخفض الغسق أخيرًا إلى النصف، ثم يعاود الانقسام ثانية؛ مُلوّنًا السماء باللون البرتقالي، ثم الأزرق، فالأرجواني، فالبنفسجي. بدت الأيام كأنها ترفض ببساطة الانتهاء. انحنيت إلى أسفل القارب، مُصغيَة إلى تلاطم الماء على هيكله. أحيانًا، وفي نهاية المطاف، يضيء مصباح كهربائي في منزل آل «غاردنر». وكنت أرى بترا عبر النافذة، واقفة عند المنضدة، وليو يحيطها بذراعه، وليس أكثر من ذلك كثيرًا. مع عودة ليو، تذهب بترا إلى السرير أبكر من العادة. ولم يعد بول يمضي وقتًا طويلًا على الرصيف أو اللسان الخشبي، رغم وجود ما يكفي من الدفء للسباحة.

جرَّبت ذلك في إحدى الأمسيات بعد انطفاء الأنوار في منزل آل «غاردنر». حشوت قميصي «التي شيرت»، وبنطلون الجينز، وسروالي الداخلي؛ في القارب، ثم انزلقت إلى الماء بسرعة وكأنني ابتلِعْت. صعدت طحالب عفنة من قعر البحيرة، وتجمدت حول ساقي اليسرى. ركلت الماء مبتعدة عن الـ«كانوي»، وطفوت على ظهري؛ فيما أشارت حلمتاي الصغيرتان الصلبتان صوب «برج العقرب»، فردَّ «العقرب» الإشارة إليَّ. كان لوني أبيض لامعًا بعد ستة أشهر من الشتاء: ذقني وحلمتاي وصابونتا ركبتي، كلها طفت فوق الماء. بعد برهة، برز القمر من تحت غيمة، ونشر ذيلًا من ضوء عبر البحيرة. لم يكن عسيرًا على من يُطِلُّ من إحدى نوافذ المنزل أن يراني. كنت هناك تمامًا كي أُرى.

انزلقَت الكثافة اللزجة للماء تحتي. كم مرت أصياف وسنوات وأنا أستلقي على تلك البحيرة؟ أحسست تمامًا بالآثار التي صنعها جسمي على سطح الماء، رسم لفتاة نحيلة، وبعد أن ارتفعت لبرهة فوق السطح أخذت نفسًا عميقًا، ثم غُصت.

تحركت عبر أعمدة ماءٍ أكثر برودة وأشد دفئًا، وركلت بقوة، وتحسست بيدي الوحل الحريري البارد في قعر البحيرة. فكرت ثانية بالسيد غريرسون

في المطعم. في لحظة استطعت أن أرى ليلي معه، ثم لا أراها في اللحظة التالية. أستطيع أن أرى المؤخرة السوداء لرأسها فوق طاولة «الفينيل»، والسيد غريرسون ينظر إليها عبرها. لكن بعد ذلك، يحضر السيد غريرسون وحده مع كتابه، مع منديله الورقي والبيض. خارج نوافذ المطعم، تساقط الثلج. كانت أضواء الفلورسنت تومض، فيما تقرقر ماكينة القهوة. في قعر البحيرة، يغدو الماء أشد برودة، وأُجلِس ليلي إلى تلك الطاولة، وأجعل غريرسون يتوسل إليها. **لا تخبري أحدًا، لا تخبري أحدًا.** أحسست بارتعاش فقاعات الماء التي صنعتها، تتجمع كالخنافس حول يديَّ ورجليَّ. أحس بها تصعد من جذور شعري. بعدها، عقب لحظة مظلمة، يتبعها جسدي.

ارتديت ملابسي في «الكانوي»، بأسنان مصطكة. جذَّفت عبر البحيرة، غسلت الوحل عن قدمي بدفقة من ماء البئر، وصعدت إلى العليَّة فوق غرفة نوم والديّ، واستمنيت بطريقة مزرية، وعلق شعر من عانتي بين أصابعي. ثم نمت عميقًا بعد ذلك. عند الصباح، عاد النظام إلى الغابة. صنعت الشمس الطالعة ظلالًا متوقعة، طويلة ومستقيمة كالألواح. كل ما يذكر بالليلة الماضية هو رطوبة تحت ضفيرتي، ونثرة صغيرة من الطحالب على فخذيَ.

تعرفون كيف يمضي الصيف. تتشوق إليه ثم تتشوق إليه، لكن هنالك دومًا خطبًا ما. فحيثما تنظر، هنالك حشرات تتكاثف في الهواء، وطيور تضرب الأشجار، وأوراق ضخمة ثقيلة تجر الأغصان نزولًا. تريد أن تعيق الأشياء، تخرّبها، تحطّمها. تغدو فترات الظهيرة طويلة جدًّا وسمينة جدًّا. تريد أن تعرف إن كان ما تفعله له أهمية.

في أحد الأيام، ربما بعد أسبوعين من العطلة المدرسية، ذهبت لتفقد «توت يونيو» في ممر البحيرة، كي أعرف متى يكون جاهزًا للقطاف. أردت أن أحصل عليه قبل الناس الذين يأتون في الصيف، قبل أن تتعرَّى الشجيرات على

يد أنصاف البلهاء من هواة الرحلات. قضيت نصف ساعة في المشي من دون العثور على توت بحال جيد، عندما سمعت صوت محرك آتيًا عبر الممر القديم الواصل إلى منصة القوارب على شاطئ البحيرة. ثمة ضجيج طويل ومتوتر بين الأشجار. توقفت وانتظرت كي أصرخ بوجه ذلك الشخص الذي خرج عن الطريق، وأقلق البريَّة. لكنه لم يكن سائحًا. بل كان أبي هو من أطلَّ في غمامة من غبار وأوراق. كان يقود دراجة ذات ثلاث عجلات قايضها بزلاجة ثلج في الربيع الماضي، ورفع يدًا بقفاز برتقالي عند اقترابه. حيَّاني. كان يرتدي قميصًا، ووجهه أحمر زاهٍ. تجمع العرق في خطوط متسخة حول رقبته. قال:

- هاااي، يا صبية.

وخفف الضغط على دوَّاسة الوقود. هممت بالرد عليه. وصعدت.

في ذلك الصيف، كانت تلك المركبة تتعطَّل نصف الوقت، وتعمل نصفه الآخر، ولعشر دقائق في تلك الظهيرة، جلست خلفه على مقعد جلدي صلب، وطُفنا مخلفين أثرًا متناميًا، مدمرين كل ما لمسناه - إذ حطَّمنا نباتات السرخس وأعواد الأُقحوان الذهبية، وبواكير الصنوبر البيضاء، وسُعف السُمَّاق - وكان ذلك أمرًا بائسًا، لكنه شهيٌّ أيضًا.

في الظهيرة التالية، بعد إعادة ملء ثلاجة الأسماك، وتقطيع وتخزين كل ما أطاحت به رياح الربيع، قررت أن أخرج بالكلاب في نزهة في الغابة. فطيلة شهور، كنت مشغولة في فترة ما بعد المدرسة؛ لذا مضى وقت طويل لم أذهب معها إلى مسافات بعيدة.

جرى الكلبان «جاسبر» و«دكتور» سريعًا في المقدمة، منقضَّين على كل ورقة مهتزة ونبتة سرخس. كان «آيب» و«كوايت» - كلاهما في مثل عمري - أبطأ وأكثر انتقائية في صيدهما. صعدت بالكلاب الوادي الذي اصطحبت بول إليه طوال الربيع، وتواثب الكلبان الأصغر سنًّا على الجذوع والصخور. وتقافز الكلبان الأكبر سنًّا من وقت لآخر. تلبَّثت عند القمة، وتأملت ما حولي. كل ما

حولي كان كلابًا تتدحرج وتتشمم، تقعي وتبول، وتأكل الطرائد. ولَّدت سعادتها بانعتاقها من أغلالها غصة في صدري. كان إسعادها أمرًا بسيطًا للغاية.

لكن، في بداية الصيف، فحتى الكلبان الأكبر سنًا كانا يتصرفان بطريقة غير متوقعة. فبعد أن مشينا مدة ساعة، صارت الكلاب تختفي في الغابة لفترات أطول ثم أطول. تطارد رائحة ما، وتعود للحصول على تربيتة، ثم تذهب إلى الأبعد، وتتحمل المخاطر. وقبل مضي وقت طويل، حتى «آيب»، الكلب العجوز الرمادي الخطم، عثر على سنجاب أرغمه على اللجوء إلى شجرة. ولأوقات طويلة، لم أسمع سوى صوت الصراع مع الأوراق. مرَّة تلو المرَّة، فكرت أن أصرخ عليها، وأدعوها للعودة. ومرَّة تلو المرَّة، كانت تعود في مجموعات ثنائية وثلاثيَّة، ألسنتها متدلية، تكشط أنوفها الرطبة على مفاصل يدي.

في إحدى المرَّات، غابت أكثر من خمس دقائق. كان ذلك وقتًا كافيًا كي تعود الغابة إلى حال ما قبل حضور الكلاب، قبل أن تعود الطيور لتحط مجددًا على الأغصان. ثم عادت الكلاب الأربعة مزمجرة دفعة واحدة كأنها خطَّطت لذلك، كأنها نظَّمت أخيرًا مجموعة ذئبية، واستطعت أن أراها تطارد شيئًا صغيرًا أبيض. قفز ذلك المخلوق على شجرة بتولا مغزلية، فانحنت عند منتصفها، وتساقطت أوراقها الفضيَّة مصدرة صوتًا بات - بات - بات.

قلت:

- آوه، يا دريك.

هَرْهَر القط المنتصب في موقعه على الغصن.

- إذًا، كيف حال العالم معك؟

بدا العالم مجنونًا في الأسفل، مع أربعة كلاب تتقافز وتخدش. أسكتها بكلمات قليلة منتقاة. لم يكن لي سوى أن أصعد على صخرة قرب الشجرة لاستعادة القط.

تقوَّسَ حين مددت يدي لأمسكه، لكن حينها انغرست عشرون مخلبًا، كأنها عشرون خطَّافًا، في عنقي وكتفي. لم يكن من بأس في أن يُمسَك بي على ذلك

النحو. وضعت يدي حول صدر دريك الهزيل، ونزلت من الصخرة، وابتدأت في المشي. مشت الكلاب إثرنا. صنعت دوائر من النشوة، ونبحَت بطريقة بائسة، وأنجزت مدارات فرح لانهائيَّة.

لذا، عندما قرعت جرس منزل آل «غاردنر»، كنَّا جميعًا هناك. أربعة كلاب لاهثة، قط مذعور، بترا مصدومة قليلًا، وأنا: أحاول الامتناع عن الضحك. قلت:

- عثرت عليه.

استدرت، وأحكمت ذراعي حول دريك، وأنزلت يدي الأخرى صوب الكلاب. تمددت كلّها على الحصى، بتردد، لكنها باتت سعيدة الآن، لأنها ظنَّت أن ذلك يعني أن القط صار لها. قلت: «اهدئي»، وشعرت كأني نوع من نصف إله، معبودة نوعًا ما من الكلاب. أردت أن ترى بترا ذلك، مقدار السيطرة التي أملكها. ثم تجاوزتها منزلقة إلى الداخل، مع القط.

10

كان داخل الكوخ أكثر ظلمة من المعتاد. أوراق الصيف في ذروة ألقها، وقد ألقت بظلالها على النوافذ الغربية كلها. ورغم أن الوقت كان منتصف ما بعد الظهيرة، فلم تسقط في الغرفة الرئيسية حزمة من ضوء الشمس المباشر، لذا استغرقني الأمر هنيهة كي أرى ليو يجلس في كرسي مريح في الزاوية، وبعد هنيهة أخرى لأرى بول هناك أيضًا، في حضنه. كان ذقن ليو مستندًا إلى رأس بول، وبول ملتف في دثار، وشعره الأشقر- البرتقالي مفروق فوق عينيه. ثمة شيء في الخصلتين اللتين تشبهان حرف (V) فقد صنعتا مظهرًا طفوليًا فائضًا لـبول. هل كان دومًا صغيرًا جدًّا؟ وإذ تقوقع في الدثار في حضن أبيه بدا أنه تجاوز بالكاد عهد الرضاعة، بالكاد عهد كونه طفلًا.

تحرَّكَت بترا خلفي، مغلقةً الباب. وعندها، صارع دريك ليتحرَّر من ذراعي. لم يقلْ أحد شيئًا عندما زحف القط وأذناه إلى الوراء، حول الأريكة، ثم تمدد واختفى تحتها. ومع اختفاء دريك، وإقفال الباب، سقطت الغرفة في الصمت. كان ذلك ليو، أستطيع قول ذلك. كان ذلك تأثيره. قال:

- حسنًا، شكرًا لك، ليندا.

وقالت بترا من الخلف:

- ذلك أمر مريح، أليس كذلك يا حبيبي؟

وقالت لي:

- إنه مريح كثيرًا.

لم تكن تهمس بالضبط. ما كان سوى أنها تتحدث بحذر. كانت ترتدي ما ارتدته حين رأيتها للمرة الأخيرة، سترتها الجامعية وبنطالًا ضيقًا، في إحدى

يديها قطعة تفاح مائلة للبني، وضعتها برفق شديد في سلة المهملات، كأنها وجدت عشًّا لها. قالت:

- أتريدين كوب ماء، ليندا؟ شيئًا من العصير؟

من شرنقته بين الأغطية، ردَّد بول:

- شيئًا من العصير؟

نظرت إليه ثانية، قلت:

- هل هو مريض؟

عرفت توًّا أنه ليس من حقي طرح ذلك السؤال. من مقعده، عبس ليو في وجهي كأني قلت شيئًا فظًّا أو غبيًّا. عبس بول أيضًا كأنما استحِثَّ على التقليد حتى من دون رؤية وجه والده. لم يكن هناك شبه بينهما حقًّا. بول مستدير الوجه وأشقر الشعر كـبترا. وليو رائد فضاء نحيل بشعر رمادي وحواجب كثَّة. جعله شاربه الكثيف يبدو كرجل من قرن آخر. ارتدى نظَّارة انزلقت إلى طرف أنفه فبدا رغم جلوسه، كأنه يحدق من عش طائر. ارتدى نعلين أسودين، وطوى كل رجل من بنطلونه الكاكي إلى الأعلى طيَّة واحدة.

وضعت بترا يدها على ذراعي، وهي حركة ربما تعني تحذيرًا صديقًا. قالت:

- بول بصحة جيدة.

أحنى ليو رأسه موافقًا. قالت بترا:

- في الحقيقة، لديه عرض ليشاهده. أليس كذلك، يا صغيري؟

مرَّة أخرى، برزت تلك التسمية، مع رنينها الغريب المحمَّل بإحساس الإنجاز. لكن، قبل أن أتمكن من التساؤل عن ذلك بصوت عالٍ، كان بول قد سحب ذراعًا من تحت الدثار، ولوَّح بها صوبي. ذراعه مندسة إلى المرفق بالقفاز الجلدي الذي حرَّكه كأنه دمية. قال:

- غدًا، سنذهب لرؤية السفن الطويلة.

سألت بحيرة:

- السفن الطويلة؟

سألت بترا:

- أتعرفين تلك القوراب القديمة ذات الأشرعة؟

أضاف ليو:

- الاحتفال البحري السنوي في «دولوث»؟

تابعت بترا:

- فكرنا في القيام برحلة قصيرة. فالذهاب إلى «دولوث» سيكون أمرًا طيبًا. تغيير المكان، صحيح؟ هل ذهبت إلى هناك من قبل، ليندا؟

لم أذهب، لكن لم أرد الاعتراف بذلك:

- إلى «دولوث»؟

- من أجل رؤية كل تلك السفن؟

كان ذلك سؤالًا أسهل للإجابة:

- كلا.

لاحقًا، أثناء الاستعداد للمحاكمة، دأبوا على التساؤل عن سبب عدم طرحي مزيدًا من الأسئلة من البداية. ماذا كان انطباعك الأول عن الدكتور «ليونارد غاردنر»؟ كيف يمكنكِ وصف الزوجين كثنائي؟ ما هو بالضبط نوع الرعاية التي كانا يقدمانها؟ كان صعبًا شرح أنني لم أطرح أسئلة لأنهما كانا استثنائيين، بل لطيفين إلى حد يكاد لا يطاق. فعندما شرع بول في الكلام بكل تلك الحماسة عن السفن الطويلة، اقتربت بترا منه حاملة كوبًا فيه عصير بلون مائل للأصفر، وركعت قربه. وفي ثوانٍ قليلة، غَبَّ العصير غبًّا، وناولها الكوب. لكنها لم تنهض توًا، بل وضعت رأسها على حضنه المغطى بالدثار. ربَّت ليو على شعرها وكذلك فعل بول بيده المغطاة بالقفاز. شعرت بالخجل لأنني أرى ذلك المشهد، وفي الوقت نفسه لم أستطع إزاحة عيني عنهم. لم يسعني سوى الوقوف بصمت، متتبعة بنظري آثار خدوش القط الفظ على يديّ. أخيرًا، تمتم أحدهم بشيء ما، واحتضنت بترا بول وحملته إلى غرفة النوم. ذهبت إلى المطبخ، ووجدت إناء

في الحوض، فملأته إلى الحافة كي أسقي الكلاب منه. وأثناء فعلي ذلك، وقف ليو أيضًا. استطعت أن أسمع صوت طقطقة ركبتيه عبر الغرفة.

رغم ذلك، مشى بصمت. مشى على السجاد لابسًا خفَّين مبطنين.

لم يكن هناك من نافذة مفتوحة، رغم الحرارة والرطوبة القوية في ذلك الوقت من النهار. ثمة رائحة قويّة في المنزل لم ألاحظها الأسبوع السابق، عندما كنت فيه خلال المرة الأخيرة. لم تكن رائحة سيئة، بل خاصة وحميمة؛ فيها قليل من الحلاوة، ومملوءة بالأسرار الاستثنائيّة: فواكه ناضجة، براز القطط، منظِّف الغسيل، وربما نفحة ضئيلة من مجاري الحمَّام. شقَّ ليو طريقه إلى المطبخ، جلس إلى الطاولة، وطرح بضع أسئلة شاردة عن عائلتي. قلت، عندما سأل عن مساحة حديقتنا:

- قرابة عشرين فدَّانًا عبر الساحل الشرقي.

وعندما سأل عن عمل أبويّ، قلت متحوّطة:

- إنهما متقاعدان تقريبًا.

ومن دون بهجة، قال:

- كم هما محظوظان.

ثم حشر خصلة من شعره الرمادي خلف أذنه، كما تفعل الفتيات.

في المحاكمة، سألني محامي الادعاء إن كنت طرحت عليه أسئلة ردًّا عليه.

سألني محامي الادعاء لِم لَم أكن فضوليّة بشأنه؟

كنت ولم أكن. كان صعبًا شرح قوة عادتي في التظاهر بفهم ما يجري في حياة الآخرين، قبل أن يقدموا هم شروحًا عنها. كيف أني أفهم المعلومات بطريقة مختلفة، كيف راقبت بدقة ليو عندما سكب لنفسه كوبًا من عصير التفاح، وجعل يحركه دائريًّا من دون أن يأخذ رشفة منه. راقبته أثناء وضعه الكوب على مجلة، أثناء رفعه وعاء العصير الذي استعملته بترا ثم مسح بكمه رَشْح الماء الذي خلَّفَه. عرفت بسرعة أنه شخصٌ جدّي وصعب المراس، لم يكن عقله تلك المعجزة التي وصفتها بترا، لكنه كان منظَّمًا بشكل استثنائي. استطاع صنع

حديث صغير معي عن والديّ، وطرح سلسلة منطقية من الأسئلة، ولم يبدُ أنه يهضم أجوبتي. وأفضل من ذلك، بدا أنه يحفظ عن ظهر قلب نمط المحادثة، وإيقاع الحديث الصغير. وضعني في موقف دفاعي، من دون أن يظهر أنه مهتم جدًّا، بل دون أن يظهرْ هدفه الحقيقي.

- إذًا، لديك أخوة كثر؟
- لا أحد.
- لكن، هل أنت مغرمة بالأطفال؟
- حسنًا....

رفع حاجبيه، ومنحني تصحيحًا لإجابتي:

- بالطبع، بعض الشيء.

ثم ابتسم. وإذ فعل ذلك، تغيَّر شكل شاربه فامتد إلى وجهه.

- يقول بول إنك علمته كيف يأكل الجراد.
- آم م م م.
- يبدو أنه تعلَّق بك.

قلت:

- لقد تعوَّد عليَّ.
- أنت متواضعة.

هززت كتفي باستهانة.

- لم يكن لديه كثير من الخيارات فعليًّا. إنه صبي مميَّز إلى حد كبير.

حرك ليو كوب العصير دائريًّا:

- وتقول بترا إنكِ كنتِ عونًا كبيرًا لها أيضًا. قالت إنها لا تتخيَّل ماذا كانت لتفعل...

انتظرت أن يكمل تلك الفكرة، لكنه في نهاية الأمر، أخذ يشرب العصير، مبتلعًا إياه في رشفات منضبطة. وفيما تحرَّك حلقه، بدا أنه يدير أمرًا ما في رأسه. ثم وضع كوبه:

- «ما رأيك بهذا؟»، سألني، «لم لا تأتين معنا إلى «دولوث» في عطلة نهاية الأسبوع؟ سيكون أمرًا جيدًا لـبول، بل ربما أعطاني أنا وبترا فرصة لتناول العشاء. أعتقد أنها بحاجة إلى قليل من الراحة. ما رأيك؟»

عندما ملأت وعاء الحساء بالماء للكلاب لم يكن أيٌّ منها ينتظرني على الطريق الجانبي، ولا حتى «آيب». لقد مضى على وجودي في الداخل أكثر من عشرين دقيقة. لست متأكِّدة ما الذي جعلني أفكر أن الكلاب ستنتظر. وضعت الوعاء على عتبة المدخل كي تجده بترا، واتجهت صوب الممر على الشاطئ. لم أكترث حتى لمجرد العودة وإلقاء تحية الوداع. لقد أنجزت ترتيبات مع ليو بشأن الصباح التالي، فالعودة إلى منزلي تستلزم ساعة مشيًا. وحتى في الظلال الكثيفة لأشجار الصنوبر، كان اليوم حارًا، لذا عندما وصلت كان باستطاعتي أن أحس بالعرق على رقبتي، وببقع رطبة على قميصي تحت إبطيّ. برزت أمي من المنزل مرتدية ثوبًا متَّسِخًا ببقع سود. تثنَّت طية من الجلد الطري عند مرفقها، قالت:

- أوه، جاءت «مادلين»! أوه، لقد قرَّرت العودة!

سألت:

- أهي هنا؟

لكن، كان بوسعي رؤية الكلاب بنفسي، مربوطة في سلاسلها في الظل. وعند اقترابي، كانت تقف متصلبة. اهتزَّت أربعة ذيول كثة الفراء، بسرعة متجهة إلى الأسفل.

حدَّقت بي بعينين ضيِّقتين، وحررت مرفقها:

- «تعرفين كيف يكون زحام المواصلات في 10 يونيو، ألا تعرفين ذلك؟»، «لحسن الحظ، لم يُصَبْ أيٌّ منها. ماذا حصل حتى فقدت السيطرة عليها كلها دفعة واحدة؟»

أوشكت أن أخبرها عن دريك - عن إنقاذ القط وإعادته سالمًا - لكن، عندما فتحت فمي خرج شيء آخر منه:

- كنت أحظى بشيء من المغامرة، يا أمي.

راقبت عينيها البنيتين تحدِّقان بي وتضيقان:

- لم يكن ذلك سوى جزء منها فعليًا، لكنه الجزء الممل بين لحظتين مثيرتين يكون أن تتبادل الفتاة الحوار المتوقع نفسه مع أمها.

جلست على الأرض، وداعبت رقبة «آيب» بخشونة. أصغيت إلى أمي تعود إلى الداخل - صفقة واحدة من غطاء قماش القنب عند المدخل - واجتاحني إحساس بالذنب، ثم ابتعد ذلك الإحساس، كأنه طير جارح يسوِّد وجه الشمس للحظة. بعدها، كنت غاضبة من الكلاب، التي كانت تحس أنها في حال أفضل.

أمكنني رؤية قوائمها مملتئة باللدغات والأشواك. جفَّت مقدمات معاطفها، مع نتوءات من الوحل. قلت لها:

- أصبحت متوحشة.

وكان ذلك ما أحسست به فعليًا.

في تلك الليلة، انتظرت إلى ما بعد انتهائي من تجفيف الأطباق قبل أن أخبر أمي أنني سأذهب مع عائلة بترا عبر البحيرة إلى «دولوث»، في عطلة نهاية الأسبوع. قالت، مع نظرة لم أستطع فهمها:

- قولي ذلك لوالدك.

لذا، ذهبت إلى الزريبة بعد انتهائي من غسل الأطباق، وجلست ساعة مع أبي مُصْغيين إلى لعبة كرة نقلها الراديو. كانت مواجهة بين فريقي «توينز» و«رويالز». وأثناء جلوسنا على دلاء مقلوبة، شرب أبي ثلاث علب من بيرة «بود»، بطريقة ممنهجة، مع قياس كل جرعة، كي تدوم إلى نهاية الأشواط. ثم ضرب العلب فوق المنضدة الواحدة تلو الأخرى، فيما وصف المذيع الطقس في «كانساس سيتي»، وموجات الحرارة التي أعقبتها عاصفة رعدية ضربت بقوة إلى حد أنهم كادوا يلغون المباراة. كادوا، لكنهم لم يفعلوا.

أخبرت أبي عن الذهاب إلى «دولوث» لحظة نهوضه واقفًا.

أحنى رأسه، وأقفل الراديو، ثم استخرج من المثلّجَة علبة أخرى من البيرة كان الماء يقطر منها. كأنه يعيد النظر في توقعاته بالنسبة للمساء، كأنه كان يغيِّر رأيه في أمر ما:

- تلك العاصفة ستتجه شرقًا ليلة الغد.
- أعرف ذلك.
- أفكر أنه ربما حصلنا على بعض من سمك «وول آي» في منطقة «غوزنيك» غدًا.
- أعرف ذلك.
- عما قريب، سيستولي على المكان أولئك القادمون من خارج البلدة.
- أعرف ذلك.
- رغم ذلك، من المؤكد أن بحيرة «سوبيريور» ستكون جميلة أثناء العاصفة. أتعرفين ذلك؟

إطلاقًا.

عند العاشرة من صبيحة اليوم التالي، جاؤوا ليأخذوني. فكرت لوقت طويل في الليلة السابقة بما يجب أن آخذه معي، وأخرجت حذائي التنس الآخر، وقلّبت حقيبة، كانت تستعملها أمي مخزنًا للأشياء المستعملة، مفكرة بما يمكن أن أرتديه لباسًا للنوم، إضافة إلى «تي شيرت» قديم. عثرت على قميص داخلي بلون أزرق خفيف وجدته أمي بين مخلَّفات، ورغم أنه عتيق ومجعَّد وكبير جدًّا عند الصدر، فكرت أنه ربما يصلح كـ«بيجاما». أخذت فرشاة أسناني ومشطي، ومباشرة قبل النوم - بماء حصلت عليه في الظلام من مضخة البئر - حاولت أن أحلق مستخدمة شفرة أبي. كان الشعر على رجلي طويلًا وناعمًا، وتحسست أصابعي الخط الأول الذي انزاح الشعر عنه، فبدا سحريًّا، خطًّا من الجلد المحلوق يشبه شريطًا من الحرير يمتد من الكاحل إلى الفخذ. كدت أنتهي من

حلاقة أول رِجْل عندما تنبَّهت إلى وجود دم من جرح لم أره أو أحس به، في الظلام. استطعت معرفة أنه دم من لزوجة انزلاقه بين أصابعي، ومن رائحته. نفرت تمامًا من إتمام حلاقة الرِجْل الثانية. وبدلًا من ذلك، غسلت شعري وأنا أرتجف، واستعملت بقايا الشامبو مع قليل من سائل للجلي برائحة الليمون. غسلت حلقات الوحل عن كعوب أحذية التنس، ووضعتها خارج المنزل كي تجف. تبوّلت في حفرة في أرضية من ألواح خشب مقوًى، وأغلقت الباب على الذباب. عصرت حبل الشعر الرطب المعلق على صدري.

عندما جلست على المقعد الخلفي لـ«الهوندا» الزرقاء في صباح اليوم التالي، كان بول نائمًا في كرسيه في السيارة. وفيما عمل ليو على الاستدارة بالسيارة إلى الاتجاه المعاكس، استدارت بترا على نفسها في المقعد الأمامي وهمست:

- صباح الخير!

ناولتني فطيرة نخالة مازالت دافئة، سقطت فتافيت منها عندما نزعت غلاف كوبها من الورق الشمعي. ثم أضافت:

- م م م م م. رائحتك جميلة.

كان فمي ممتلئًا بالفطيرة فعليًا. القضمات الرطبة تملأ كل فراغ بين لساني وأسناني، كل مساحة متاحة. ضحكت بترا:

- حسنًا. كليها. لا يحب ليو أبدًا التوقف. سيقود مباشرة عبر الأشياء كلِّها. أعاصير، فيضانات. فطور وغداء.
- سأتوقف! عندما نصل هناك. فقط قولي أين هو الـ«هناك»، وسأتوقف.
- إذًا، «هناك» غداء. «هناك» هو وقت قبل الثانية بعد الظهر.
- إذًا، ذلك هو مكان الـ«هناك». اتفقنا.

عندما وصلنا إلى الطريق السريع، اختفت النقاط المألوفة كلها خلال دقائق. رأيت البحيرة في ومضات عبر الأشجار، مشاهد من الأزرق الرمادي عبر

شقوق من الأخضر. في «لوس ريفر»، اجتزنا بالسيارة المدرسة الثانوية بالضبط عندما سطعت الشمس فوق أطول الأشجار على حافة الطريق، فصار كل سطح يبدو كسكين ضوء مسطح. توهَّجَت النوافذ وإشارات المرور كلما تجاوزناها. ارتدى ليو وبترا كلاهما نظارات شمس سوداء، لكني حدَّقت بعينين ضيِّقِتين، وكنت مشوشة ومستثارة. ثم وصلنا إلى الطريق الذي يربط بين الولايات، ووصلت سرعتنا إلى سبعين ميلًا في الساعة، وكان ليو وبترا يتحدثان بهدوء عن شيء ما لم أستطع سماعه بوضوح. أردت إنزال زجاج النافذة كي أحس بالسرعة، لكني أحجمت.

في وقت متأخر من الصباح، استيقظ بول وتمطّى بتكاسل. أعطيته إحدى فطائر بترا، فوضعها بين ركبتيه ولم يأكلها. كان اللون الزهري ينسحب عن عينيه بتباطؤ. سأل:

- هل وصلنا هناك؟

قلت:

- همممممم.

في الخارج، كانت غابة الصنوبر تنفتح مُظهِرَة أيكات الحور وحقول العشب تنقِّطها رزمات ضخمة من القش. بنصف اهتمام، أديت وبول لعبة «ورقة، صخرة، مقص». مارسنا لعبة «أُبصِر بعينيّ الصغيرتين».

عند نقطة معينة، قلت:

- أبصر برج ماء زهري اللون.

فلوى بول رقبته كي يرى ما هو خارج نافذته. لاحت في وجهه الشاحب نظرة غائرة، وقال شاكيًا:

- لا أراه.

ووضع رأسه على النافذة. قلت:

- لنمارس لعبة «أبصر بالذهن».

- موافق.

أغلق عينيه، وأبصر برجه المائي الزهري الخاص. أبصر قطاره المخصص لنقل خام الحديد، وكوكب المريخ. بعد ذلك، حل صمت طويل وغير مفهوم - فيما عبثت بترا بجهاز التهوية في السيارة، وقاد ليو السيارة تحت مطر عابر - وفي مكان ما بعد مرورنا بآخر مزرعة، خطر لي أن بول غطَّ في النوم ثانية. لم أستطع لومه. كانت السيارة دافئة وتصدر صوتًا رتيبًا. بهدوء، أكلت فطيرة بول وراقبت عودة ظهور أشجار الصنوبر، إذ ارتفعت على جانب الطريق في ممر أخضر طويل.

صادفنا ورشة بناء ضخمة خارج «دولوث». وبعد ساعة من الدخول في زحام المواصلات والغبار، والنوافذ مفتوحة، خرج ليو من الطريق السريع لتناول الغداء. قال لـبترا:

- أرأيت؟ أنا أتوقف.

أكلنا في واحد من سلسلة مطاعم «دِنيز». وهناك فتحت دفتر لائحة الطعام ذي الصفحات الضخمة اللامعة، وطلبت - بعد مداولات طويلة - طبق حساء. كنت متوترة بشأن المضغ، وتقطيع طعامي بالشوكة والسكين. جلس ليو وبترا على الجانب نفسه من الطاولة، وجلست مع بول على الجانب الآخر. قهقهت بترا حين وصل حساء البصل الفرنسي، موضوعًا في طبق من خبز، بمثل حجم رأسي. وبحذر، حركت قطعة كبيرة من الجبن طفت على المرق البني. في المطعم كله، كانت عائلات تجلس مثلنا على طاولات يجلس الأبوان في جانب منها، والابنان في الآخر. شرب بول كأسًا من الحليب بجرعات كبيرة، لذا طلبت بترا كأسًا آخر، وهزت رأسها ضاحكة من صراعي مع حسائي. سألتها، حين مدَّت يدها أخيرًا ونزعت خيطًا من الجبن امتد من فمي إلى طبقي:

- أتريدين قضمة؟

لوت أنفها مُجَمعة النمش كله في بقعة بنية واحدة:

- من يقدر أن يأكل ذلك من دون أن يبدو كفرخ طائر أو ما يشبه ذلك؟

- فرخ طائر؟

ابتسمت:

- فرخ يمتص الديدان.

كان ليو أكثر تركيزًا في أكله، وعمل على قضم سندويش لحم الخنزير المجفف مع البندورة والخس، بفمه في قطع مضبوطة. لكن، بمجرد انتهائه، التفتَ إلي ماسحًا شاربه بمنديل مطوي، وخلال ثلاث دقائق طرح عليَّ أسئلة تفوق ما سألته بترا خلال ثلاثة أشهر. تركت حسائي يبرد أثناء كلامه. لحست الملعقة المالحة، لكني لم أحاول نيل قضمة أخرى من الجبن. فجأة، بدا الوضع مخادعًا جدًّا.

- في أي صف كنت، ليندا؟

قلت، إذ بدا سؤاله تأنيبًا على طريقتي في أكل الحساء، على صبيانيتي:

- العاشر.

أزاح ليو طبقه إلى حافة الطاولة.

- ما الكلية التي تفكرين في الالتحاق بها؟

- كلية؟

عقد ذراعيه على بعضهما فوق الطاولة.

- أو الموضوع الذي ترغبين في دراسته أكثر من سواه؟

لم أستطع في تلك اللحظة التفكير في شيء آخر، إذ قلت:

- التاريخ.

- آه. التاريخ الأميركي أو الأوروبي؟ ما الحقبة التاريخية التي تستهويك؟

قلت:

- تاريخ الذئاب.

في اللحظة التي نطقت فيها، بدت الإجابة غبية. رشفت نقطة ضئيلة من المرق من ملعقتي.

- تقصدين التاريخ الطبيعي؟

- نعم.

- إذًا، البيولوجيا عمليًا.

- البيولوجيا، على ما أظن.

بسط مرفقيه على الطاولة، ملامسًا طبقه الفارغ:

- توجَّب عليَّ أخذ مساقات في البيولوجيا الجزيئيَّة (الجينات) في الكلية التي تخرجت فيها. في مسار عملي، يبحث الجميع دومًا عن كائنات فضائيَّة، كأنما الكون بأسره لا يهم إلا إذا مُنِح ما يتطابق مع تعريف ضيّق للحياة يستند إلى الكربون[1].

قلت على سبيل التجربة:

- في منطقة «الجدائل الذهبية».

كنت أكرر ما أخبرني بول به، فيما كان بول قد ذهب إلى الحمام ممسكًا بيد بترا. وباندهاش، قال:

- صحيح.

عقد يديه فوق الطاولة، وكان بإمكانك رؤية أنه قص أظافره بخطوط مستقيمة. وتابع:

- لا أقول إن علماء البيولوجيا الجزيئيَّة **مخطئون**. لكن، أنا عالِم أيضًا، وأعتقد أن أولئك القوم يدققون في مجموعة ضيقة من الأسئلة.

كان يمتلك طريقة في النظر إليَّ كأنه لا ينظر كليًّا. كان مدرِّسًا بالطبع، وربما مدرِّسًا جيِّدًا. واحد من المدرِّسين الذين ينصبون أفخاخًا خفية. ككل المدرسين، كان راغبًا في الإيقاع بي، لكن رغب أن يقودني إلى هناك أولًا؛ أراد مني أن أمضي على رسلي، وأن أُحس بأنني توصلت إلى الاكتشاف بنفسي، وأني لم أستدرج إلى ذلك.

---

(1) علميًّا، يطلق تعبير «تعريف الحياة المستند إلى الكربون» في وصف الأشكال الحية كلها على الأرض، باعتبارها تتشارك بنية بيولوجية أساسية في خلاياها، يؤدي الكربون دورًا محوريًا فيها، على غرار تركيبة «الحمض النووي الوراثي» أو «دي آن إيه» DNA. (المترجم)

وضع ذقنه على راحة يده، قال:

- لنمارس تجربة فكرية.

انزلقت سترتي ذات القبعة عن حضني. حرَّكَ خاتم الزواج على إصبعه، قال:

- ينطلق العالِم من مقدمات لها برهان منطقي، صحيح؟ لكنهم في أحيان كثيرة ينطلقون من مقدمات ضعيفة المنطق، ثم يتوهون، كالقول إن العالم مسطح، أو إن الجسم البشري مصنوع من أربعة أخلاط.

أردت أن أمد يدي إلى جاكيتي، لكني قاومت ذلك.

- لكننا تعلمنا بالطبع أنه إذا رغبت أن تكون عالِمًا حقًا، عليك أن تدقق أكثر من ذلك. عليك أن تتخيَّل ما هي مقدماتك المنطقية أولًا، قبل أن تقرر ما هو الصحيح. دائمًا يبدأ عالِم البيولوجيا الجيد بأن يسأل مثلًا ما الشروط التي نفترض أنها مطلوبة للحياة؟ ولِم نفترض تلك الشروط، وليس غيرها؟

بدا كأن دوري جاء كي أتكلم. كان ينتظر.

- هل تعني...

- أعني أنه يجب أن تسألي نفسك من البداية، ما الذي تظنين أنك تعرفينه؟

عشرون فدانًا من الأرض على الجانب الشرقي من بحيرة «ستِل ليك». ذلك ما أعرفه. ذلك هو الشيء الوحيد الذي افترضت دومًا أني أفهمه. أعرف أشجار الصنوبر الحمر والبيض عند أعلى التلة، أشجار الحور المتمايلة وأشجار البتولا الأقرب إلى الشاطئ. أعرف شجيرات صريمة الجدي والسناجب، ومناظر غياب الشمس عند البحيرة، وهي لم تكن ذات قيمة في نهاية المطاف بالنسبة للمتعهدين. عندما اضطررت في النهاية أن أبيع قطعًا من تلك المساحة، نلت أقل من ستين ألف دولار، رغم أن السوق لم تكن سيئة. لم نحتفظ دومًا سوى

بعشرة أقدام من الرمل المغطى بالحصى كي نرسي قوارب «الكانوي». استحال المهجع العمومي القديم السابق الذي استخدمته تلك التشاركيَّة - تحت أشجار صنوبر منهارة قرب الطريق - إلى مجرد أخشاب. فعلى مدار سنوات، اعتاد أبي اختلاس الجيد من ألواح المهجع، كي يدعم الزريبة، ويسوّر الحديقة، ويصلح المرحاض الخارجي. على الأقل، كان الكوخ أكثر متانة من بقية المباني، بفضل أساساته الحجرية وجذوع الشجر العتيقة المقطوعة بعناية في عشرينات القرن العشرين. لدينا خلف الكوخ مرج مملوء بالصخور، يصبح في الصيف حديقة حقيقية، تنمو فيها ما زرعته أمي من الخس والبطاطا، مسوّرة بسياج من النوع المستعمل في أقنان الدجاج. لدينا غرفة للتجمير تستعمل لصنع أطعمة مدخَّنه، وبئر جيدة. لكن تلك الفدادين من الغابات هي ما أعرفه على أفضل وجه، وهي أشجار ضخمة بجذوع منقَّرَة، ولحاء صنوبر أحمر يخرج من سطوحها، ويتشقق الصنوبر الأبيض مع تقدمه في العمر، وتصبح الشقوق فجوات فاغرة. كان لدينا ست شجرات دردار مكتملة، وشجرة حور ضخمة من النوع القطني البذور، وسُمَّاق يغطي ممرات التلة، ويخترق الحديقة، ويتقوس فوق مجرى القاذورات، إلى أن طلبت منا سلطة المقاطعة أن نوسّع الطريق، فقطعنا معظمه.

كانت نوافذ غرفنا في فندق «دولوث» تطل على الخليج، ومشاهد الميناء وجسر رفع السفن؛ وارتفعت خلفنا تلال خضر. الجدران والسجاد في لون أبيض منتظم، وفي كل غرفة انتصبت مزهرية على منضدة من خشب مطلي، وفيها باقة من حرير أحمر. اتصلت غرفتانا عبر حمام بمرايا كثيرة، احتوى رصَّات من المناشف الناعمة كالزبدة، وقطع صابون مجمعة كقطع من الحلوى.

لم يكن لدي شيء لأوضّبَه. عوضًا عن ذلك، ارتفقت حاملة حقيبة الظهر إلى أحد الأسرة المرتفعة الناعمة، وراقبت ليو وبترا يتنقلان بين الغرف، ويفكّكان الحقائب بحثًا عن جوارب بول، وقبعته وأحجية الـ«باندا» خاصته. وفيما كانا يفعلان ذلك، انتقل نظري إلى كتاب على طاولة قرب السرير عنوانه «فيتز الكبير». إنه كتاب الفندق. وضعته في حضني، وبدأت في القراءة عن سفينة

محملة بخامات من معدن «تاكونايت» غرقت في عام 1975. لنصف ساعة، قلَّبت صفحات الكتاب الملساء، وطالعت صورًا للسفينة بالأبيض والأسود، وهي ترفَع بين الأمواج مع قوارب النجاة المتآكلة فيها، عند انتشالها بعد سنوات عدة. وعلى نحو خاص، أوليت اهتمامًا لرسم تفصيلي ضخم عن السفينة المحطمة، ظهرت فيه مقدمة السفينة في وضع عامودي كما أُديرت إلى الجانب البعيد عن مقود الدفة الذي كان مقلوبًا إلى الأسفل.

أُضيءَ مصباح؛ كانت فترة ما بعد الظهر معتمة. أمكنني سماع الموج في بحيرة «سوبيريور» يلعق الشاطئ في الخارج، وأغواني ذلك، فانسللت خارجَ السرير، وعبرت الغرفة لأصل إلى حيث كانت بترا تنقل زجاجات اللبن الرائب من حقيبتها- المبرِدة إلى الثلاجة الصغيرة. أقنعتها بأن تسمح لي بأخذ بول في تمشية، ووعدتها بالعودة قبل الخامسة والنصف. وإذ رأيتها تحدّق بقلق في الغيوم عبر النافذة، أكَّدت:

- الخامسة والربع.

أحنت رأسها بالموافقة:

- رغم ذلك، دعيني أُلبِسه سترته، دعيني أحكم ملابسه تحسُّبًا للمطر، وألبسه قبعته.

خلف موقف السيارات في الفندق، وجدت سلمًا خشبيًّا مضعضًا يقود نزولًا عبر المنحدر، إلى ضفة خالية. وعندما نزلت مع بول خطوة خطوة، أمكنني رؤية الأمواج تجر الحجارة دخولًا وخروجًا في خليج صغير. كانت النوارس معلقة في الهواء فوقنا. على الشاطئ، غطى رذاذ ماء البحيرة ظهور أكفّنا كلما ضربت موجة كبيرة الشاطئ. حاولت تعليم بول كيف يضرب الحجارة لتقفز على سطح الماء، لكنه كان يكتفي بمجرد إلقائها، فتغرق. قوَّست رسغي وأطلقت حجرًا قائلة:

- على هذا النحو.

راقبت الحجر يقفز على سطح الماء أربع مرات، خمسًا ثم ست مرات. بعيدًا، بعيدًا عن الشاطئ، كانت بحيرة «سوبيريور» تسبح في زرقة غامقة، بل

تكاد تكون سوداء عند خط الأفق. كان صعبًا رؤية الجانب الآخر من الشاطئ وهو المحاذي لولاية «ويسكونسن». كان أبي محقًّا. حلَّ الليل مبكرًا لأن رأس العاصفة يتقدم صوب الجنوب. هناك حجارة كثيرة تتدافع، ثم تتلوها هسهسة، أثناء انسحاب موجة بين الحصى الصغيرة واندفاع أخرى. أدخلَ بول يديه في كمَّي سترته، ورغم ذلك كان يرتجف. كان وجهه شاحبًا ورماديًّا، كلون الشبوط النهري. وحينها، خطر لي فيما الموج يتصاعد، أني لم أنظر إليه فعليًّا منذ الصباح. كان نائمًا في السيارة. وعندما استيقظ، تعامل معه ليو كنوع من الحيوانات المنزلية، إذ حمله، وتكلم من فوق رأسه، وناوله قطع «الليغو» ليلعب بها. انحنيت وسألته:

- هل كل شيء على ما يرام؟

كرّر:

- كل شيء على ما يرام.
- هل يتوجب أن نعود إلى الداخل؟

قال:

- يتوجب أن نعود إلى الداخل.

كان لنَفَسه على وجهي رائحة فواكه وحلوى.

* * *

عدنا إلى الداخل، وأعطتنا بترا وجبة عشاء. طلبت وجبتين من خدمة الغرف في الفندق؛ سندويشات جبنة مشوية، وحليبًا مخفوقًا مع شوكولاته، إضافة إلى قشَّات حمراء مثنية. احتوت كل واحدة من غرفتينا سريرين فارهين من نوع ملكي، لذا كان هناك ملعب كرة قدم بيننا، دزينة من الوسادات بلون أحمر كالدم، وأوعية عميقة فيها لفَّات من العلكة بطعم النعناع موضوعة على الطاولة الملاصقة للسرير. رشفت الحليب المخفوق وأنا في السرير، وشاهدت «قناة الطقس» على شاشة تلفزيونية ضخمة، بدت مقدمة العاصفة على الشاشة

الرقمية، متَّجهة صوب الجنوب. تمددت بترا على السرير المقابل، محتضنة بول بين ذراعيها. .في النهاية، جاء ليو من الغرفة الأخرى، ونقر بإصبع معوج على ظهر رسغه. لقد حجزا طاولة في مطعم الفندق في الطابق السفلي، لذا عندما نظرت بترا إليَّ - كنت راسية على شاطئ من أغطية ووسادات، في طرف الغرفة -همست قائلة: «اذهبا». رسمت بفمها كلمة «أشكرك». قبَّلت بول، رفعت جواربها المتهدلة، وغادرت الغرفة.

بعد برهة، عاد ليو وأطل برأسه قائلًا:

- سنكون في الطابق السفلي، في حال احتجت شيئًا ما.

كأني لم أكن أعرف ذلك قبلًا. زحفت إلى الجهة الأخرى من السرير، وعبرت الغرفة إلى الركن الذي كان فيه بول مغفيًا.

كشطت الفتافيت عن أغطيته، وأطفأت المصباح، ثم ذهبت إلى الحمام، وبأظافري أزلت الغطاء عن أحد قطع الصابون الصغيرة. لم أكن أعرف كم أملك من الوقت قبل عودتهما، لذا لم أغامر بأخذ حمام كامل، رغم رغبتي في ذلك. وقفت تحت الدوش وتلقيت مياهًا ساخنة جدًا استمرت دقيقة رائعة، وتركت لدبابيس المياه أن تفتح بعضًا من الإحساس بالتوسُّل، بعضًا من الإحساس بالبؤس لم أعرفه قبلًا. كان إحساسًا بانقلاب، بأن أمرًا ما تاليًا سيحدث. نزعت المناشف عني، ولبست بسرعة القميص الداخلي الأزرق البارد الذي أخذته من مخزن أمي للملابس المستعملة. وبسبب البخار، لم أستطع أن أرى نفسي في المرآة. لم أستطع أن أتبين إذا كنت أبدو طفلة صغيرة تبذل قصارى جهدها، أو مراهقة عندها مشاغلها السرية كتلك المتعلقة بالفتيان والكلية.

عدت إلى غرفة النوم، كان بول نائمًا بفم مفتوح. في سريري، رتبت أمر أطرافي كي تكون ممتدة إلى الخارج ومكشوفة. وبعد برهة، غيَّرت رأيي وثنيت رجلي، وانتظرت كي تجدني بترا على ذلك النحو، متكوّرة في ملابس النوم، ووجهي إلى الجدار، غير آبهة بشيء.

لم أنم، بالطبع. أصغيت إلى الصوت غير المألوف لحركة المواصلات في الشارع، لأمواج حقيقيَّة، أمواج «سوبيريور» وهي تتكسر على جلاميد «سوبيريور» الحقيقية. استطعت سماع صرخات الفتيات في البار آتية عبر موقف السيارات، وأتت عبر الجدران همهمة المصعد أثناء الصعود والهبوط. أخيرًا، عندما عاد ليو وبترا، تركا الأضواء مطفأة، لذا لست متأكدة أبدًا إن كانا نظرا إلينا أم لا. وبالكاد غطى القميص التحتي البارد فخذيّ، وكنت أرتجف عندما سمعت ضربة مكتومة في الغرفة الأخرى، تلاها بكاء مكتوم ومفرط. وأصابت الخدوش جلدي المحلوق حديثًا ببثور صغيرة فكأنه جلد إوز. أحسست حين حككته بيدي كأنه جلد ملأته الأشواك لشخص آخر يقاسمني السرير. ومن الجدران، جاء صوت شخص يقول:

- آه!

في تلك اللحظة، انسللت من سريري، وزحفت عبر الحمام على قدمي العاريتين. برفق وَكَزْت الباب الآخر، انتظرت، ونظرت عبر الشق.

كان هناك ظلامٌ، لكن الستائر مفتوحة. ضوء الطريق يشع في الداخل. في البداية، رأيت ليو وحيدًا تمامًا في السرير، جالسًا على أحد حافتيه وناظرًا إلى الخارج عبر النافذة؛ كأنه ينتظر إشارة ما، مرور مذنب ما، أو ظهورًا فضائيًا في ظلمة السماوات فوق المدينة. ثم رأيت بترا جاثية على ركبتيها أمامه، ويد ليو فوق رأسها، ففكرت بـليلي والسيد غريرسون. كأنما الأخيران ظهرا في شكل متحوِّر في الظلام الذي كنت أراقبه.

كانوا ليلي وبترا، وكذلك ليو والسيد غريرسون معًا. كانا زوجًا وزوجته، وأستاذًا وتلميذة، كانا الحبيب الخائف والجميلة ليلي. كانا الأمرين معًا. بدت ضئيلة وهي جاثية على ركبتيها، منحنية على حضنه. تنهَّدَت حين رفعت رأسها:

- هيًا، من فضلك.

ثم لهثت، وكان من المحتمل أن أدخل، من المحتمل أن أقاطعهما، لو لم أره يدفع رأسها بعيدًا عنه برفق، بالطريقة التي تبعد فيها كلبًا أفرط في إظهار وده لك. لو لم أسمعها تقول له برفق مماثل:

- كُفَّ عن التصرف كطفل، يا ليو.

وكانت كلماتها تلاعبًا تقصد منه القول:

- استرخ، أعلم أنك تحب ذلك.

وجدت لاحقًا أن ليلي تركت البلدة كي تدلي بشهادتها أثناء محاكمة السيد غريرسون. ذهبت إلى «مينابوليس» حيث انعقدت محكمة فيدرالية، لكن عندما صعدت إلى المنصة للشهادة، حين استحثها المحامي أن تخبر قصة بحيرة «غوون»، اعترفت ليلي أخيرًا أنها لم تكن أبدًا على معرفة جيدة بالسيد غريرسون. اعترفت أنها لم تتحدث إليه على انفراد سوى مرَّة وحيدة عندما خصص لها وقتًا إضافيًا في الامتحان بسبب معاناتها عسرًا في القراءة «ديسليكسيا». ووفق وثائق المحكمة، مارس المحامي ضغطًا عليها في تلك النقطة. إذ سألها:

- ألم يأخذكِ إلى البحيرة؟ ألم تقولي ذلك في شهادتك الأصلية؟

لا شك أنه اضطرب، ولم يكن لديه سوى قليل من الصبر حيال ضحية توشك على الانسحاب في اللحظة الأخيرة. حاول إقناعها بأنها خائفة، أنها كانت تكذب الآن على منصة المحكمة. سأل المحامي القاضي:

- لم قد تقول ما قالته ما لم يكن صحيحًا؟

لم تجِبْ ليلي عن ذلك. كان يتوجب على القاضي النظر في رطانة ذلك السؤال، وليس هي.

لأحكِ ما تقدم به السيد غريرسون في مساومته على الاعتراف:

- قمت بأشياء كثيرة، كثيرة جدًّا. دعوني أبدأ ثانية. لا أستطيع مواجهة أفكاري. ليست أفكارًا أرغب في مواجهتها، لكنها مجرد سعي للارتياح... كيف أستطيع صياغة ذلك؟ مجرد ذلك الارتياح الذي

يأتي من قول أشد ما يثير خشيتي بصوت مرتفع. أحس بالخجل، لا نقاش في ذلك. لكن، أنا أحس بالارتياح؛ هل ذلك شيء جيد؟ لم ألمِس تلك الفتاة، لكني فكَّرت في ذلك، فكَّرت في ذلك، فكَّرت في ذلك، فكَّرت في ذلك. فكَّرت في أشياء أشد سوءًا مما قالته.

عندما استيقظت صباحًا، كان بول قد ذهب. باب الحمام كان مقفلًا بإحكام. نزعت القميص التحتي، ولبست قميصي وبنطلوني الجينز، وفتحت باب الحمام. نظرت عبر الممر المكسو بالقرميد والمرايا، إلى حيث جلس ليو على كرسي بوسائد في الغرفة الأخرى. حدَّق بي عبر كتاب، قائلًا:

- صباح الخير.

سألته:

- ماذا تقرأ؟

قلتها كي أماطل، وأحصل على فرصة للنظر إلى ما حولي. رأيت حقيبة بترا مفتوحة على السرير الأقرب إلى الحمام. تدلَّى حزام أبيض لحمَّالة صدر إلى جانب كُم سترة بلون بنفسجي فاتح.

- العلوم والصحة.
- هل له علاقة ببحوثك؟
- كلا. حسنًا، نعم، بطريقة ما.

أثناء حديثه، أمعنت النظر في الغرفة. ظننت أن بترا وبول ربما كانا منكبين على أحجية ما في الركن. لم يكونا كذلك. راقبني ليو وأنا أتطلع إلى الأسرة، إلى الباب، إلى الحقيبة. قال:

- «ليندا، هل تؤمنين بالله؟». أرجعت نظري إليه. «مجرد سؤال. هل فكَّرتِ أبدًا فيما ناقشناه البارحة؟ لدي فضول خاص بشأن ذلك. ما هو الذي تؤمنين - أو تفترضين - أنه صحيح بشأن وجودك؟ يمكن الانطلاق من هذا السؤال، بالطبع. ما هي افتراضاتك الأوليَّة عن الذات؟»

- لا أعرف.
- أنت تعرفين.

عقدت ذراعي على بعضهما .

- أنت تعرفين. ذلك هو تعريف الافتراض.

ثم قال مُلاطفًا ومُقنِعًا:

- مثلًا، هل أنت حيوان أم إنسان؟

وضع رجلًا فوق أخرى، وأخذ يهز إحدى قدميه. كان يرتدي خفَّيه الأسودين، وقد رأيته، إذًا هو رجل من النوع الذي يوضّب خفًّا في حقيبته لقضاء ليلة في فندق. كان رجلًا من النوع الذي لا يستطيع الاستغناء عن خفِّه، ما جعلني حزينة، وربما نفَّرني قليلًا منه.

- أو تظنين أنك تمتلكين جسدًا؟ كم عمر جسدك، وفق ما تعتقدين؟

تدلّى أحد الخفَّين. قلت:

- الخامسة عشرة.

سقط الخفُّ أرضًا، والتقطه ثانية جاعلًا إبهام رجله يعمل كخرطوم.

- إذًا، أنت تفترضين أن حياتك ابتدأت قبل خمس عشرة سنة، وأنها ستنتهي في نقطة ما مجهولة؟
- أعتقد ذلك.
- تفترضين أن تلك حقيقة بيولوجية؟

أحنيت رأسي، ثم هززته، لم أكن متأكدة من مقصده.

- الآن، اسألي نفسك كيف تتغير تلك الافتراضات عن نفسك، إذا سلَّمت بمقدمة منطقية مفادها أن الله موجود؟

توقَّفت رجله المرتدية خفًّا عن الاهتزاز. لقد عاد إلى النقطة التي ابتدأ منها، وصار بوسعه أن يتريث.

- «حسنًا؟ مجرد منطق»، دمدم، «إذًا الله موجود، فأي الآلهة هو الأكثر منطقية؟ إما أن يكون الله خيرًا مطلقًا أو لا يكون هو الله. إما أن يكون

الله كلّيَّ القدرة، أو لا يكون هو الله. إذًا منطقيًا، إذا كان لله أي وجود، إذًا بالتعريف يجب أن يكون هو خيرًا مطلقًا، يجب أن يكون كلي القدرة. أليس ذلك صحيحًا؟ يبدو الأمر منطقيًا، صحيح؟ يبدو أنه الأمر الأكثر منطقيَّة.»

لبرهة، بدا الأمر كذلك. ببطء، انفتحت ثغرة بين كعبه ونعله.

ثم تابع ضغوطه:

- إذا كنا نقول إن الله موجود - بقول آخر، إذا كان الله هو **الله** - إذًا لا يكون في الكون محل للشر، المرض، الحزن أو الموت. لا يوجد سوى افتراض وحيد يجعل وجود الله ممكنًا. إذًا، بالحجج شققنا طريقنا إلى الإجابة الوحيدة الممكنة. إذًا، وضمن التجربة الذهنية عن أن الله موجود، كيف يمكن لتلك المقدمة المنطقية تغيير ما تفترضينه عن نفسك؟
- أين بترا وبول؟
- إنهما بخير. ما الجواب الأكثر منطقية عن ذلك السؤال، يا ليندا؟
- أين هما؟
- سنلاقيهما في المرفأ عند العاشرة. لنعد إلى السؤال...

قلت:

- هل حدث...

سرت خطوة إلى الأمام:

- هل حدث خطب ما؟
- «ليــ ندا». فصل مقطعي اسمي قليلًا، كأنه يستعمل مشطًا. دفع نظارتيه إلى الأعلى معطيًا الانطباع بأنه قدَّم دليلًا ما: «ربما يجب أن نتحدث عن ذلك أكثر في وقت لاحق. لا بأس بذلك. ربما يجب أن نبدأ بالتفكير في الاستعداد للمغادرة.»

عندما لم أتحرك، استمر:

- «تخبرني بترا أنك ناضجة جدًّا، يا ليندا، إنك مستمعة جيدة.» راقبته. «إن صحبتك جيدة، تقول ذلك دومًا، وإنك ذكية. لكنك وحيدة تمامًا، ولقد رأيت ذلك. أعرف أن ذلك ليس سهلًا. أعرف كيف يمكنه أن يجعل شخصًا، امرأة شابة، تغدو كئيبة.»

أحسست بوجهي يغدو حارًّا، لكني لم أقل شيئًا. صار يتحدث الآن بلطافة شديدة، جامعًا البراءة والتدفق معًا:

- «ليـ ندا». سترين، أظن أنك سترين، أنكِ عندما تبتدئين بالمقدمة المنطقية التي ناقشناها - إذا كنت نزيهة فكريًّا وبمثل ما تقوله عنك بترا من الذكاء - سترين أن كل ما تفكرين أنك تعرفيه عن وجودك هو خطأ.

صدرت رفَّة عن عينيه البنيَّتين من خلف النظارة. «لست وحيدة، حقًّا.»

تصلَّبَت رقبتي. قلت:

- أتعرف؟ أخبرتني بترا شيئًا عنك أيضًا.

لم يُبدِ سوى قليل من الاهتمام:

- فعلًا؟

- قالت إنك دائم الانشغال بعملك...

انزلق صوتي إلى نقطة رطبة في حلقي، وأعدت إليه ثباته ثانية بأن جعلته كلمات:

- قالت إنك ذهبتَ بعيدًا إلى حد أنك بالكاد موجود بالنسبة لها.

قطَّبَ حاجبيه: «لم تقل ذلك.»

- «لا تكن ثقيلًا.» لم يكن ذلك كافيًا لإثارة اضطرابه، فأخذت نفسًا:

- لا تكن طفلًا يا ليو.

جعله ذلك يوسّع عينيه قليلًا. جعله يقف بسرعة، يبحث في جيوبه عن المفاتيح، ويسير عبر الغرفة ليصل إلى الخزانة. لم تلتق عيناه عيني بعد ذلك. اكتفى بأن دمدم قائلًا:

- دعينا لا نتأخر، ليندا. لقد أخذا السيارة، لذا يتوجب علينا أن نمشي.

وإذ لم أتحرك، قال بمزيد من الإصرار:

- حسنًا، سنلاقيهما عند العاشرة. يكون ذلك بعد خمس عشرة دقيقة من الآن، انتهى.

كان مزعجًا أنه أغلق الباب عليَّ حتى قبل أن أخرج من الغرفة. كانت الطريقة التي قفز فيها بين الآن ولاحقًا مثيرة للغضب؛ إصراره على طمأنتي بشأن ظهور بترا وبول في المرفأ عند العاشرة، تقريبًا بعد ساعة تقريبًا من طرحي السؤال بشأنهما.

لكنهما كانا هناك جالسين على بطانية مجعدة كبيرة مفروشة على العشب، ولم أملك شيئًا حيال الأمر.

شعرت بالاطمئنان.

11

تبرعم العشب الرطب في المرفأ تحت ظلال السفن العابرة. تمدد بول وبترا على بطانية زرقاء قطنية، بأرجل منفرجة وأكف مقلوبة، وحدقا في السفن أثناء عبورها.

جئنا أنا وليو متأخرين عشر دقائق، لذا، لم نشاهد جسر رفع السفن وهو يصعد إلى الأعلى. لكننا سمعنا رنين تحذيراته تملأ المرفأ، ورأينا خط زحام المركبات التي ارتصت صفوفًا عند بحيرة «ليك آفينيو». وعندما شققنا طريقنا عبر ذلك الحشد الكثيف، ونجحنا في الوصول إلى التلة تحت الجسر، كانت السفن الأولى قد شرعت فعليًّا في الانزلاق عبر القناة الخرسانية الضيقة. مرَّت فوق رؤوسنا بصمت في حركة طويلة منتظمة. نظرتُ إلى الأعلى ورأيت عشرات الأشرعة البيضاء، وقد عبأتها الرياح كلها. كان تعقيد حبالها وأشرعتها أخَّاذًا، لكن القوارب والسفن نفسها تحركت ببساطة رائعة كأنما اكتشفت خدعة ما - بعد أن حدَّدَت سر الحركة - جعل اندفاعها إلى المرفأ، بسرعة أربعين ميلًا في الساعة، هو الشكل الأرفع للسكون.

هناك تسع سفن. بدا أن الحشد كله قد حبس أنفاسه أثناء مرورها، على غرار ما يكون عليه الناس عندما تتهددهم عاصفة رعدية خضراء أو عندما يبرز فجأة وَعْلٌ من نوع «الموظ» بقرون ثقيلة متشابكة قادمًا من الغابة.

آنذاك، بالضبط بعد أن انسلت آخر السفن تحت الجسر المرفوع، علا التصفيق. ليس بفرح، بل بتقدير؛ فكان تصفيقًا متوترًا تقريبًا. شرع الناس يتفقدون بعضهم البعض أفرادًا وجماعات، كأنما فجأة وعوا أنفسهم، كأنهم غير واثقين مما سيفعلونه تاليًا. حلقت النوارس في إثر القوارب، فاتحة أجنحتها المقوّسة،

غير متأثرة بالمشهد. أخذ بعض الأطفال يرمون خبزًا على الماء، ما كسر رقية السحر التي رمتها القوارب.

راقبنا النوارس البحرية تلتقط شرحات كاملة من الخبز الأبيض، منقضة عليها من الهواء. سأل ليو:

- كم قاربًا ؟

عرفت الآن أن لديه عادة تحويل ذلك - بل كل شيء - إلى درس، وأن يمسك بكل فرصة للتغيير نحو الأفضل. استدار بول وبترا، وقد لاحظا للمرَّة الأولى أننا نقف خلفهما. كانت الابتسامة تحية بترا، وفي عينيها ومضة ارتياح. الآن، وقد أضحى ليو موجودًا، صارت مستعدة لأداء دور الصديق المساند، لتقتلع ورقات العشب بأصابعها. سألت:

- هل رأيتها؟

طوت ورقة عشب في الاتجاهين، فصارت كالأكورديون.

- طبعًا.

ثم أقعى. قال:

- هيي، بول. هيي، أنت هناك، ياصبيّي. كم أحصيت؟

لم يفكر بول في عدّ السفن. كان هناك تجويف أبيض عند حلقه، حين تطلع إلينا. قلت:

- تسع.

حينها، أحسست أنه يتوجب عليَّ حماية بول من نوايا ليو الحسنة. من الأعلى، حيث كنت أقف، بدت الملابس التي يرتديها بول مثيرة للضحك، إذ انسدل عليه قميصه الـ«تي شيرت» المزين بصورة محرك بخاري، منتفخًا قليلًا عند الرقبة والكتفين، وانسحب إبهاما القدمين إلى الداخل في حذائه من نوع «فِلكرو». قال ليو:

- بول، هل تعرف الزمان الذي جاءت منه تلك السفن؟

أحسست بالحاجة للتدخل ثانية، لكن في تلك اللحظة فتحت بترا سلة من القش على البطانية - مُظهرةً صفوفًا منمَّقة للفضيَّات وأكواب البلاستيك -

فتلاشى ذلك الإحساس. ذلك الإحساس يتلاشى دومًا. فتحت بترا ما بدا كباب خفي في السلة، فخَرَج منه «ترموس» فضي أمالته فوق الأكواب، واحدٍ لكل منا. عصير الليمون. فتحت وعاءً بلاستيكيًا لحفظ الأطعمة، فبرزت منه عناقيد الفراولة. شددت على القول بأنها:

- عضويَّة.

ومررت الوعاء إليّ.

شققت حبة فراولة بأسناني، وجلست قرب بترا على العشب. ربَّتت على البطانية وقالت:

- توجد مساحة.

لذا، انتقلت للجلوس على البطانية. استمر ليو في درسه:

- ترجع معظمها إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. هل تعرف متى كان ذلك؟

رفّت رموش عيني بول الكثيفة، وقال مخمّنًا:

- قبل الصواريخ.

قال ليو:

- قبل السيَّارات. كم شراعًا رأيت في كل سفينة؟

تدخَّلت:

- مرت السفن سراعًا.

تنهد بول:

- مئة.

قال ليو، وهو طاغية في شأن الحقائق:

- أربعة عشر، أو أحد عشر، أو ثمانية، بحسب نوع السفينة.

ثم استقر أمره على تقديم شرح عن تيارات الريح، وأعالي الصواري وأعالي الأشرعة، والحبال التقليدية للأشرعة والصواري، والأميال البحرية. لم يكن يلقي محاضرة بالضبط، بل يعطي أرقامًا فقط، مجرد أنه يعدد الإحصاءات والميزات.

عضضت حبة فراولة، وكانت صلبة كحبة رمل، وخشنة مثلها، وغير قابلة للبلع. بعد برهة، توقفت عن الإصغاء إلى ليو الذي شرح طريقة تحويل مقدار القامة المائية إلى أمتار. وضعت الحبة بين ضرسين، وأخذت رشفة عصير ليمون، منتظرةً في تلك الأثناء أن تلاحِظ بترا أنني ارتديت طوق الشعر الخاص بها.

اقتنصته من خزانة في غرفة الحمام عند خروجي منها صباحًا. إنه طوق من البلاستيك الأزرق القاسي، تنتظم في باطنه صفوف من الأسنان الصغيرة. يعطي إحساسًا بوجود أسنان شخص ما على صدغَيّ، مثل كلب يقفل فكيه على رسغيك تحبُّبًا ومن دون أن يعضّك، رغم قدرته على ذلك. أحسست بأن رأسي صار مختلفًا: انتظرت أن تحسّ بترا برأسي الجديد.

لكن بترا ثبتت عينيها على ليو الذي، ثبت عينيه - عقب انتهاء خطابه عن الأشرعة - على زورق لسحب السفن يهم بدخول المرفأ. من سطح القارب، كان قبطان المركب يلوّح لـبول الذي - رمقته حينها بنظرة عجلى - ثبت عينيه عليّ. كان يقول شيئًا ما مشوشًا عن «أوروبا» التي تضم ملاعب رمل وحفارين، ولا يعيش أحد فيها، وتبحر إليها سفن فارغة، وعمال الحدائق يجزون العشب فيها. قال:

- في منطقة «جدائل الذهب».

ضحك ليو ونظر إلى بترا المندهشة.

- إنه يمزج «أوروبا» و«إلينويز» معًا.

وقدمت بترا شرحًا بما يشبه الفرح، كأنها اكتشفت مفتاح أمر ما.

- إنه مشتاق إلى المنزل.

نظرت إلى ليو كي يوافقها:

- مجرد أنه مشتاق إلى ملعب «أوك بارك»، صحيح؟

قالت امرأة كانت جالسة على بطانية قربنا:

- إ م م م م م ، أرجو المعذرة.

نهضت. كانت بيدها حزمة من مناديل الورق التي ارتفعت الواحدة تلو

الأخرى، كأنها طيور، ثم حطَّت على الأرض. بدا الأمر منسقًا بطريقة غريبة، كعرض سحري يقدم لأطفال وتكون الخدعة فيه مستندة إلى تطبيق بسيط لقوة الجاذبية. تساءلت إن كانت تقدم عرضًا أمام بول الذي كثيرًا ما حظي بعروض صغيرة مشابهة من غرباء. ابتسمت بانصياع للمرأة، وهو الأمر الذي كان خطأً فعله. عبَسَت ورمت بقية المناديل على العشب، أمامنا أنا وبترا. بالكاد استطاعت إخفاء امتعاضها، وقالت بتأنيب:

- أرجو المعذرة؟

وعندها، رأيت بول يتقيأ على العشب تاركًا كتلة فقاعات بيضاء عليه.

وضع ليو يده على فقرات ظهر بول، وربَّت عليه بهدوء.

هزّت المرأة رأسها باتجاهنا.

- يبدو أنه يعاني خطبًا ما.

قال ليو بلطف:

- شكرًا لك.

تابعت الشمس إشراقها والريح هبوبها، فيما كنا نحزم «الترموس» الفضي، ووعاء الأكل البلاستيكي، وأكواب البلاستيك التي نفضناها على العشب، والمناديل القماشية السوداء. أعدت وبترا كل شيء إلى موضعه في السلة، برباطه المطاطي، وأغلقنا أبواب السلة كلها. كانت يدا بترا خاليتين، لكنها أرادت إرجاع كل شيء إلى مكانه بالضبط، وفعلنا ذلك. حمل ليو بول خائر القوى إلى السيارة. وتبعناهما. وأثناء ذلك، تراكض أطفال في دوائر حولنا، ورموا طعامًا إلى نوارس البحر. ارتدى الأطفال قبعات، والتمعت جلودهم من كريمات الوقاية من الشمس، وهم يطلقون ضحكات مجلجلة للنوارس النهّابة. لووا أعناقهم إلى الخلف، فطارت قبعاتهم في الهواء. تجمع المزيد ثم المزيد منهم عند بقعة العشب التي أخليناها، وتجمعت فوقهم جماعات الطيور. لم كانت تتزايد باستمرار؟ كانت الطيور نهمة، وتأكل كل شيء بلا تمييز.

عندما استدرت لإلقاء نظرة أخيرة، وجدت أن الأطفال كانوا يختبرون الأشياء. كانوا يرمون في الهواء حبوب الفوشار وأكوابًا شمعية، وقطع جزر، ورزمًا من العلكة، وقطع نقود معدنية أتت من جيوب آبائهم، وقطعًا من صخور.

حدث ذلك في العشرين من يونيو، لذا كان الصيف يحوم حولنا بكل قواه. امتلأت المدينة بحركة المواصلات، وروّاد عطلة نهاية الأسبوع، ولُعب كلاب بيضاء مع أنشوطات، وباعة الفوشار والأزهار، صبية على لوحات الانزلاق، وعربات بيع الآيس كريم.

كان يومًا صيفيًا شبيهًا بكرة ثلج؛ ونوارس بحرية تحلق وتحط، والسماء قبة متواصلة من الأزرق. في اليوم التالي، الحادي والعشرين من يونيو، مات بول متأثرًا بوَذَمَة دماغية. يشبه ذلك، كما علمت لاحقًا، ما يحدث لمتسلقي الجبال ممن يقضون عند الارتفاعات الشاهقة، وما يحدث أحيانًا لمن يغوصون عميقًا ثم يقضون عند صعودهم، إذ ينتفخ الدماغ، وتضغط أنسجته على الجمجمة المحيطة بها، وتتعرض أعصاب البصر إلى ضغط فائض فتتقطع في مؤخرة العين. حرفيًا، يصبح الدماغ كبيرًا بالنسبة للرأس، وتتجمع أنسجته في الجمجمة، وتضطرب القشرة الرمادية فيه. في سريره عند مستوى البحر، منحشرًا بين صفوف الألعاب المحشوة وأكوام الكتب، ربما عانى بول صداعًا رهيبًا. ربما مَرَّ مذاق حلو غرائبي في مؤخرة حلقه، إذ عانى نوبة تحمُّض كيتوني[1] بأثر من السكَّري، وفق ما علمت لاحقًا.

---

(1) في نوبة التحمُّض الكيتوني Lactic Acidois، يحصل أن يرتفع مستوى السكر في الدم لدى مرضى السكري، إلى مستويات مرتفعة جدًا. وعندها يفشل الجسم في التعامل معها، ويضطرب عمل الكلية، ما يؤدي إلى تراكم مواد سميَّة مضرة في الدم، وبينها الحمض الكيتوني، وهي حال خطرة ما لم تعالج بالسرعة اللازمة. ومن تعقيداتها، حدوث تورّم مائي في أنسجة المخ، يعرف باسم «وَذَمَةُ الدماغ» (المترجم)

لاحقًا، أُخبِرْت بأشياء كثيرة. أُخبِرْت أن بول ربما عانى الغثيان وفقدان السيطرة على البول لأسابيع قبل تلك النوبة. فهو أثناء انتفاخ دماغه في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، عانى عمىً جزئيًا، ودخل في غيبوبة. وأيضًا، أثناء تلك الفترة الأخيرة، ربما ترِكَ من دون رعاية في المنزل الصيفي؛ وبدلًا من نقله إلى المستشفى، وبدلًا من إعطائه الـ«آنسولين» والسوائل التي يحتاجها للبقاء على قيد الحياة، صنع ليو له فطائر وقرأ له كتبًا، ورتَّبت بترا المنزل وأفرغت علبة براز القطط، وكنت أنا أُحرِكُ القِطَع على لوحة لعبة «كاندي لاند». اصطحبه والداه في نزهة طويلة في السيارة، فيما حملت مربيته حجارة وأوراقًا وأكواز صنوبر إلى غرفته. قال أولئك الشكَّاكون إني نقلت نفايات الفناء إلى الغرفة.

بماذا فكَّرتِ؟ سُئلت أثناء وقوفي على منصة الشهادة في المحكمة. لم أقدر أن أحمل نفسي على القول بأن تلك كانت عاصمة «أوروبا»، تلك الكومة من الأوراق والصخور على أرض غرفة النوم. لم أقدر أن أحمل نفسي على إخبارهم ما الذي قصدت قوله لـبول؛ الذي كان عندما رأيته للمرة الأخيرة ينظر إلى خارج سريره بعين واحدة مفتوحة.

كان نصف وجهه مضغوطًا على الوسادة. لا أحد يعيش في «أوروبا»، ذلك ما أردت إخباره به عندما عاد إلى المنزل. ليس بعد، ربما لا أحد إلى الأبد، لكن العاصمة بُنِيَت وهناك قطارات لتسير على قاع المحيط، وغوَّاصات، وروافع طافية؛ وهي ليست مدينة للناس. ليست لجنيات الحكايا ولا الغرباء أو كل ما هو حميم ورائع. إنها مجرد مدينة، ذلك ما أردت قوله. إنها مجرد مدينة، مع قطارات وحفَّارين وبولدوزرات وطرق.

أتذكر مغادرتي «دولوث» على هذا النحو. احتاجت بترا للمساعدة أثناء طيها دثارًا قطنيًا، وهززناه لتخليصه من العشب، وأتذكر أن تلك الأوراق

كانت خضراء جدًّا في الشمس إلى حد أنها قاربت اللون الأزرق. عند دخولنا السيارة، دخلت بترا في نقاش قصير مع ليو عما يتوجب فعله تاليًا، وتقرر أن نعود إلى «لوس ريفر»، بعد الظهر. أراد ليو أن تعود بترا إلى الفندق لإنجاز إجراءات الخروج، وأن ينتظرها مع بول في السيارة. حدث جدال صغير بينهما عمليًّا، وهو الجدال الوحيد بينهما الذي سمعته. لم يصرخا على بعضهما، ولم يرفعا صوتيهما. اكتفيا بأن وقف كل منهما في جانب من السيارة وحدقًا ببعضهما تحت الشمس بأعين ضيِّقة، واختلفا بداية بشأن من يبقى مع بول في السيارة ومن يعود إلى الفندق ويدفع؛ ثم بعد أن أسرتهما حلقة الجدال، انتقلا مباشرة إلى الاعتذار المر. تقول بترا:

- أنا آسفة، يا ليو.

ويرد ليو:

- كلا، إنها غلطتي. لم يكن ينبغي أن أضطرب بسبب أمر هيّن كهذا. ابقي أنت مع بول. أنا سأعود.

كان بول يراقب الأمر من المقعد الخلفي للسيارة. وقفت قربه عند الباب المفتوح للسيارة، وإن لم أكن قريبة جدًّا منه. لم يكن يرغب في أن يلمسه أحد. قال:

- على ما لا يرام لا أشعر.

لم أتمالك نفسي من الابتسام.

- تقصد أنكَ لا تشعر أنك على ما يرام.

لكنه من شدّة انشغاله بشرب الماء، لم يرُدّ. وبعد أخذ رشفات من عصير الليمون، وأيضًا التعرق للتو من بذل ذلك الجهد؛ بعد بلع جرعة أو اثنتين من زجاجة ماء بلاستيكية جاءته من بترا؛ بعد أن ابتلت بالكامل مقدمة قميصه بمزيج من الماء والعصير واللعاب؛ وضع رأسه على مقعد السيارة، والتقط نفسًا ضعيفًا، وأغلق عينيه.

جلست بترا معه في المقعد الخلفي. أعطتني المفتاح، فصعدت إلى مقعد المسافر بجانب السائق، كي أشغّل جهاز التكييف. لدقيقة أو اثنتين، نفث هواء ساخنًا، ثم شرع يبرد بالتدريج. لذا رفعنا النوافذ كلها وجلسنا في برودة السيارة، منقطعين عن العالم الصيفي في الخارج. أحسست بحافز حينها، فيما جفّ عرقي، أن انتقل إلى مقعد السائق، وأدفع عمود القيادة إلى وضعية القيادة. فكرت أن ذلك سيكون سهلًا. ما مدى الصعوبة في قيادة سيارة؟

قالت بترا من المقعد الخلفي:

- لم يكن على طبيعته اليوم.

استدرت لأنظر إليها. افترضت في البداية أنها تقصد بول، لكنها كانت تحدق خارج النافذة باتجاه الفندق. إذًا، كان ليو هو من قصدته. تنهدت بالطريقة التي يفعلها الناس عندما يهمّون بالكلام، ثم أغلقت فمها، وعضت على شفتها.

استدرت إلى الخلف أكثر، ونظرت إليها من فوق المقعد. وفي محاولة لملاطفتها، قلت:

- هل الحرارة جيدة؟

أردتها أن تتخفف من مخاوفها، مثلما فعلت في الخيمة. أردتها أن تحتاجني لإنجاز أمر لا تستطيعه بنفسها.

- نعم. شكرًا لك. شكرًا لك، ليندا.

منحتني ابتسامة ملأت وجهها. حدَّقت في بول الذي أغفى. لامست ذراعه الطويلة العارية بيدها.

جربت أن اختبر مدى امتنانها.

- أتريدين مني أن أحرك السيارة قليلًا؟ أتريدين مني أن أخرج من هذا الزحام؟

دأبت السيارات على التزمير لنا، على أمل الحصول على البقعة التي توقفنا فيها. فكَّرت في الأمر:

- ألديك رخصة قيادة؟

أقررت:

- كلا.

- إذًا، لا بأس.

اتَّكأت بظهرها على المقعد وأغلقت عينيها، وفي ضوء الشمس الساطع، رأيت محجريها يتحركان تحت جفنيها الشاحبين. آه، **هناك تكون حدقتاها السوداوان**؛ فكرت في ذلك، بانتصار وخوف تقريبًا؛ لكن عندما ظللت وجهها بيدها، اختفى كل ما كنت أراه. قالت:

- سيعود ليو إلينا بعد قليل.

لم تعجبني طريقة قولها ذلك. لم يعجبني مدى الثقة في كلماتها. لم تعجبني الطريقة التي تبدلت فيها الأمور بينها وبين ليو، وكيف تضخَّمَت ملامحها كلها مع لمسة من أداء مسرحي. لم يعجبني أن تكون منصاعة له إلى ذلك الحد، ولكنها أيضًا مشحونة عاطفيًا، واثقة من أنها تستطيع جذب انتباهه إذا أرادت ذلك.

جعل طوق شعر بترا رأسي يخفق. أستطيع أن أحسَّ بأسنانه كتاج لئيم يمتد من الأذن إلى الأذن الأخرى. أحسست بأني بائسة إلى حد أني وجهت ضربة لها:

- أين التقيتما، أيها الأصحاب؟

فتحت بترا عينيها. اطمأنت على بول قبل أن تواجه نظرتي.

- أنا وليو.

أومأت برأسي:

- نعم.

- كان أستاذي في الجامعة.

أحسست برضى عن ذاتي:

- في جامعة شيكاغو؟

- كيف عرفت ذلك؟

لقد ارتدت تلك السترة الجامعية، مع اسم الجامعة عليها، آلاف المرات.

هززت كتفي.

- المقرَّر الدراسي الجامعي الأول عن علم الفلك.

زَمَّت أنفها، وظهر على وجهها ذلك التعبير الحزين المبتسم الذي كنت أراه. وضعت يدها على جبهة بول النائم.

- ظننت أن الأمر سيكون سهلًا. ظننت أننا سنحفظ معًا أسماء المجموعات النجميَّة، ندرس أسماء الكواكب. أشياء من هذا القبيل.

- هل فعلتما ذلك؟

- فعلنا شيئًا منه، بالطبع.

انتبهت لنظرتي، قالت:

- ليس الأمر كما تظنين.

حدقت في عينيها الزرقاوين.

- ماذا تقصدين بما أظنه، يا بترا؟

تململت في مقعدها، ومرت بأصابعها على شعر بول الذي تحرك. لبرهة، بدا مطاردًا بأحلامه. تقلص وجهه كأنه موشك على البكاء. رغم ذلك، لم يستيقظ.

- أنا كنت من يبقى بعد انتهاء الدروس، ولكِ أن تعرفي، أنا من طلب منه أن نخرج معًا. كان ذلك أنا، وليس هو.

ترقبت المزيد.

- هو بدا كأنما... لا أعرف. كان أكبر من الأشياء كلها بالنسبة لي في ذلك الوقت.

وجدت ذلك صعبًا على التصديق. وجدت صعوبة في تخيُّل أن ذلك الرجل الهزيل الذي ينتعل خفًّا، يترك علامة كتلك فيّ. بالنسبة لي، بدا ضعيفًا،

رغم كونه عنيدًا ربما، كالصبغة. فكرت في الكيفية التي يطل فيها كعبه من خفه، كيف كان خفه أسود باليًا وقبيحًا.

- ذات مرّة، التقته إحدى صديقاتي - كانت تجمع تواقيع أو شيئًا مشابهًا، لأجل الإحسان - وقالت إن هنالك شيئًا ما مقلقًا بشأنه. وقلت لها إني أوافق! إنه ذكي بشكل مقلق. إنه كذلك فعلًا.

كانت بترا تبرر نفسها. تضع قضية أمامي، وترتب مرافعاتها الدفاعية. تحاول إقناعي بشيء ما، وأثناء حديثها استطعت ملاحظة أن جلستها صارت أكثر استقامة، وازداد تركيزها.

- أصغي يا ليندا.

حاولت أن تهمس، فصارت الحروف الساكنة في كلماتها أقرب إلى الهسهسة.

- لست بارعة في شرح الأشياء. بعد نهاية المقرر الجامعي، توصلت إلى دفعه للجلوس معي في الكافتيريا وتناول كعكة محلاة. أخذ هو كعكة نخالة، وأنا كعكة توت بري. وفعلنا ذلك ثانية في الأسبوع التالي ثم التالي. وأتذكر كيف أنه شدَّ قميصه إلى تحت حزامه عندما نهض. أتعرفين كيف يكون ذلك؟ كيف تنتظرين من شخص ما أن يفعل هذا الشيء، ثم يفعله؟ كان يشدُّ قميصه بالطريقة نفسها في كل مرَّة ينهض فيها واقفًا. يبدو أنه، لا أعرف، لا يتوجب عليك تكلف كل ذلك الجهد كي تعرفيه، فهو يفعل ذلك الشيء، ذلك الشيء الوحيد، وأنت تستطيعين توقعه سلفًا. كان ذكيًا جدًّا، وأحسست أنني أعرفه أكثر مما يعرف هو نفسه، وبصورة مباشرة. ذلك أمر قوي جدًّا.

سألت:

- هل أعجبك لأنه شدَّ قميصه تحت حزامه؟

كنت مبلبلة، غير قادرة عل الفهم، وأحسست بخيبة الأمل.

- كلا. كنت أعرف كيف يشدُّ قميصه. هنالك فرق. وأحسست بإطراء. كان بالكاد تخرَّج، واعتبِر مرموقًا في الحرم الجامعي لأنه نشر مقالًا في مجلة «نيتشر»؛ وقال لي، أوه ربما بعد شهر أو أكثر من علاقتنا، إنه لم يخبرني كل شيء عن نفسه. قال إنه يرغب في أن يخبرني كل شيء، وأنا كنت، كما تعرفين، في التاسعة عشرة. مجرد شابة صغيرة!

قلت:

- لم يكن منحرفًا جنسيًا.
- كلا. لا شيء من ذلك. كان الأمر مجرد أنه يريد إخباري بأنه من الجيل الثالث في «كنيسة المسيح العالِم»[1]. وضحكت عليه عندما قال ذلك، وأحسست براحة كبرى. كنت خائفة فعليًا مما قاله.

عندها، استطعت رؤية ليو قادمًا عبر الطريق. كان يظلّل عينيه بيده، مستطلعًا السيارة وسط الحشد. حمل حقيبتي ظهر على كتفه، إحداها لـبول والأخرى لي، وجر حقيبة ضخمة على عجلات بيد واحدة. كان يسير بشبه هرولة، وتجمَّع الشورت الكاكي في حضنه، فانكشف فخذاه الشاحبان. سألت بترا: «ما الذي حصل بعد ذلك؟»، وصرت أحس أنه غدا أمرًا عاجلًا الآن.

ما قصدته هو سؤالها عما كانت تحاول قوله لي. أحسست أن شيئًا ما فاتني أثناء تدفق الكلام، أن الجزء الأساسي من القصة جاء وذهب أثناء تطلعي من النافذة.

لا بد أنها رأت ليو حينها أيضًا، لأن صوتها تغيَّر، إذ انخفض وصار ناعمًا وحلوًا، بل متلاعِبًا.

- «أوه، لا أعرف!»، قالت، «ضحكت من مدى جديته. ثم تزوجته. أحببت أنه جدّي إلى ذلك الحد، وفكرت أنني أكون مثله.»

---

(1) مذهب متفرع من البروتستانتية في أميركا، تأسس في 1879 على يد «ماري بيكر إيدي». ترفض فكرة الموت الذي تنفي وجوده لأن البشر هم أرواح خالدة، عبر الشبه مع الخالق. (المترجم)

راقبنا معًا ليو يتعرف على السيارة. ذهب إلى الخلف، وعبَّأ الصندوق. لكن من الواضح أنه لم يستطع رؤيتنا نراقبه من داخل السيارة، لأنه عندما دار حول السيارة، رأى انعكاس صورته على أحد النوافذ، وأخذ نفسًا عميقًا، وسوَّى خصلة شعر متطايرة عند أعلى رأسه. أخرج ثنيات الشورت من حضنه بإصبعين. لكن، لم يكن ذلك كل شيء. همست بترا:

- انتبهي!

قبل ثانية من فتح باب السيارة، أدخل ليو يدًا مسطحة لمسافة إنش تحت حزامه، ودفع قميصه القطني الأزرق إلى الأسفل. كانت حركة أوتوماتيكية، وبدا مضطربًا قليلًا؛ كأنه غير واثق إذا كان مرحَّبًا به في السيارة، أو مما سيجده في داخلها. قالت لي بترا:

- تظنين أنك بمثل عمر التاسعة عشرة، أنك أكثر نضجًا من عمرك بسنين؟ إذًا، سوف ترين.

جلس ليو بقوة على مقعد السائق:

- هل كل شيء على ما يرام هنا؟

انحنت بترا إلى الأمام، وقبَّلَت شحمة أذنه.

رجع بجسمه إلى الخلف، متفحصًا الوجه النائم لـبول، وبعده بترا.

أجبت بالنيابة عنها:

- نحن بخير هنا.

عادت السيارة إلى المنزل بأشيائها، بعد أن وُضِعَ نظام جديد لها. طوال الطريق، طرح ليو عليَّ أسئلة بلطف - ولكنه كان كالغائب - بشأن الصيد في البحيرة، وخام الحديد. وتولَت بترا الهمس إلى بول عن ألعاب عدة.

دخلنا في زحام المرور عند ورشة بناء خارج «دولوث»، واستمر الزحام أكثر مما حدث أثناء قدومنا. أثناء ذلك كله، وسط الغبار البرتقالي والدخان

الأسود للعوادم، تحدث ليو معي من دون أن يدير رأسه. كان يهز رأسه ولا يعلق على أجوبتي. توقفت عن إعطاء أجوبة تزيد عن كلمات قليلة، ثم توقف هو عن السؤال. باعدت بيننا ساعة ثم ساعتان من الصمت. لم يقترح أحد أن نتوقف لتناول الغداء في مطعم «دِنيز» أثناء العودة. وعند نهايات ورشات البناء على الطريق، شرعت في البحث عن العلامات التي تذكرتها من اليوم السابق: برج الماء الزهري، النفق المشقوق على جانب التلة. لكن كل شيء بدا مختلفًا من الجانب الآخر، ولم أستطع توقُّع ظهور تلك العلامات. عرفتها بصورة استرجاعية، لحظة مرورنا بها، وتوجب عليَّ الاستدارة ومراقبة برج الماء أثناء ابتعاده عن النافذة.

صاح ليو بانتصار، عندما لَفَظَنا النفق خارجه:

- صرنا في المنزل تقريبًا!

بدا مصممًا على قول تلك الجملة، أكثر من كونها وصفًا لحالنا. ثم ظهرت بحيرة «لوس ريفر» غارقة في نقاط ضوء شمس تأتيها من عمق الغابة، وابتهج ليو إلى حد أنه شرع في غناء مطلع «الملك ونِسِسلاس الطيِّب». رافقته بترا كمغنية سوبرانو طائعة. غاص قلبي رغمًا عنّي. وعندما تخلفت بترا في الغناء عند منتصف المقطع الثاني، أعلن ليو:

- لقد عدنا!

لذا، وضعت يدي تحتي وتخيَّلت تحطُّم السيارة أو وجود غزال بائس على الطريق، أو أي عائق كارثي. لم أقترح أن أخرج وأصعد إلى منزل أبويَّ عبر ممر السمَّاق. تركت ليو معرّضًا سيارته للتلف بالسير عبر الممر الكثيف الأشجار تحت ظلال بداية المساء.

ببطء، ببطء، استعدت حقيبة الظهر خاصتي من صندوق السيارة.

تمنى ليو لي ليلة سعيدة، واستدار بـ«الهوندا» بمجرد أن صفقت باب الصندوق. لم أسمع إن قال بول أو بترا أي شيء. كانت نوافذ المقعد الخلفي مغلقة بإحكام.

بالتأكيد، بالتأكيد، قالوا لي لاحقًا، أحسستِ أن شيئًا ما كان خارجًا عن المألوف؟

ربما. ربما توجد طريقة للصعود فوق الأشياء كلها، سُلَّم من نوع خاص أو استبصار، زاوية بصرية متفوقة تمكّن من رؤية الأشياء بوضوح ومن دون أي عائق. ربما تلك الطريقة من الرؤية تأتي بصورة طبيعيَّة لبعض الناس، ويكونون محظوظين بها. لكني أتذكر كل شيء، بل وحتى الآن، كأن شيئين متعارضين ومتنافيين مع بعضهما، قد حصلا. الأول هو ما يصفه محامو الادعاء - غثيان، قيء، غيبوبة ...إلخ - ثم يظهر لي الشيء الثاني بالطريقة التي حصل فيها فعليًّا مع بترا وبول؛ سفن طويلة، رحلة العودة بالسيارة، أغنية «الملك ونِسِسلاس الطيِّب»، السرير. رغم أن الشيئين ينتهيان إلى النقطة نفسها، لكنهما ليسا القصة نفسها. ربما لو كُنت شخصًا آخر، لرأيتها بشكل مختلف. لكن، أليس ذلك هو لبُّ المسألة؟ أما كنا كلنا لنتصرف بشكل مختلف، لو كنا شخصًا آخر؟

عندما دفعت باب الكوخ ودخلت، قالت أمي:

- عودة مبكرة؟

انتظرت جوابًا رغم أني قتلت بعض الوقت قبل أن أدخل، رغم أني جلست مستندة إلى حقيبة ظهري لأكثر من ساعة خلف الزريبة، مع الكلاب. تمنيت أن أتجنبَ ذلك السؤال بالضبط.

- «مادلين»؟

لكني لم أتمكن من رؤيتها بوضوح. كانت خيالًا محدودبًا على الطاولة. تخيط شيئًا ما بالإبرة، أو تحاول القراءة. لم أستطع تبيان ذلك. لم أقل شيئًا لها، بل عثرت على طريقي عبر الغرفة المعتمة مع حقيبتي على ظهري، وتسلقت السلم مباشرة إلى عليّتي. لم تكن أمي قد أشعلت الأضواء، بالطبع.

لذا، أتذكر أنني فكرت بالتالي: **لا بأس. ليكن ليل**[1]. لم يكن الوقت قد تجاوز الثامنة أو الثامنة والنصف، تقريبًا اليوم الأطول، لكن الكوخ كان مظلمًا فعلًا لأنه محاط كليًّا، ومن كل جانب، بأشجار الصنوبر. أتذكر طوق شعر بترا يضغط على جمجمتي عندما تكوَّرت في فراشي، وأستمتع بصداع رائع بسببه. أتذكر طقطقة مفتاح إنارة المصباح، وسباب أمي إذ خرجت تتلمس مولّد الكهرباء. أتذكر أنه عندما جاءت الأضواء، بدت كأنها ضربة على الجلد، وأن أمي وقفت تلتقط أنفاسها للحظة عند أسفل السلم المفضي إلى غرفتي العلوية. وسألت مجددًا:

- «مادلين»؟

هزَّت إحدى الدرجات السفلية، فصرصرت مفاصل السلم كلّها. اختبأت في حقيبة نومي، بملابسي الكاملة.

- هل قضيتِ وقتًا ممتعًا في «دولوث»؟

قلت في فكري:

- ليلة سعيدة.

بعد دقائق قليلة، سمعت أنين ألواح الصنوبر، أثناء ذهابها إلى الحوض. سمعتها تفتح باب الخزانة، تقضم إحدى حبات الإجاص التي اشتريتها قبل أسبوع من البلدة. قضم، ثم سكون. تخيلتها تجذب بأصابعها خيوطًا من القشرة الرطبة، من بين أسنانها. كان باستطاعتي سماع الصوت المرتفع للأنفاس في أنفها، وهمهمتها ببيتين من أغنيتين مختلفتين تمزجهما معًا. **أيام غريبة عثرت علينا // رمت تيجانها في بحر زجاجي**. إنها أمي. تلك الليلة، عندما كنت راقدة في السرير، تلك الليلة بعد الذهاب إلى «دولوث» والعودة منها، أتذكر مدى علو طنين حشرات العث ترف بأجنحتها حول المصباح، وتلك الإجاصة التي

---

(1) العبارة مصوغة على غرار ما يرد في «سفر التكوين» في التوراة عن خلق الكون «قال الرب: ليكن ضوء، فكان ضوء» (المترجم)

لم تكن لتنتهي مُصدِرَةً صوتًا للقضمة تلو القضمة. أتذكر همهمتها وهي تخرج هواءً أكثر من الأصوات، وكيف أن ذلك كله - إضافة إلى قرع رأسي - جعل النوم مستحيلًا.

صحة

12

- **«إنها مديرة تنفيذية لشركة. أقسم بالله»**. اعتادت أمي أن تقول لأبي. «وضعت كشفًا إحصائيًا عن أشجار الصنوبر في التلة. الوسادات.»

اثنتا عشرة شجرة صنوبر. فكرت وهي تقول ذلك. **وسادتان وسبع بطانيات**.

كنت في السادسة أو السابعة عندما بدأت أمي تدعوني المديرة التنفيذية. آنذاك، كان لا يزال في إمكاني الصعود إلى حضن أبي مرتدية ثوب نومي القطني، متظاهرة بأني أصغر سنًّا، بنتًا صغيرة يستطيع حضنها وحمايتها؛ أو أفضل من ذلك أكون قطعة من العدَّة يستطيع استعمالها، قطعة رائعة ومتهالكة تستلزم صيانة، كشريط القياس الذي يعيده بعناية كبيرة إلى حزامه. ثنيت رجلي داخل ثوب النوم كي أُجرب ذلك، ووضعت طرف إبهامي في فمي، وأخذت أمضغ ظفري. حذرني أبي:

- خذي حذرك، هناك جدران من الخشب تقرصها الـ...

بعد برهة، تحيط ذراعاه بي. يتكلم خلف رأسي، وكان ذلك قريب الشبه، لكن ليس مطابقًا، للتدليل. أستطيع أن أحس بأنفاسه على فروة رأسي، كلماته تضج في صدره قبل أن تصبح كلمات. ثم يتحرك، كأنما يحاول الانفلات من تحتي. كان تَعِبًا. أعرف ذلك الآن. كان تَعِبًا بطريقة جعلته يبدو غائبًا، بطيئًا، يجر أفكارًا غائمة لا يستطيع التعرف عليها بالضبط، من دون أن يوقف كل شيء آخر مؤقتًا.

كنا ننتظره أنا وأمي.

سخرت أمي مني، وقالت في النهاية:

- لديها تلك النظرة المزعجة. ركّز على تلك النظرة.

اختتم أبي الحديث قائلًا:

- فقط كفّي عن تعداد الأشياء قرب الطريق العام.

أنزلِقُ ببطء شديد من علو حضنه. منذ مغادرة «تامِكا» والصبية الكبار، لم أرفع عيني عن المهجع العمومي والكوخ. أُنزِل إحدى قدمي أولًا، ثم أُنزِل الأخرى، وأظن أن أبي سيعيدني ثانية إلى حضنه. ثم أتمدد على الأرض، ناظرة إلى الأشرطة الملتفة البنيّة لحذائه الثقيل.

قالت أمي:

- جديًّا. أخبرتني أنها تريد قياس الكوخ. وأحصت أطباقنا، على ما يبدو. مازال لدينا الملاعق الست عشرة كلها.

قال أبي بلهجة العارف:

- يحب الأطفال العدّ. وهذه الطفلة لديها موهبة في ذلك.

على الأرض، أقضم شريط حذاء أبي، وأمضغه لبرهة. من الطريقة التي يتنحنح فيها، أستطيع معرفة أنه بات مستعدًّا للنهوض والذهاب إلى الزريبة.

في الداخل، لم يكن هناك مساحة للذهاب إليها. لم يكن لدينا سوى غرفتين في الطابق الأرضي - مساحة للمطبخ وغرفة نوم - وسلَّم للوصول إلى العليَّة حيث أنام على فراش من ريش نعام محشور بين عارضتين. كانت العليَّة منصة للألواح الخشبية المضغوطة. شراشفي كومة من أكياس نوم من النوع الذي يستعمله الجيش، ورائحتها مزيج من العفن والدخان. تدلّى من السقف المنخفض قماش أصفر عليه صور قطط تدخن سجائر مرسومة في متواليات معقَّدَة ومُدوِّخَة. تلفُّ أمي ذلك القماش حول أكياس نومي عندما أنام؛ ما لم يكن الجو باردًا، ما لم يكن الوقت شتاء.

وحينها، يحمِل أبي فراشي على كتفه كأنه يحمل شخصًا سمينًا مبعثرًا، لكنه يحبه ويريد إنقاذه. ينزل به السلم، ويضعه قرب المدفأة. يقول لي:

- نامي.

ويبسط ثنيات الفراش بيد حمراء عريضة. يربّت على جاكيت قديم ليعطيه شكل وسادة، يقول:

- أحلامًا سعيدة.

كان عطوفًا على الأشياء. ولديه شيء من الخوف من الناس.

كانت الشتاءات تقيّدنا على نحو خاص. كلنا مربوطون - كأنما بحبل - بذلك الفرن الأسود المغطى بالسخام. فيه شيء رومانسي من نوع خاص، أعرف ذلك، إن أنت حكيتَ القصة بشكل صحيح، نوع خاص من جدية قصص من العصر الفيكتوري عن الأشباح، يحبها الناس؛ حكيت القصة بتلك الطريقة لأجل متعة تلك المواعيد، المحمية من الحسد بقلادات من أسنان القرش، في المقاهي. أناس كثيرون حتى الآن، يعجبون بالحرمان. يظنون أنه يشحذ همتك، على غرار ما يفعل الجمال، فتصبح شيئًا ربما يسبب لهم الأذى. يحسبون قواهم الخاصة ضده، في لاوعيهم، ويستعدون إما للتعاطف معك أو محاربتك، مثل ذلك الميكانيكي الذي كنت أواعده في «سان بول». ففي نهاية المطاف، تعب من انسلاله من سريري صباحًا، وجعلني أذهب إلى شقته كي أراه. وذات ليلة، أسكرني، وأطعمني طبقًا مكسيكيًا يدعى «بوريتو». فرد أوراق الـ«تارو»[1] على سجادته الزرقاء، وأشار إلى الوجه الشنيع لورقة «المجنون»، وسألني عمّا أفكر فيه. من الواضح أنه كان مختصًا بعلم النفس، قبل أن يصبح ميكانيكيًا. فيه شيء من المعرفة بـ«كارل يونغ»[2]، على قدم المساواة مع معرفته بغرف احتراق الوقود في المحرك. أراد نبش ماضيّ.

---

(1) لعبة ورق لها نوع خاص من الأوراق، يعتقد من يمارسونها أنها تكشف عن الحظ والمستقبل. (المترجم)

(2) «كارل يونغ» (1875-1961) هو عالم سويسري شهير من مؤسسي عِلم النفس، اشتهر بنظريته عن اللاوعي الجماعي. عاصر «سيغموند فرويد»، مؤسّس مدرسة التحليل النفسي. (المترجم)

جلست على الأرض برجلين متقاطعتين، وسألت:

- ألا يفترض أن تلك الأوراق تخبر عن المستقبل؟

كنت ثملة، فلم أُرِدْ أن أقسو عليه.

- إنها أوراق الشاي، يا حلوة، وليست سحرًا.
- آه، أنت تقدم لي خرافات، وليس أشياء جيدة.

اقترب مني سائرًا على ركبتيه.

- أعدُكِ أن يكون ذلك أمرًا جيدًا. أعطيني ثانية واحدة. هذا الكرت: ما الذي يجعلك تفكرين فيه؟
- ذلك «المجنون» يبدو فريسة سهلة، إذا سألتني رأيي. عيناه مغمضتان.
- حسنًا. ذلك أمر ممتاز. ماذا أيضًا؟ هل لديه خنزير معلق على عصاه؟

ضيَّقت عينيّ.

- أعتقد أن تلك هي حقيبة ظهر جبلية. أين تعلمت إعادة قراءة أوراق «التارو»؟

ضيَّق عينيه؛ لكنه كان يضحك.

- من كان فريسة سهلة في طفولتك؟
- هل أخبرتك قبلًا أنني على معرفة جيدة بالذئاب؟
- هاااا! فتاة الكشافة، أعرفها. تبرز فتاة الكشافة كلما كنت متوترة.
- قصدت أني خبيرة ذئاب. اسألني أي شيء.
- إذًا، من كان فزيسة سهلة؟

الحقيقة أن تلك المدفأة الخشبية كانت شيئًا مبتذلًا بالنسبة لي كطفلة، لذا كنت منجذبة إليها من دون وعي، وكارهة لها من دون أن أسأل عن سبب ذلك. في الشتاء الذي وصلت فيه سن التاسعة، أسندت خدّي إليها أثناء استغراقي في قراءة «دليل إلى «ماش»، محرك الألعاب»، وأنا ممددة على الأرض. صنع الحرق فقاعة من الجلد الصافي - نصف كرة مستديرة ككيس الهواء في السمكة - تحت

عيني اليسرى. وكبرت الفقاعة مع الأيام، وارتفعت في كتلة نصف شفافة في وجهي، وسدت علي مجرى النظر كلما تطلعت إلى الأسفل. حتى لو لاحظها والداي، فإنهما لم يعيراها اهتمامًا. في المدرسة، كنت أختلق الأعذار لأذهب إلى الحمام وأحدق بها. وأحيانًا، كنت أجد «سارة»، وهي من هواة التزلج، هناك أيضًا، وقد تركت الصف مبكرًا كي تتمكن من تبديل ثيابها. تمصُّ مصاصة من نوع «بلو بوب»، وتخبئ ثوب رقص شفافًا بين رجليها. كانت تنظر إلى صورتي في المرآة، وتلمس خدها قائلة:

- مريضة.

ذات مرَّة، غدت أشد فضولًا، واقتربت أكثر، وقالت:

- هل فعل أبوك ذلك بك؟ هل ذاك هو نوع الأشياء التي يفعلونها بك؟

كان لدي عملان روتينيان أؤديهما مع والِدي: قطع الأخشاب وتنظيف الأسماك. وعندما بلغت العاشرة، صرت أستطيع قطع جذع شجرة لوحدي، فأوكل والدي ذلك العمل لي لأنهض به وحدي. لكننا استمررنا في تنظيف الأسماك معًا إلى أن صرت في المرحلة الثانوية. كنت أعمل بصمت على دلوين من الأسماك في الزريبة. نستعمل سكاكين مُبَيَّضَة معدَّة أصلًا لقطع شرائح الأسماك، ونحكها على حجر المِسَنّ قبل البدء بالتنظيف؛ بل كان ذلك هو الجزء الأفضل في الأمر برمته، دائمًا هناك الرنين الخشن لمرور الفولاذ على الصخر. يتكفل الصوت بجعل شعر ذراعي يخزني، مع إحساس مفرح بالألم في أسناني. بعدها، ليس سوى الشطف والتخلص من المياه الوسخة مع جلود الأسماك. كان هناك نفثات من الهواء، كل منها بحجم قبضة اليد، تصدر مني ومن والدي. ها. ها.

لا يستغرق العمل بتنظيف السمك وقطع الخشب سوى بضع ساعات، لذا اعتدت أن أصطنع لنفسي مهمات روتينية أخرى. عندما كنت في الصف الرابع، بدأت في كتابة قوائم عن العروض الجيدة بشأن معاجين الأسنان وورق التواليت

عند السيد «كورهونِن»، كي لا تنفد عندنا، ثم أعطيها لوالدتي قبل ذهابها إلى البلدة. توليت مهمة الاعتناء بالكلاب في الشتاء الذي بلغت فيه الحادية عشرة، وبدأت ألقِم المدفأة الأخشاب في الصباح لأنني أستيقظ باكرًا للعناية بالكلاب. بعدها، مباشرة قبل دخولي المدرسة المتوسطة، رأيت أنه من مسؤوليتي الجلوس مع والدي في الآحاد والاستماع إلى مباريات الكرة، والبرنامج الموسيقي «رفيق المنزل في البراري» الذي يذيعه «راديو مينيسوتا العام». ذات مرَّة، أخبرني والدي أنه كان في أحد الصفوف مع «غاريسون كايلور»، وهو الشخصية الإذاعية لذلك البرنامج، في الكلية؛ ولسنوات طويلة تخيَّلت أن «كايلور» هو أحد الأقرباء الذين لم ألتقهم أبدًا. فكرت أن «كايلور» الأخ الكبير الميَّال إلى العشرة الاجتماعية، وأبي هو الأخ الصغير الخجول الذي يميل أكثر إلى إجادة التعامل مع الوحدة والشعور بالكارثة.

لم أسند إلى نفسي مهمات روتينية مع والدتي. لم تكن تتحمل وجودي قربها أثناء غسلها الثياب أو إعدادها العشاء. قالت إنني بطيئة جدًّا، وأُكثِر من إصدار الأحكام. قالت إنني أدقق بحثًا عن الأخطاء:

- تتصرفين وكأني أبدد الأشياء عندما أقطع شيئًا هيّنا من لب البطاطا مع قشرتها.

كانت أمي دؤوبة من دون تَقَصُّد، ومملوءة بالأفكار. لديها كل أنواع مشاريع الخير منثورة على الكراسي والطاولة، ومحطات من النشاط الذي لا يتوقف. تبطِّن القصاصات لتصير دثارات للمساجين، تكتب رسائل الاحتجاج على البقع الكيماوية، تنسخ مقتطفات من الكتاب المقدس في بطاقات مفهرسة، لديها مخزن لروايات الألغاز، مخطط ممتد لسنوات يتضمن قراءة حكايات خيالية روسية للأطفال، في كتاب لم تردّه إلى المكتبة أبدًا. يتشعَّب شعرها الطويل في الهواء كلما تحرَّكت في الكوخ. تلصِق شحنة كهرباء ساكنة على كل ما تلمسه؛ مقابض أوعية الطبخ، مقابض المكانس، ووجهي عندما تنحني عليّ. وتسأل:

- ألا زلت تزيّنين كرة الصيد القديمة نفسها؟ كيف يكون ذلك ممكنًا؟

ينتثر شعرها أثناء ابتعادها.

أزعجها أنني لا ألعب ألعابها، وأرفض أن أقرأ بصوت عالٍ أو أتزيًا كتنين في الخرق التي تلفها عليّ وتسميها ذيلًا. اعتادت أن تقول:

- زمجري!

تحاول إرغامي على ذلك، وتشد شعري. كانت تجعل عينيها حولاوين، في محاولة منها إغاظتي. تدفع لسانها إلى الخارج، وأستطيع أن أرى شريطًا أبيض كأنه طبقة من الرغوة على ذلك اللون الزهري.

حينها، كنت أُفكر أننا **نحتاج إلى معجون أسنان.**

وأضيفها في ذهني إلى قائمتي: **معجون أسنان، غسول للفم، وخيط التخليل بين الأسنان.**

أخبرتني أمي:

- عندما كنت في مثل سنك، كتبت رواية. قدمت مسرحية «**ماكبث**» في الحديقة الخلفية لمنزل والديّ، في عرض ضمَّ عشرين شخصية! فعليًّا، كانت نسخة مضحكة من تلك المسرحية.

جعَّدت وجهها وتحدثت بلكنة بريطانية مبالغ فيها:

- **اخرجوا، اخرجوا، أيها الأسكتلنديون الملعونون!**

انتظرت مني أن أضحك، لكني لم أكن متأكدة من الشيء المضحك فيها. ثم قالت ثانية، مع تنهيدة:

- هاك.

وناولتني صولجانًا صنعتهُ من غصن شجرة «بتولا» وألصقت به أوراقًا لامعة. رغبت بشدة في جعلي أثب فرحًا وأشارك في التمثيل، كي تثبت أني سعيدة لا يلحق بي أذى. أثناء تلك السنوات، ذهبت إلى الكنيسة في كل أيام السبت والأحد، إلى القداديس اللوثرية والكاثوليكية، وكذلك التي تضم

أشخاصًا من معتقدات دينية مختلفة؛ كي تغطي الأمور الأساسية عندها كلها. لم تطلب مني أبدًا مرافقتها. قالت إنها كانت ساذجة دينيًا. لم تستطع تحديد ما هو الأكثر أهمية: الأعمال الطيّبة أم نعمة الله. لم يستقر رأيها بشأن السر المقدس للدم[1]: لحم الإنسان أم المجاز الفارغ. وعندما تكون محبطة، تقول:

- كلاهما مقرف نوعًا ما.

ما تعرفه حقًّا وآمنت به بكل جوارحها أن مزيجًا من المدرسة الخاصة والتلفزيون أفسد عقلها وحطَّ من قدر مواهبها الطبيعية.

عندما يصل سخطها عليَّ إلى أقصاه، ترفع يديها المفتوحتين وتقول:

- انظري إلى الحرية التي تملكينها!

كأن كل خِرَقِها وحجارتها وأوعيتها المملوءة رملًا كنز من أندر الأنواع. كأنها اقتصدت العمر بأكمله كي تشتري كل تلك الخردة.

أحيانًا، كي أرضيها، أضع ذيل التنين الذي صنعتهُ وأخرج لأُدرّب الكلاب. وفي الصيف الذي بلغت فيه الثانية عشرة، كنت أنقل تدريبها من جرّ الزحَّافات إلى البحث والإنقاذ. نالت كل منها جائزة مختلفة: مجذافًا مكسورًا، خرطوم ماء مطاطيًا، كرة تنس عثرت عليها في ملاعب المدرسة.

كنت أطلقُ كلبًا في كل مرّة، وأطلب منه أن يبقى، ثم أختبئ خلف جذع شجرة. لكن ذلك كان سهلًا جدًّا. عثرت علي الكلاب كلها في كل مرّة. لذا، ذات ظهيرة صيف، وبعد تجربة الأماكن المألوفة كلها، هرعت إلى خلف المنزل، وتسلقت الجدار الخلفي للزريبة، مجرجرة ذيل التنين على ألواح أخشاب متكسرة. ثم أعطيت إشارة البدء بالبحث، بصفرة حادة، وراقبت الكلب «آيب» يفتش في أشجار الصنوبر العتيقة كلها، يتشمم صعودًا ونزولًا، ويركض في دوائر مذعورة حول الكوخ.

---

(1) إشارة إلى معتقد كنسي عن دم المسيح الذي ضحى فداءً للبشر كي تغفر لهم خطاياهم كلها. (المترجم)

حينها، لم يكن «آيب» كلبًا عجوزًا، لكنه بعد عشرين دقيقة كان يلهث بشدة، ويرشق لعابه في أقواس واسعة في الفناء. مرت نصف ساعة، ثم أربع وخمسون دقيقة. وجاشت الكلاب في قيودها مشاركة إياه ما يعانيه. من الأعلى، راقبت أضلاع «آيب» تنتفخ وتتقلص، راقبته وهو يكرر البحث في البقع عينها مرارًا وتكرارًا، وراقبته وهو يتعثر من شدة الارهاق.

جلست ساكنة على السطح. وعلى سبيل التجربة، وضعت فمي على الجانب المحبحب المزغَّب من كرة تنس حملتها في يدي. وفي اللحظة التي سبقت تجشؤي، قبل أن أختنق وأبصقها، أحسست بنشوة غريبة، كأن أحدًا رفعني إلى أعلى، كأنما ارتفعت بأجنحة.

قلت وأنا أسحب مزيدًا من أوراق الـ«تارو» من كومة على سجادة الميكانيكي في مدينة «سان بول»:

- حقيقةً، اسألني أي شيء.

كان اسمه «روم». له عينان زرقاوان براقتان، ساعدان بعضلات ضخمة، وكرش. وعندما يتثاءب يلمع في وجهي الزر المثبت في لسانه، فأدفعه في صدره.

- اسألني كم مرَّة تأكل الذئاب؟ وسأجيبك: كل أربعة أو خمسة أيام. إنها تصل حدَّ التضوُّر جوعًا، ثم تأكل بنهم كأنها...

- أعرف الإجابة عن هذا! الفتيات المراهقات.

- كأنها لن تأكل بعد ذلك أبدًا. الآن، اسألني، ماذا تأكل؟ اسأل.

هزَّ رأسه موافقًا، وتابع اللعب بالأوراق.

- الغزال ذو الذيل الأبيض. وكذلك الدود والتوت البري.

- دعي فتاة الكشافة تخرج. دعيها محشوة كلها داخل اللاوعي.

- والكلاب! هناك تلك البلدة الصغيرة في ولاية «آلاسكا»، اسمها «ميدل أوف نو ويرس فيل»[1]...

رفع حاجبيه، قال:

- إنها بلدتك الأصلية؟

- إنها تأتي ذات ليلة، وتأتي على كلب «لابادور» يمتلكه شخص ما. تلتهمه، هكذا. ثم في الليلة التالية، لا شيء سوى زوج من كلاب الأسكيمو، وهي لم تطلق حتى صوتًا. تأتي الضربة الأخيرة متمثلة بكلبة جميلة من نسل الـ«كوون هوند»، من تلك الحيوانات التي لها خطم طويل، كلبة ربحت استعراضات عدَّة. لقد أُكِلَت في أغلالها، لم يتبق سوى قلادتها، وأيضًا، كما تعلم، عظمة الفك والذيل.

- **عظمة الفك والذيل**. ذلك اسم ألبوم موسيقى.

- تأكل الذئاب معظم العظام. تلك معلومة صغيرة من فتاة الكشافة.

انحنى مقتربًا أكثر مني، وهمهم صوته في عنقي.

- إذًا، ماذا حصل في «ميدل أوف نو ويرس فيل»؟ من أنقذ بقية الكلاب؟

دفعته إلى الخلف:

- كلا! من أنقذ **الذئاب**؟ لقد أُطلِقت النار عليها جميعها.

في الخريف الذي ابتدأت فيه الدراسة في المدرسة المتوسطة، توقَّفَت أمي عن مناداتي بلقب المدير العام، وأخذت في تسميتي مراهقة. كان ذلك لأنني كنت أسرق دومًا مجلات من مكتب سكرتيرة المدرسة، وأقرأ مجلات «بيبول»

(1) الترجمة الحرفية للاسم هو «البلدة التي تقع وسط اللامكان»، وواضح أنه لا يشير إلى بلدة معينة، بل استعمل الاسم للدلالة على الإحساس المرافق لما يجري وصفه أو تذكره. الأرجح أن بطلة الرواية تتحدث عن بلدتها الأصلية وتصف مشاهدات منها لها علاقة بالذئاب. (المترجم)

و«يو إس» و«غلامور». أقرأ عن طُرق لتجفيف الشعر بالهواء فيبدو كأنما إعصار مرَّ بالبلدة، أو تلميع خصلات غُرَّة الشعر كي تبدو رطبة. أبدًا لم يكن لدي اهتمام بتجربة تلك المشاهد. ما أحببته فيها هو مراقبة كيف ينفك اللغز عن شيء غامض عبر خطوات متتالية متجمعة في جداول ورسوم بيانية. أو، عندما لا يكون في المكتب مجلات جديدة، أستعير من المكتبة كتبًا عن علم الكائنات الحيَّة القديمة التي عاشت في العصر الجليدي، وتاريخ الكهرباء. انجذبت إلى الرسوم البيانية عن تسريحات الشعر والهياكل العظمية، الرسوم بالحبر عن زوايا ومعادلات لم أكن أفهمها. لم ترني أمي أقرأ تلك الأشياء لأنني لم أكن أؤدي شيئًا تراه مثيرًا للاهتمام. بدلًا من ذلك، تكون منكبة على تجهيز أوعية المربى - أو كتابة مقتطفات من الكتاب المقدس على بطاقات مفهرسة -، وعندما ترمقني بنظرة عجلى تبدو كأنها تقرؤني مباشرة. لم أشاهد التلفزيون إلا بعد أن سكنت في «مينابوليس» مع «آن»، لكن بمجرد مشاهدته، أدركت ذلك الإحساس: أن تنظر إلى شخص لا يستطيع أن يبادلك النظرة بالنظرة.

أحيانًا، كانت تراني أقرأ، فتتطلع إلى الكتاب من فوق كتفي. ثم تهزُّ رأسها مندهشة وتسأل:

- هل هذا من أجل فرض مدرسي؟

أعرف أنها تريدني أن أكون جيدة في الدراسة، لكنها كانت تريدني أن أنجح على طريقتها: عبر احتقار العملية كلها. وكان مهمًّا لها أن تفكّر بأنني أحاول ذلك.

- أوه. أنت موشكة أن تصبحي أستاذة جامعية صغيرة، أليس كذلك؟ يجب أن نجلب لك أحد تلك الأردية الرسمية.

كانت تحدّق في رسم لديناصور من نوع «فيلوسيرابتور» في كتابي، تظهر عظامه مشارًا إليها بأسهم. بدا أن جزءًا منها متفاجئ، بل ربما مسرور، لكن جزءين آخرين كانا مستتفهين ومُحتَقِرَيْن. ضحكت:

- لا تنظري إليَّ بتلك الطريقة!

كنت في الثانية عشرة، وطوال حياتي، من دون قصد، أنظر إليها نظرات لا تعجِبها. اتسعت حدقتا عينيها أثناء نظرها إليّ:

- سيبدو شكلك مثيرًا في أحد تلك الأردية الرسمية، كأنك «البابا». أنا أمزح! اسمعي، أنا لا أقول إنه لا يوجد نظام على الإطلاق. ليس ذلك ما أقوله. ما أقوله هو أنه لا يوجد نظام على مستوى أعلى من المدرسة، وأنه من المفيد الاهتمام بالارتفاع النسبي للأشياء. الله، الإنسان، البيروقراطية، أوراق العمل.

تنهَّدَت:

- في المدرسة، عندما يقولون أنجِزْ ورقة العمل هذه، ثم التالية والتالية والتالية؛ يجب أن تري، من المهم فعليًا أن تري أن تلك الخطوات لا تذهب إلى مستوى أعلى من المدرسة. هناك نوع من مستويات أعلى زائفة. هل لذلك أيُّ معنى؟

ذات مرَّة، وجدت أمي مجلة «بيبول» على الطاولة، مفتوحة على مقال عن الأميرة ديانا. سألتني:

- ما هذا؟

لفترة ما، كنت مسحورة بحزنها، وأنها على رغم جمالها لم تستطع الاحتفاظ بكل ذلك الحزن في داخلها. قرأت عن طفليها الصغيرين، مغامرات زوجها العاطفية، معاناتها اضطرابًا نفسيًا بشأن الأكل، أزواج أقلام أحمر الشفاه التي تمتلكها، جواربها، وجزماتها ذوات الكعب العالي. عثرت على مقال بعد طلاقها أوردت فيه قائمة عن روتينها الصباحي الذي يشتمل على: فكِّري إيجابيًا حتى لو عانيتِ أحلامًا سيئة. بدا ذلك لي شجاعًا ومثيرًا للشفقة في آن معًا، ولاذِعًا. في المقابل، جعلت من أوراق «بيبول» الرقيقة نوعًا من الأحجية، قالت:

- هل قرأت ذلك المقال كله؟ لا أفهمك. ماذا يوجد في ذلك الشيء يستحق القراءة؟

ذات مرَّة، قبيل بداية الصف السابع، ذهبت إلى الحمَّام وكانت فيه «سارة» هاوية التزلُّج مع فتاة أخرى، تمشط شعرها وتضع «جِلًّا» لامعًا عليه. تلك كانت «ليلي هولبُرن» التي بدت متفاجئة. امتد شعرها الزلِق كالوتد من ظهر عنقها. عندما رأتني، قالت «سارة»:

- أوه، إنها «المخلوق غير الطبيعي».

لكنها بدت مهتمة أكثر من كونها متقززة، وتفتش في وجهي عن علامة الفقاعة المنتفخة. لم يكن هناك من شيء خلا - ربما - بقعة على وجهي بِلَوْنٍ أفتح قليلًا من بشرتي.

ضغطت ليلي على إحدى عينيها لتبقيها مغمضة، فيما خيط من الـ«جِل» يتسرب على جبهتها. وبحذر قلت:

- هاي.

كنت أعرف أنه يتوجَّب احترام «سارة». سمعت أنها أنجزت قفزة تزلج خلفية لولبية مزدوجة، وحطَّت على رجل واحدة، بعد استدارة كاملة في الهواء؛ وصدَّقت ذلك. كان جسدها أشبه بغصن رطب بلا أوراق، عضلاتها المشدودة تحمل نوعًا غرائبيًّا من حدَّة سريعة تبدو ميكانيكية وخطيرة قليلًا. وافترض الجميع أن القفزات الثلاثية تلوح دومًا في أفق مستقبلها، تتبعها بطريقة سحرية أينما ذهبت، متدلية في متناول يديها. قفزات التزلج الثلاثية الدورانية من نوع «سالكو»، القفزات الخلفية الثلاثية، السقطات الثلاثية الدورانية، السقطات الخلفية الدورانية الثلاثية. ويترجم ذلك ببطولات على مستوى البحيرات العليا الكبرى، مسابقات ولايات الغرب الوسطى، المسابقات الوطنية والعالمية.

من ناحية ثانية، لم تكن ليلي من الناس الذين يُنظر إليهم كرياضيين. ومع ذلك، صادقتها «سارة» في الشهور التي تلت موت أمها، وأقنعتها مع فتاتين أخريين متوسطتي الجمال، وهما شقراوان، بالانضمام إلى التزلج الإيقاعي. لم يكن اهتمام «سارة» نوعًا من الصدقة. ورغم أن ليلي لم تعد

تسمَّى بالهندية، إلا أن أحدًا لم يعد يسميها بالمتخلفة أيضًا. أخبرتها «سارة» بأن مهرجي الـ«لونيت»[1] يحتاجون أناسًا يتمتعون **بهيئة لائقة**، يبتسمون على الدوام.

قصدت أن يكون لديهم **أثداء**.

كان ذلك سبب وقوف ليلي في حمام الصف السابع، تغوص في شعرها يدا «سارة» المشحمتان. قالت «سارة»:

- لا تنظري إلى «المخلوق غير الطبيعي».

وكنت أحاذيهما متوجهةً إلى الحجيرة.

- يعذبها والدها، لك أن تعرفي، كي يلهو. ذلك ما يفعلونه في تلك الطائفة التي تربت عندها. يحرقون وجهها بالشمع. يجبرونها على التبول في الخارج كي لا تعرف استخدام التواليت.

التقت عينا ليلي البنيّتان بعيني في المرآة. تملكني شعور بأني أنظر إلى نفسي، وعندما رأيت وجهي النحيل قرب وجهها، أجفلت. قالت ليلي بتحوط:

- بالنسبة لي، يبدو وجهها سليمًا.

مالت ليلي بجسمها إلى الأمام، لذا، شدت «سارة» شعرها إلى الخلف فبدا كأنه رسن.

- لقد رأيت ما يفعلونه! هل رأيته؟ هل فعلت ذلك؟

قالت ليلي مُقِرَّةً:

- كلا.

لم أقل شيئًا. على أرضية الحجيرة، انتثرت بقايا التبديل السريع للملابس. جينزات، حمّالات صدر مبطنة، لفَّة فيها زوجان من السراويل الداخلية باهِتًا

(1) هناك أشرطة رسوم متحركة كوميدية بثت تلفزيونيا في أميركا بين عامي 1992-2006 شخصياتها تشبه الدمى المتحركة، وتضم شخصية تلفزيونية إسمها المهرج «لونيت». (المترجم)

البياض. ركلت الكومة بإبهام قدمي. جلست على المرحاض، لكني لم أتمكن من التبول.

هسسسس- هسسسس. على ذلك النحو كان صوت «سبراي» الشعر، واستمر وتكرر من دون تغيير. كانتا تصغيان. وعندما خرجت مُهانةً وبمثانة ممتلئة، همهمت ليلي قائلة:

- آسفة. بشأن الملابس.

شرعت «سارة» في رش وجه ليلي:

- لا تتكلمي مع «المخلوقات غير الطبيعية». أغلقي عينيك!

فعلت ليلي ذلك، لكن عيني «سارة» التقت عينيَّ أثناء غسلي أطراف أصابعي تحت الحنفية. كانت نظرة شبيهة بتلك التي تعطيني إياها الكلاب عندما يكون لديها عظمة مكسوة باللحم في زاوية الزريبة.

بدأت ليلي في فتح عينيها. قالت «سارة»:

- لنغنِّ أغنية «جندي من صفيح»[1].

عندما لم تشاركها ليلي، لكزتها «سارة» على قصبة رجلها كي تحفزها على ذلك. قالت:

- عليك أن تؤمني بالأغنية.

في الصباح الذي عَمَّدَتني فيه أمي قالت :

- أتمنى لو أني أؤمن بهذه القذارة.

كنت في السادسة أو السابعة من العمر. سقط على وجهها خيط ضوء مائل آتٍ من المدخل. تساقطت مياه البئر باردة على ظهري. سألت وأنا أرتعش:

- أي قذارة؟

(1) من أغاني مناهضة الحرب في حقبة الستينات في القرن العشرين. (المترجم)

- هكذا. لا مزيد من قول كلمة قذارة، أتوافقين؟ يا طفلتي، لقد أصبحت الآن إناء أرز جديدًا. أنا أعيد تشكيلك مجددًا، من الصفر.

قلت لها:

- لست جائعة الآن.

ضحكت وساعدتني على الخروج من المغطس المعدني.

- كل ما يتوجب عليك فعله يا حبيبتي، كل ما يتوجب عليك فعله هو أن تكوني طفلة. افعلي ذلك، وسأشعر بالراحة.

سألتها:

- متى تعود «تامِكا»؟

- طارت من القفص مع الآخرين.

فكرت في ذلك. كيف أننا انطلقنا معًا كالبط الغوَّاص بأفكارنا وحدها، في الطريق السريع. آنذاك، كدنا أن نطير من القفص، لولا أنهم أرسلوا في أثرنا ذلك الصبي الكبير.

- هيّا، لا تنظري إليّ تلك النظرة.

أدارتني أمي من كتفيّ، ودعكت ظهري وعنقي بمنشفة خشنة.

- ألا تشعرين أنك نظيفة، على الأقل؟

قلت:

- أُشعر بالبرد.

- اشعري أنك نظيفة، ولو لمدة ثانية. موافقة؟ أقله، اشعري أنك بخير.

كانت تبكي حينها، أستطيع قول ذلك. لم أكن قبالتها، لكنني أستطيع سماع أنفها يمتلئ بالمخاط.

- ها نحن نبدأ ذلك مجددًا، أنت وأنا. أحاول أن أكسب الربَّ إلى جانبنا، أن أفعل الأشياء بشكل مختلف، كي تستطيعي أن تكوني طفلة سعيدة مرة أخرى. أفهمت ذلك؟ هل تستطيعين أن تكوني طفلة عادية ولو لثانية واحدة؟ من فضلك.

لم أكن واثقة ما الذي أستطيع فعله، غير ما أفعله. توسَّلَت إليَّ قائلة:

- «ما مدى صعوبة الابتسام مرة واحدة؟». ثم زحفت حولي على ركبتيها وكفيها، وصارت في مواجهتي. عثرت على كوب القياس، ووضعته على قمة رأسها، ورفعت يديها إلى الأعلى. تنهدت قائلة:

- **سحر**.

ثمة دموع على وجهها، ابتسامة بشفاه متصلبة، وشعر صار يبتل بالماء الآتي من الكوب. بعد برهة، ارتطمت قبعة القياس، بالأرض. قالت محذّرة:

- الحل الأخير.

دغدغتني تحت إبطي، فتلويت لأبتعد. أطلقتني وقالت:

- الآن، كم كان ذلك صعبًا؟

كنت أتنفس أسرع فأسرع، مُحاوِلَة أن يغدو ذلك ضحكًا.

سألت «روم»:

- لماذا يحمل «المجنون» حقيبة ظهر جبلية؟

جذبت السجادة الزرقاء كأنها عشب، وحركت يدي إلى الأمام والخلف. تأخَّر الوقت. فرغت زجاجات البيرة لدينا، واختفى طبق الـ«بوريتو». هزَّ كتفيه:

- إنه شريد. إنه مسافر.

- ما هو الجنون في ذلك؟

- حسنًا، إنه يسير إلى خارج حافة الجرف. ذلك واحد من الأشياء.

لم أرَ ذلك. نظرت إلى الكارت ثانية، ووجدت ذلك صحيحًا. تدلت قدم «المجنون» فوق الجرف، لكن عيني «المجنون» مغلقتان. كان يسير بلا انتباه؛ **لا- دي- دا**.

اقترب «روم» مني وانحنى عليّ. استطعت أن أشم رائحة «بوريتو» في أنفاسه.

- لكنه ليس أمرًا سيئًا كليًا أن تتركي نفسك للسقوط. أتجربين؟

قبَلني بفم مفتوح، دافعًا ظهري ببطء إلى السجادة. تجوّل المسمار المعدني المثبت في لسانه متحسّسًا لثتي. فكرت أن ذلك أعطاني إحساسًا طيبًا. أعطى ذلك الأمر إحساسًا بأنك شخص مرغوب.

قلت، إذ فهمت مقصده:

- انتظر!

خرجت من تحته:

- لست «المجنون».

- لكنك لن تبقي، أليس كذلك؟

وقفت، وسويّت بنطلون الجينز الملتف.

- ليس الليلة بأكملها، إذا كان ذلك ما تقصده.

- أقصد على نحو دائم.

كان ثمة حدَّة في صوته، لم أتوقعها.

- ستعودين إلى بلدة «ميدل أوف نو ويرس فيل» المزرية، في نهاية المطاف.

قلت:

- كلا، كلا.

لكن، فيما التقطت سترتي عن الأرض، وفيما كنت أعيد إلى الكيس اللزج أوراقًا كانت قطع الـ«بوريتو» ملفوفة بها، وجدت نفسي أضيف ما يلي:

- أمي لا تعرف حتى أنني هنا. انفصلت عنها بعد وفاة والدي من دون إخبارها بشيء.

قال:

- إنها مذنبة.

استدرت وقلت:

- أمي؟

- كلا، بل المسافرة. الفتاة مع حقيبة الظهر الجبلية خاصتها.

قلت:

- دعك من ذلك. أنت لا تعرفني.

هزَّ كتفيه:

- امضِ، أيها «المجنون».

في الليلة التي عُدت فيها من «احتفال السفن الطويلة» في «دولوث»، بقيت راقدة في عليّتي وقتًا طويلًا، فيما جذب الضوء في الأسفل الحشرات والذباب والبعوض. زحفتْ عبر شقوق في الستائر، عبر نُقَرٍ صغيرة في أطر الباب والنافذة. جلسَت أمي إلى الطاولة في الأسفل، منتظرة أن أنزل وأتحدث معها. أمكنني سماع انتقال وزنها، وألواح خشب الصنوبر في الأرضية تصِرُّ تحتها. أمكنني الإحساس بأنها تريدني أن أنزل، أن أترك الجاذبية الأرضية تمسكني من كاحليّ، أن أجلس معها وأحدثها عن «دولوث». أرادت مني أن أرغب في أخبارها عن بترا والعائلة - أخيرًا - كي تتمكّن من إزدرائهم وتسفيه قيم الطبقة الوسطى لديهم، وأن تفتخر بي في الوقت نفسه لأنني استطعت تدبر أمري جيدًا، وعرفت كيف يسير العالم، ولم أحاربه كما فعلت هي. أمكنني الإحساس بأنها تنتظر ذلك. لو أني فعلت ذلك، لو أخبرتها عن الحساء في مطعم «دِنيز» والفندق ذي اللون الكستنائي- الأبيض؛ لاعتبرت عائلة «غاردنر» أناسًا تافهين وسطحيين، بالكاد عاديين. بل لربما قالت:

- لا تنظري إليَّ تلك النظرة.

لسألت:

- ما هذا الذي في شعرك؟

لكانت لاحظت بسرعة طوق الشعر، وسخرت منه، وسمتني مراهقة.

ذلك ما كنته. ماذا يمكنني أن أكون سوى ذلك؟

لذا، تصرفت كمراهقة. هناك نافذة في العليَّة، مربع صغير من الزجاج، كنت أبقيه مفتوحًا صيفًا بأن أحشرفيه قطعة من خشب الصنوبر. بعد نوم طويل،

دفعت النافذة لأفتحها، وتأرجحت خارجًا - كنت آنذاك نحيلة تمامًا - وجذبت نفسي لأقترب من شجرة صنوبر تهتز ببطء، خلف الكوخ. ثم تمايلت بجسمي وقفزت بضع أقدام على سطح الزريبة. ربما سمع والدي ذلك وظنه غصنًا يسقط أو أحد حيوانات الـ«راكون». لم يكن ليأبه بأصوات كتلك التي أُحدِثُها: جسم بوزن تسعين رطلًا يسقط في ليلة عادية في الغابة. كان ذلك لا شيء. أنا كنت لا شيء. منعت نفسي من النظر صوب منزل آل «غاردنر» الذي كان من شأن أنواره أن تفسد قدرتي على الإبصار في الليل. تركت لليل أن يفعل ما يفعله بعينيّ. تدريجيًّا، تغيَّرت أشكال الأشياء في الظلمة. برزت أغصان حقيقيَّة من ظلال الأغصان، وبرزت سُحُب كثيفة، ووجدت طريقي بسهولة بعيدًا عن الزريبة. في البداية، أردت ببساطة أن أصنع مسافة بين الكوخ وبيني، فتحرَّكت صوب البحيرة بحكم العادة. لكن، بمجرد الوصول إلى هناك، كان قارب أبي «الكانوي» من نوع الـ«وِنوناه» الممتاز ينتظرني كي أستقلَّه.

كما آلاف المرَّات، أحسست بالتقدير للقناة الخالية من الأمواج التي يستطيع قارب «الكانوي» أن يمتطيها إلى أي مكان. بالكاد رفعت المجداف، وتحركَ القارب من تلقاء نفسه.

سألني «روم»:

- أتعرفين ما كان «يونغ» ليقوله؟

وقفت ببابه حاملة كيسًا من الـ«بوريتو».

- إن النموذج الأعلى لـ«المجنون» هو «بيتر بان»[1].

واستعمَل لهجة بريطانية في قوله تلك الكلمات. وصدر صوت خشخشة من أنفه. قلت:

---

(1) شخصية خيالية في قصص الأطفال في الغرب: طفل يملك القدرة على الطيران، وهو لا يكبر أبدًا، بل يبقى طفلًا طيلة العمر. (المترجم)

- مجرد ثرثرة.
- إنها حقيقة. فتاة الكشافة شابة تلبس حذاءً برأس مُذهَّب، تصطحب حيوانًا أليفًا، ومعها وجبة غداء.

أقفلت سحَّاب سترتي، وضممت كيس نفاياتي. أحسست بأني هوجِمْت، وكذلك رثيت له.

- قلت إنكَ تريد أن تعرف ما حدث معي في الماضي، وليس المستقبل المزري.
- إنهما الشيء نفسه، في هذه الحال.

13

كان المنزل عبر البحيرة أشد ظلامًا مما اعتقدت، وسماء الليل أكثر ضياءً، والليلة الحقيقية ستبدأ لاحقًا؛ وهي أمور لم ألاحظها إلّا تدريجيًا. دفعت مجذافي عميقًا في مياه مرقّطة بأوراق الشجر. كان الوقت هو شهر يونيو (حزيران)، لكن الخريف بدا كأنه قدم فعلًا ليخرّب أشجار الحور الرجراج القليلة. كنت مرتدية الملابس التي أعددتها لقضاء يوم في «دولوث». لم أنزع حذائي التنس في العليّة، ولا بنطلوني الجينز الجيّد الذي أحسست أنه يضيق على خصري كلما ضربت بالمجداف. طوق شعر بترا ينبض فوق رأسي، بنبرة حزينة.

أرجوك، أرجوك، أرجوك. ذلك ما شرع يردده، أثناء استمراري في التجديف. لم أعتزم الذهاب إلى مكان ما، بل أردت المغادرة، ببساطة. وبعد دقائق قليلة هادئة، وضعت المقبض الخشبي على ركبتيّ، وتركت نفسي أنزلق. كان صدغاي ينبضان. حينها، تحرَّك الوجع من رأسي إلى فكي وجمجمتي، وجعلني أُحسّ بمغص، جعلني أدرك أننا لم نتوقف لتناول وجبة عشاء في طريق عودتنا من «دولوث». كان الفطور والغداء معًا، بضع عناقيد صغيرة من الفراولة. عندما وعيت ذلك، وأدركت أني لم أتناول طعامًا فعليًا طيلة اليوم، بدأت أشعر بأني مريضة. اجتاحني ذلك الشعور بضربة واحدة. يمكنني القول بأن ذلك الشعور كان يحوم حولي لساعات، منتظرًا أن أصبح وحيدة في البرية المفتوحة، في البحيرة، قبل أن يهجم عليّ. كنت دائخة، مع تشوش في رأسي. وعندما رسا القارب على الشاطئ كان العالم بأسره يتمايل

عندما أنظر حولي. بحيرة «ستِل ليك»[1] لم تعد هادئة.

نزلت من القارب بحذر، ممسكة بالجانبين كليهما بيدي. ورغم أني لم أُخطط لذلك، فإنني لم أفاجأ الآن بأني أتسلق الصخور الرطبة تحت الحافة الخشبية الخارجية لمنزل آل «غاردنر». بالكاد كان في رأسي فكرة ما.

لم يكن سوى أني جائعة ومتعبة ومرتدية ملابسي كاملة، غير راغبة في العودة إلى الكوخ، إلى أمي بيدين فيهما دبق الإجاص.

انسللت صوب المدخل الأمامي.

كلا، لم أكن أفكر في بول، وفق ما أخبرت البوليس لاحقًا. كنت أفكر في أن أجد لنفسي شيئًا ما آكله. تصوَّرت أنه بإمكاني الذهاب إلى الباب الأمامي - لم يكن ليغلق أبدًا - وأحصل على بعض من كعك «بريتزل» المخصص لـبول من الخزانة. عرفت أنه باستطاعتي فعل ذلك من دون إيقاظ أحد، أن أمضغ من دون صوت، وأغادر من دون أن يلاحظ أحد ما حصل. لكن، ما إن خطر برأسي ذلك - «بريتزل» وربما لوح «غرانولا» - حتى أدركت أني أريد أكثر، أني أقدر على فتح الثلاجة كي أتناول مباشرة من علبة الجبنة البيضاء، وأتصيد آخر قطعتي مخلل بأصابعي، وأشرب كل ما تبقى من حساء بول من طبقه. أستطيع فعل ذلك كله، وربما أيضًا الذهاب إلى غرفة الحمام المعتمة والتبوُّل (بصمت، نقطة نقطة)، وأضع في جيبي لوح صابون نصف مستعمل برائحة الـ«لافاندر»، آخذ خليوي بترا من سطح المكتب، وأحشر مخطوطة ليو تحت قميصي. أحسست بشيء من خفة الطيش في تلك الفكرة. ألم أكن خططت لذلك منذ زمن طويل؟ فجأة، بدا كأني فعلت ذلك. لكن، بالطبع لم تكن خطة حقيقية بالمرَّة، مجرد ذلك النبض في رأسي، ذلك التوق المزمن لآخذ أكثر بكثير مما يبدو معقولًا.

فِ- في- فُ- فوم، فكرت في تلك الكلمات فيما أدرت المسكة الباردة للباب، ودخلت.

---

(1) تلاعب لفظي على الاسم الذي يعني «البحيرة الهادئة». (المترجم)

كان صعبًا تبين معالم الغرفة الرئيسية في الظلام. رأيت أولًا النوافذ المثلثة الكبيرة، ومنها حزمة صغيرة من الضوء ارتحلت من منزل والديّ المُضاء. بحكم العادة، نزعت حذائي التنس، وأسندته إلى الحائط.

بدأت بالسير صوب الخزانة، مرتدية جواربي. كنت أفكر في الوجبات الخفيفة الموضوعة في حزمات مجعدة. كنت آملُ بالعثور على ألواح «غرانولا» من الحبوب وزبدة الفستق، التي تقبع مرتاحة في العلب. أصدر مفصل باب الخزانة صوتًا مبحوحًا، وأنا بمثل سرعة وصول العلبة إلى يدي، أغلقت الخزانة؛ عندما صعدت موجة تنميل في قفا رقبتي.

- ليندا؟

استدرت.

كانت بترا جالسة في العتمة على الأريكة. نهضت ببطء، ارتسم رسم قامتها بظل قاتم على النافذة، وأنا تملكني تفكير شاذ عابر بأني إذا لم أقل شيئًا، إذا تجمدت مكاني، فلسوف لا تراني.

- أهذا أنت؟

بقيت ساكنة ولم أتحرَّك. قالت:

- أوه، يا عزيزتي.

لم ترتدِ سوى قميص «تي شيرت»، وبدت رجلاها العاريتان باهتتين في الظلام، كأنهما أغصان شجرة «بتولا». لم تأبه لأن تقرّب طرفي القميص فوق فخديها، فيما عبرت الغرفة.

- ماذا هناك؟ انتظري... نسي ليو أن يدفع لك، ألم يفعل؟ أو أنك نسيت حقيبتك في السيارة؟ واأسفاه، ليندا. رأيتك قادمة عبر البحيرة. راقبتكِ وظننت - راودتني هذه الفكرة - لقد جاءت لتنقذنا، هذه الفتاة في قاربها. أليست غريبة تلك الأفكار التي تأتيك في العتمة؟ أليس طريفًا كيف يتقلب الفكر صعودًا ونزولًا، فلا تعرفين إن كنتِ نائمة أم لا؛ وتفكرين: تلك الفتاة، تلك الفتاة المجنونة في قاربها

«الكانوي» جاءت لتجذف بنا جميعًا في القارب وتأخذنا إلى مكان ما. همستُ:

- تجذّف تبادليًا.

سألتْ:

- ماذا؟

- تجذفين في قارب، تجذفين تبادليًا في «كانوي».

- أيًّا كان. نعم.

وضعت يدًا على رأسها، فانحسر «التي شيرت» إلى فوق سروالها الداخلي.

- أهذر بالكلام. لا بد أن النعاس طغى عليّ، قبل أن أنظر عبر النافذة وأراك. هل نسي ليو أن يكتب شيكًا؟ أم أنك قدمت من أجل شيء آخر؟

لِمَ جئت؟ قرقرت معدتي بصوت مرتفع، وأثناء ذلك صرت قادرة على تبين تفاصيل الغرفة أكثر. رأيت سلة التنزه على سطح المنضدة، الهاتف الخليوي في يد بترا، والطريقة التي كانت تطرق بأصابعها عليه بصورة لا إرادية أثناء تطلعها إلى وجهي، أثناء انتظارها شرحًا. التمع خيط ضوء تحته، وفيما أدارت بترا رأسها، فيما تتبعت نظري، تنبّهت لصوت ليو خلفها متحدّثًا بهدوء.

مدَّت بترا يدها إلى مفتاح الإنارة، واكتسحني ذعر قديم.

- انتظري...

- نحن جميعًا مستيقظون، كما أظن. لنقرَّ بذلك أيضًا.

كان جزءٌ مني ما زال راغبًا في أن أنصرف من دون أن يراني أحد.

- ولكن... لم يتمكن أحد من النوم هذه الليلة...

فُتِح باب غرفة بول وخرج منه ليو. نقرت بترا زرَّ الإنارة، وصرنا نُحدّق ببعضنا بأعين ضيِّقة، في السطوع المفاجئ للضوء. وقف ليو بعيون مفتوحة، متفاجئًا - لكن، ليس ممتعضًا - برؤيتي. كست نظرة رعب وجهه لبرهة، وقال:

- ماذا؟

فكرت في ذلك الصباح عندما رأيته للمرَّة الأولى، مع فأس عندما دخل إلى المنزل. حينها، اعتبرني غير مؤذية، وبالكاد جديرة بالانتباه. صافح يدي، وقدَّم نفسه، وسكب كأسين من العصير لكلينا. الآن، كان يتصرَّف وكأني مصدر خطورة محتمل، وربما كنت كذلك - ربما أردت أن أكون - لكن ليس بالطريقة التي يظنها. بتكتم، وضعت صندوق ألواح الـ«غرانولا» على المنضدة خلف سلة التنزه. شبكت ذراعيَّ. سأل:

- ليندا؟

قالت بترا:

- نسيتَ أن تدفع لها؟

- هل فعلت؟

كان يراقبني قصدًا. بدا موشكًا على إعطائي لقبًا ما كي يفضح شيئًا من دون إعلانه، ثم بدا أنه تدبَّر أمرًا أفضل من ذلك.

- نعم فعلت. أعتقد أنني نسيت.

ومثلي، كان مازال مرتديًا ثياب النهار - شورته الكاكي وقميصه المحشور تحت حزامه - لكنه ارتدى أيضًا نعليه الأسودين. شرعا يصفقان بحرية أثناء تحركه في الغرفة، متجهًا إلى الطاولة كي يكتب شيكًا.

جاء صوت من الغرفة الأخرى، صراخ أو دمدمة. أوضح ليو المنحني على دفتر الشيكات:

- إنه جائع. أعتقد أننا سنتناول فطائر. إنها إحدى الأطعمة التي لا يرفضها أحد. إنه مستعد لتناول وجبة الفطور.

لم يكن ممكنًا أنها تجاوزت الحادية عشرة. كانت سماء الليل منيرة عندما جذفت تبادليًا بقارب «الكانوي» عبر البحيرة. تجمَّعت سحب رمادية في قطع متفرقة قرب القمر. على الأقل، تكاد أن تقارب منتصف الليل الآن، لكن لبرهة بدا ممكنًا أني فقدت خيط متابعة الوقت، وأن الليلة كلها مرَّت من دون أن أحس

بذلك. هل غفوت في العليّة؟ هل كان فجرًا ما رأيته في السماء؟ بدت بترا بمثل ارتباكي وتَشوُّشي:

- فطور؟

حدَّق من فوق المهمة التي كان منكبًّا عليها.

- نعم. ما زال الوقت مبكرًا، لكن ليس كثيرًا جدًّا. هل كُتب في مكان ما أنك لا تستطيع تناول فطورك مبكرًا قليلًا؟ من كتب ذلك القانون؟

نزع ورقة الشيك، وناولني إياها. قال:

- هاك.

رأيت أنه كتب لي مئة وخمسين دولارًا. كان ذلك أكثر من أي نقود رأيتها دفعة واحدة في حياتي، ومع ذلك كانت ضعيفة، وأقل قوة كثيرًا من ورقات العشرة دولارات التي أعطتها بترا لي. ترك السطر المخصص لاسمي فارغًا.

- لندع ليندا تمضي في طريقها.

بطريقة غير متوقعة، أمسكت بترا بذراعي:

- لم لا تبقين معنا لتناول الفطور؟

قال ليو محذِّرًا:

- كان يومًا طويلًا، طويلًا، بالنسبة لها.

اشتكت بترا:

- كان يجب أن نتوقف في طريق عودتنا إلى المنزل. ما كان اليوم ليغدو طويلًا لو أننا توقفنا.

- كان نائمًا. من الجيد له أن ينام.

- لكنه جائع الآن؟

أخبرها ليو:

- أعتقد أن باستطاعته أكل حصان. ولأنه نام اليوم بأكمله، أعتقد أنه مستيقظ الآن. إنه مستيقظ ويروي قصصًا.

بصوت متكسر قالت:

- ذلك أمر جيد؟
- ذلك أمر جيد.

أمسكها بيد واحدة، سار بها إلى الأريكة، وأجلسها. ثم انحنى أمامها، وقَبّل وجهها؛ المرَّة تلو المرَّة، قَبّل خديها، التجاعيد على جبهتها، والنمش على جفنيها. كانت لا تزال تضغط على الهاتف الخليوي بضربات إبهامها، لكن أمكنني أن أحسَّ بأن شيئًا ما فيها أخذ يهدأ، كما يحدث عند وضع اليد على أغطية السرير بعد ليلة سيئة طويلة. لم أرَ ليو على ذلك النحو من قبل، وكان فاتنًا رؤية ذلك. أزاح بيده شعرها عن وجهها، بتلك الطريقة التي رأيت بترا تزيح شعر بول عن وجهه. بنعومة، قال لها:

- إذًا، وفق ما أظن، لنتناول الفطور، صحيح؟ لنبدأ الغد مبكرًا. ليس مكتوبًا في أي مكان أنه ليس باستطاعتنا فعل ذلك.

سألت بترا:

- إنه الغد؟
- أوه، نعم. أوه، نعم.
- ونحن نبدأ بتناول الفطور؟
- فطائر وعصير وفراولة وحليب.

عندها، امتلأ فمي باللعاب، وذهب ليو إلى المطبخ، وشرع في إخراج الأوعية والمقالي. توقَّف هنيهة ليشغل اسطوانة مدمجة. سأل:

- قليل من الموسيقى؟

ثم أزهر بثبات عزف كلاسيكي وآلات وترية، وانتشر في الغرفة. وضعت بترا التي كانت تحدّق بمدخل غرفة بول هاتفها الخليوي على الطاولة.

ما إن غادر الخليوي يد بترا، حتى بدأ ليو يسترخي. قال لي وهو مازال في المطبخ:

- حسنًا، مع السلامة ليندا.

لم ينظر أبدًا باتجاهي، مسلّمًا بأنني في طريقي للخروج من الباب. كانت عيناه مثبَّتتين على بترا، على مشيتها الغريبة المتوترة من الأريكة إلى القاعة. خاطبها فيما حمل إناء في يده:

- ربما لا يتوجَّب القلق بشأنه الآن.

- لكنه مستيقظ؟

- إنه بخير.

أعادت النظر إلى ليو:

- أهو مستيقظ؟

- استيقظ قبل دقائق قليلة. كان جائعًا حتمًا. طلب **فطورًا.**

إذًا، الفطور هو ما أعدَّهُ ليو. شغَّل كل الأضواء في الغرفة الرئيسية والمطبخ، وتنقَّل في المكان ضاغطًا على كل مفتاح كهربائي. ملأ وعاءً بالماء كي يدفئ زجاجة العصير، وفي دقيقة أو اثنتين، قلَّب خليطًا ذهبيَّ اللون ثم جعله موزَّعًا في بقع تنداح في المقلاة، مع فقاعات على سطحها. وأثناء فعله ذلك، أثناء تربيته على الفطائر بطرف ملعقته المسطحة، استمر في الضغط عليَّ بهدوء كي أغادر. قال:

- هناك الشيك خاصتك ليندا. شكرًا جزيلًا، مرَّة أخرى.

فيما ملأت الرائحة الكعكية للفطائر الغرفة، قلت:

- لا مشكلة.

- كان وجودك مساعدة ضخمة، كما تعرفين. مساعدة ضخمة، ضخمة.

ابتسم من دون أن يرفع بصره، وكانت جبهته تشع تحت تأثير البخار. عرضت أمرًا:

- دعني أفعل شيئًا ما. دعني أسكب الحليب.

- جميل منك حقًّا قول ذلك! لكني واثق أنك متعبة.

قلت:

- ليس فعليًّا.

- لقد قمتِ فعليًا بالكثير.

سألت:

- ألا تملك ما يكفي من خليط الفطائر لأنال حصة منه؟

- لم أقصد ذلك. مجرد أني أظن أن والديك ينتظرانك.

- هل يثقل عليكم وجودي هنا؟

تقلَّصَت عضلة في وجهه:

- كلا. انظري، كنا نحب لو أنك بقيت، لكن...

فوَّت عليه فرصة خداعي. وضعت أربعة أكواب على المنضدة، فتحت علبة الحليب، وملأت الأكواب الأربعة كلها. أخرجت حزمة صحون من الخزانة، وحملتها إلى الطاولة. وأثناء فعلي ذلك، أتى القطَّان كأنما من لامكان، وأخذا يمسحان كاحلي بوجهيما. تجمع بخار آتٍ من مقلاة ليو على النوافذ كالضباب، ولم يعد بإمكاني رؤية الخارج.

وداعًا للغابات، هكذا فكرت. **وداعًا للعالم**. كانت الفطائر تسخن، والقطط تموء، والماء يغلي حول زجاجة العصير. نسجت الموسيقى الكلاسيكية شباكًا بذهابها وإيابها في الهواء. وضعت شوكات وسكاكين، مناديل ورق، وطبقًا من الزبدة المقطعة. وعندما استدار ليو معطيًا لنا ظهره، انحنت بترا إلى داخل غرفة بول، ممسكة إطار الباب بيديها. ثم أخرجَت رأسها، وجابت الغرفة بقدمين عاريتين، سوَّت الوسائد، أعادت ترتيب الكتب، وطوت البطانية.

بغتةً، استدارت إلى ليو وإليَّ في المطبخ:

- يا لها من فكرة جيِّدة. صحيح؟ فطور.

أضافت:

- وليندا هنا!

اقتربت وعانقتني وشدَّت عليَّ، فاستطعت أنْ أحس بذقنها الحاد مدسوسًا في كتفي. بترا الصغيرة القامة أقصر مني بإنش واحد، مرتدية «تي شيرت»، كانت

مجرد أطراف، باردة كليًا، وجلدها رطب. ثم بسرعة كتلك، ابتعدت عني، وقبَّلَت ليو في مؤخرة رقبته. وقفت على أطراف أصابعها، قالت:

- ليو أكبر حجمًا.

أمكنني رؤية أن طاقة ما، تكاد لا تستطيع احتواءها، تتدفق فيها. كانت حركاتها كلها حادة، مملوءة بحيوية فائضة، كأنها تقاتل كي تحتوي شيئًا ما في نفسها.

سارعتْ إلى غسل الملعقة المسطحة التي يستعملها ليو لمزج خليط صنع الفطائر. غسلتْ وعاء مزج الخليط، ومسحت المنضدة بمنديل ورق. وعند نقطة ما وبذهن شارد، أخذت بيضة من الكرتونة وضغطتها في قبضتها فكسرتها.

سألت:

- ما الذي أفعله؟

وحدقت في يدها المملوءة باللزوجة. لكنها، بدت كأنها تضحك، وقالت متعجّبة:

- يا للفوضى!

وفركت يدها بمنشفة تجفيف الأطباق، ومسحت بقوَّة كل إصبع من أصابعها. ثم أخذت نفسًا عميقًا مُهدئًا، وجلست إلى الطاولة. قالت:

- حسنًا، أنا أتضور جوعًا. أين تلك الفطائر؟

حملت إلى بترا كأس الحليب، وفيما ذهب ليو ليجلب بول، كومت الفطائر في أطباقنا. عاد ليو بعدها بثوانٍ، مبتسمًا مباشرة إلى بترا - ابتسامة عريضة تمامًا إلى حد أن شفتي بترا تقوستا إلى الأعلى أيضًا، قليلًا - وقال:

- الملك الصغير يريد تناول فطوره في سريره.

لذا، استدار ليغادر ثانية، حاملًا طبقًا وكأسًا من الحليب. وعندما وصل منتصف الغرفة، استدار برأسه إلى الخلف:

- توليت الأمر يا «باتي». كُلي.

رأيتها تعاود الجلوس.

من دون أن تنطق بكلمة، أخذت قطعة من فطيرة ووضعتها في فمها. فعلت الأمر نفسه. كنت جائعة جدًّا، والفطائر دافئة جدًّا وناعمة، لكن في منتصفها بقعة لزجة من الخليط. باستطاعتك أكلها من دون مضغ، باستطاعتك وضع الكثير منها دفعة واحدة في فمك، وتقريبًا، باستطاعتك شربها. استمررت في أخذ قطع ووضعها في فمي، ولم أتوقف إلا عندما أحسست بأني لن أحصل على ما يكفي أبدًا، لن أشبع أبدًا. حينها رأيت أن بترا متوقفة عن الأكل. كانت شفتاها نصف منفرجتين، وأمكنني رؤية الفطير نصف الممضوغ محشورًا بين أسنانها ولثتها، متوازنًا في مزيج رغوي على شفتها السفلى. جلست هكذا بخدود منتفخة لمدة عشر ثوان، ثم عشرين، ثم أخيرًا، تعمَّدت إغلاق عينيها، وأدارت فكيها بحذر، ودفعت بتلك القطعة الضخمة من الفطيرة إلى حلقها. رأيتها تختفي.

قلت، وقد اجتاحتني موجة ذعر خفيفة:

- بترا؟

كيف كان بول في تلك اللحظة؟ سُئلت لاحقًا.

أتذكَّر أني تساءلت حينها إن كانت بترا ستختنق. تساءلت إن كانت القصبة الهوائية للمرء يمكن أن تسد بشيء ناعم وغير مؤذ كالفطيرة. إذا كانت كارثة من نوع ما ستحدث. دمدمَت بترا:

- آ آ آغ غ غ.

ثم نهضت واتجهت مباشرة إلى الأريكة. جذبت ركبتيها الهزيلتين إلى تحت قميصها، وأسندت رأسها على وسادة. همست:

- هذا يكفي.

كم كان الوقت حينها؟ كان الوقت إما متأخرًا جدًّا أو مبكرًا جدًّا؛ وعندما نظرت إلى الطاولة والفتات الذي صنعناه، إلى كومة الفطائر المتبقية، أحسست فجأة بالوهن. كوَّرت منديلي، وبلعت الجرعة الأخيرة من الحليب من كوبي.

ثم طفت بالغرفة كي أطفئ مفاتيح الكهرباء التي شغَّلها ليو. عثرت على البطانية التي طوتها بترا قبل دقائق، ونفضتها ومددتها فوق قامتها المتكورة، وجلست على الطرف الآخر من الأريكة.

استمرت موسيقى ليو.

لم أقل شيئًا لـبترا. نظرنا معًا عبر النافذة. غدا كوخ والديَّ مظلمًا الآن، لكن ليل السماء مازال مشعًّا. ربما، وفق ما فكرت، ظهر بدرٌ كامل، أو أن فجرًا حقيقيًّا جاء أخيرًا. على الشاطئ، التمعَ قارب أبي الـ«وِنوناه» كسمكة على شاطئ.

سألتها، وقد رغبت بسماع تلك القصة ثانية:

- رأيتني آتية؟

- أوه، ليندا.
- هل كنت في قارب «كانوي» ولو مرَّة؟
- م م م. مرَّة. لكني لست مثلك. أنا فتاة من المدينة، كما تعرفين؟
- أعرف.

حدَّقَت بي عبر الأريكة.

- في معسكر. أنزلوني في «كانوي»، وكل ما فكرت به أني سأسقط منه. وكلما زدت تفكيرًا بذلك، زاد خوفي من أني سأقلب القارب لمجرد أني تخيَّلت ذلك بوضوح.
- يفكر الكل بمثل ذلك.

زفرت ببطء.

- أحتاج مزيدًا من السيطرة على أفكاري.
- في نهاية المطاف، الكل يتعرض للسقوط من الـ«كانوي».
- أيحدث ذلك لهم؟ لا يفكر ليو بمثل تلك الطريقة.
- بمثل ماذا؟
- بمثل أن الأسوأ ربما يحصل.

لم أقل شيئًا.

- إنه أب جيّد.
- نعم؟
- وبول! إن بول طفل رائع تمامًا.
- إنه كذلك.

بدت مسرورة بسماعي أقول ذلك. رفعت البطانية كي أدخل تحتها، لذا اقتربت منها وتركت لها أن تغطيني. سألت وهي تحشر البطانية حول رجلي:

- هل تعرفين كيف وُلِد بول؟

كلا، لم أفكر في ذلك. فكرت دومًا بـبول باعتباره تام التكوين، كأنه وصل طفلًا في الرابعة قادمًا من كوكب آخر. لم أفكر أبدًا أنه كان وليدًا، واحدًا من أولئك الذين وُلدوا قبل ساعات وهم أكوام من اللحم الرطب الأحمر، وأنه خرج من بترا.

- دعيني أخبرك أمرًا يا ليندا.

كنت أرغب في أن تخبرني أمرًا، كنت أرغب في ذلك.

- بعد حملي بـبول، مرضت لفترة طويلة. راودني ذلك الاعتقاد بأنه مقدر عليَّ الفشل، وأن كل ما يمكن أن يسير نحو الأسوأ سوف يحصل فعلًا. تملكني إحساس سيئ بشأن ذلك. ثابر ليو على القول: «أنت خائفة، ذلك كل شيء. أنت خائفة». وكنت كذلك. كنت قلقة جدًّا من أني ارتكبت غلطة كبرى.
- كنت انتهيت توًّا من الكلية؟
- كان أصدقائي قد شرعوا في الانضمام إلى برنامج «فيالق السلام»[1] الحكومي، وبعضهم شرع في دراسات التخصص.

---

(1) «فيالق السلام» هو برنامج استهلته الحكومة الأميركية في مطلع الستينات من القرن العشرين، لتعزيز السلام العالمي، يلتحق به الطلبة الجامعيون كبديل عن تسديد قروضهم الجامعية أو تعلم لغة أجنبية أو غيرها. (المترجم)

- يبدو الأمر منطقيًا. كيف أحسست حيال ذلك؟
- لم أكن خائفة فقط. أحسست بذلك حقيقة مع المرض أثناء الحمل. حدثت كل تلك التعقيدات. ثابر ليو على حثي بأن أكون أقل قلقًا، قرأ لي كتبه كلها، لكن ذلك حدث بالتتالي، شيء يليه شيء آخر. وزن الجنين أقل من الطبيعي، تقلصات الرحم كانت نذيرًا لولادة أبكر من الطبيعي؛ كل ما تستطيعين تخيله. ثم أثناء الولادة، أحسست فعليًا أن قلبي توقف. أحسست به يخبو النبضة تلو النبضة.

عند تلك النقطة، ربتت على رجلي مقلِّدة ما تقوله.

- ثم لا شيء آخر. عندها، راودتني تلك الفكرة الصغيرة، أني كنت مخطئة لأني شعرت بالذُعر، فالله لن يفعل ذلك. لن يوقف الله قلبي هكذا، أليس كذلك؟

انسد حلقي على الفكرة.

- لن يفعل.
- لاحقًا، قال ليو إن الفكرة بشأن الله كانت بول. أن تلك الفكرة هي أنه يولد.

عبر النافذة، وقفت الأشجار متصلبة وعنيدة. كانت بترا هادئة، يدها على رجلي. ظلت هادئة لوقت طويل، لدرجة أنني ظننتها شاردة، لكن عندها أحسست أنها غيَّرت وضعيتها، اقتربت مني أكثر، وكاد رأسانا أن يتلامسا على الوسادة. كانت تهمس:

- ظللت أقاوم طريقة تفكير ليو لوقت طويل. دأبت على القول له بأني لا أملك نوع عقلك الذي يقبل أمرًا من دون نقاش. لكن، آنذاك صار بول موجودًا، وكل شيء على ما يرام. كان بول كاملًا، حقًا. كنت سعيدة جدًّا بعد ذلك، وقد كففت عن الصراع مع ليو. بدا السير على طريقته سهلًا. ليس هناك من شيء لقوله عن السعادة، تعرفين؟ لا أحد يصدقك عندما تتحدثين عنها.

صارت تبكي الآن، وتسألني:

- أنا سعيدة جدًّا، صحيح؟ ألا نبدو لك أشخاصًا سعداء؟

طمأنتها:

- أنتم فعلًا كذلك. أنتم فعلًا كذلك.

لا بد أني غفوت، لأن الشيء التالي الذي عرفته هو أن نصفي كان تحت البطانية، ونصفي الآخر تحت رجلي بترا. بالكاد استطعت التحرك تحت وزنها الدافئ الناعم. أمكنني رؤية رأس بترا يطل من الطرف الآخر للبطانية، وأحسست فجأة بسعادة جسدية عميقة، تشبه تلك التي أحسست بها عندما كنت أتكور مع «تامِكا»داخل كيس النوم على سريرنا المشترك. عاد ذلك الإحساس القديم بقوة إلي، بالطريقة نفسها التي كان كيس النوم يصبح فيها جسدًا ثانيًا نرتديه كل ليلة، أفضل الأجساد كلها، أكثر أساسيّة من جسدينا المنفصلين. اقتربت أكثر من بترا، تاركة وركيَّ يغوصان في شقّ بين الوسائد. أغلقت عيني. ربما كان شيء ما يهتز على حافة وعيي حينها، لأني أتذكر أنني فكرت أنْ ليس هناك من شيء ينبغي القلق بشأنه؛ أن القلق الآن صار أشبه بالقلق من انقلاب قارب الـ«كانوي» بسبب تخيُّل حدوث ذلك. أخبرت نفسي أن ذلك مستحيل. لم يجر الأمر على ذلك النحو.

تاليًا، عندما استيقظت، وجدت أنني أتعرَّق. كفّت أسطوانة ليو المدمجة عن العمل، وكان هناك نسيم يتخلل شعري. أزحت إحدى زوايا البطانية إلى الخلف، وتركت لعنقي الرطب أن يبترد في الهواء البارد. كم كان الوقت؟ في الجهة الأخرى من الأريكة، كانت بترا تنام بعمق.

بطريقة ما، نهضت من دون إيقاظها، ولم أدرك سوى بعد بضع خطوات أن النسيم الذي أحسست به، إنما يأتي من الخارج. شممت فيه شيئًا قليلًا من رائحة الغابة، الرائحة اللامعة لأوراق الصنوبر. كان الباب المتحرك المفضي إلى

الحافة الخارجية مفتوحًا على آخره، وعلى السجادة ظهرت نفاية من بضع أوراق شجر باهتة.

خطوت مرتجفة فوق العتبة. أخيرًا، جاء الليل فعليًا. السماء: بلا نجوم، سوداء، فارغة.

كان شخص ما عند التلسكوب، مقرفصًا.

- بول؟

رفع نظره إليّ، وكان وجهه مشرقًا وصافيًا بشكل مذهل. بدا أكثر قوة وصحّة مما كانه منذ أيام طويلة، التمع بياض عينيه وأسنانه، حتى في الظلام. كأن إصبعًا رفع شعره ليقف في خصلة عند قمة رأسه. كان يبتسم. ضحك مقرقرًا:

- أوه، يا أخي، إنه قندس آخر.

حينها، أحسست براحة، أحسست براحة إلى حد القدرة على تأنيبه:

- بول؛ ادخل إلى المنزل.

اقتَرَحَ:

- لنمارس لعبة البقاء على الحياة.

- ليس الآن.

- انظري! لقد جاء الدب.

بدأ في الركض. اجتاز السلم ومضى إلى الغابة. بالنسبة لصبي صغير، كان يتحرك بأسرع مما ظننت أنه يستطيعه، عابرًا فوق فروع الأشجار وتحت الأفنان، مزيحًا أغصان الصنوبر التي ترد وتضرب صدري. كنت أركض خلفه مرتدية جواربي. كان بول مرتديًا «بيجاما» بجوارب. بالكاد استطعت ملاحقته، على رغم ألفتي مع الأوراق الرطبة والصخور التي تعلوها الطحالب. بعدها، سقط الغصن الأخير، وانفتحت الأشجار، وبدا الشاطئ أمامنا. وصدمت لرؤية طبقة فضية من الثلج المبكر تحجَّرَت فوق الماء. نظر بول مرَّة خلفه ليراني، وقد تدلت خصلتان من شعره. صرخ:

- أوه، لا. هناك دب!

الشيء التالي الذي عرفته، هو أنه كان ممددًا على بطنه، يزحف على كوعيه ليشق طريقه باتجاه تلك الطبقة الرقيقة من الثلج، وأدركت أخيرًا كم كانت باردة، وأن رائحة البرد جعلت الهواء رقيقًا في منخريّ، وأن أصابعي صارت خَدِرَةً قليلًا. ناديت:

- بول!

وسرت خطوة في طبقة الثلج، مصغية إليها تتشقق تحت وزني، وأحسست أنها كلها تنهار. في خطوتي الثالثة، غصت إلى كاحليّ. وفيما وقفت في المياه الباردة الحادة، رأيت بول يجر نفسه زاحفًا على كوعيه، ويسحب نفسه - كأنه حيَّة - متجهًا نحو منتصف البحيرة. وأدركت أخيرًا أن ذلك كان حلمًا.

ثم كان الفجر. سطع مثلثان من السماء عبر النافذة الكبيرة. ارتفع ضباب من البحيرة، وبالكاد استطعت تبيُّن منزل والديّ عبر السديم. وشيئًا فشيئًا، استوعبت الغرفة الغارقة في الظلال حولي. كان الضوء مطفأ في غرفة بول، وليو يشخر في مكان ما غير منظور، وبترا بجانبي على الأريكة، ولا زالت نائمة. الباب الزجاجي المتحرك مغلق بإحكام. كل شيء، كل شيء، كان في مكانه الصحيح. عدَّلت جلستي، ورأيت دريك يذرع المكان ذهابًا وإيابًا، ذهابًا وإيابًا، أمام الباب المقفل لغرفة بول.

من زاوية عيني، حددت مخطوطة ليو على الكرسي المريح. لم أكن راغبة في العودة إلى النوم، لكن من دون رغبة أيضًا في ترك الأريكة، انحنيت والتقطت الورقة العليا من حزمة الأوراق السميكة. توقعت وثيقة عن الفضاء، شيئًا ما عن البحث غير الدقيق عن حياة كونيّة، لاستناده إلى افتراضات غير مثبتة. ظننت أن لديَّ إحساسًا بطريقة بول في الكتابة. توقعت رطانة علمية ومعادلات رياضية وأسئلة بسيطة مخادعة. أمِلْت في رؤية رسوم بيانية.

بدلًا من ذلك، كانت الورقة العليا مكتوبة بلغة مسطحة صريحة.

ما إن وضعت يدي عليها، حتى أدركت أنها تستعمل نوعًا من الخط مختلفًا

عن بقية الأوراق تحتها. قرأت الورقة مرتين، ركَّزت في الأولى على الكلمات المطبوعة، وفي الثانية على تصحيحات بترا المكتوبة بقلم قرمزي. لقد شطبت بعض العبارات، وخطَّت بتعجُّل ملاحظة صغيرة بحروف متصلة صغيرة في الأسفل. في ما يلي، ما كتبه ليو:

اسمحوا لي أن أبدأ بإقرار الصلاحية في «كنيسة مسيح، عالِم»، والكتابات المُلهِمَة لـ«ماري بيكر إيدي». ~~سبق أن كتبت هنا، عن ابني~~، ولكن، أريد اليوم أن أقدم الشكر إلى ~~الكلي العلم~~، لنعمة الله الكلي القدرة، الذي أظهر نفسه في طبيعة الطفل التي هي فينا جميعًا. ذات ليلة، فاجأني ابني الذي صارع مؤخرًا الاعتقاد بوجود وجع في المعدة، بطلبه أن أقرأ له النص العلمي عن الكائن بدلًا من قصته المفضَّلة لما قبل النوم. يبلغ من العمرأربع سنوات، لكن حكمته كانت، منذ وقت طويل، نموذجًا لأمه ولي. قرأت له النص الذي نعرفه جميعًا جيدًا، «لا يوجد حياة، حقيقة، ذكاء ومادة في شيء...». بعد انتهائي، سألني: «ما هو الشيء»؟ أخذت على حين غرة، لأنه لم يسأل ذلك من قبل أبدًا. وكعالِم، فكرت في كل التعريفات التي ~~يتحاجج حولها~~ ويناقشها زملائي، لكن كعالِم، انقدت إلى القول له: «وجعُ معدتك وكل شيء آخر مما يكذب عليك ويحاول التظاهر بأنه حقيقي». «خذوها ~~من أفواه الأطفال~~». عندها، قال لي: «أنا لست شيئًا. أنا لا أكذب». لذا، رأيت أنه يعرف أفضل مني طبيعته الروحيَّة. في الصباح التالي لنقاشنا، اختفى كليًّا وجع معدة ابني وكان قادرًا على الاستعداد لرحلة نهاية الأسبوع التي خططنا لها كعائلة. كان برهانه جليًّا. وفق ما تقول ماري بيكر إيدي، «إن وعيتَ لحظةً أن الحياة والذكاء هي أشياء روحيَّة صافية - ليست من شيء ولا فيه - سوف لا يجأر جسدك بالشكوى». أنا ممتن باستمرار لهذه الكنيسة التي دعمتني وعائلتي بالتعاليم الحقيقية للمسيح، خلال تلك السنوات كلها.

وفي ما يلي، ما كتبته بترا:

لعلك تبدأ ببعض الزيادة في وصف الطفل، يا ليو؟

لعلك تزيد قليلًا في وصف ما الذي تصارع معه؟

ملاحظة: «خذوها من أفواه الأطفال»: هل صاغها هو بتلك الطريقة؟ هل قال: «أنا لست شيئًا مهمًّا» بدلًا من «أنا لست شيئًا»؟ أتذكر كيف تحدث معي عن ذلك، وكيف صِححتَ أنت له، وكان أمرًا طريفًا وحلوًا، وأن الجميع ضحكوا؟ أتذكُر كيف كان جالسًا مع ذلك القفاز القديم خاصتك، مرفوعًا إلى مرفقه، وكيف دأب على التربيت على ذقنك أثناء كلامك معه؟ إن تفاصيل كتلك تحرّك الناس، على ما أعتقد. لا تنسَ إضافة بعض التفاصيل المماثلة في النص. أو، أتذكُر كيف حاول ذات مرَّة أن يدخل يديه معًا في ذلك القفاز لتغدوا كزعنفة سمكة؟ كان ذلك طريفًا أيضًا. أتذكُر كيف أنه عندما أخرج يديه من القفاز، تناثرت على حضنك كل تلك الصخور التي جلبها من البحيرة؟ لست متأكدة كيف يتناسب ذلك مع النص، بالطبع، لكن الأمر كان جميلًا جدًّا.

14

ذات مرَّة، كتبت رسالة إلى السيد غريرسون. كان يعيش في «فلوريدا» عندما تتبعته حينها على الإنترنت، في بلدة صغيرة خارج «تالاهاسي» اسمها «كراوفورد فيل»، على اسم طبيب سكنها في زمن سابق بعيد. ذلك ما قالته الإنترنت. عرفت من تقارير متداولة على تلك الشبكة أن السيد غريرسون يدير دكانًا يبيع صناديق للوجبات الموضَّبَة من نوع «ستار وورز»، وكراسي هزازة ترجع إلى القرن التاسع عشر، وبطاقات معايدة من حقبة الخمسينات في القرن العشرين عليها صور لبساتين البرتقال. كان برتقال البطاقات كناية عن بالون أصفر مُشع، وليس برتقالًا حقيقيًا على الإطلاق. سمَّاها الناس نفاية. كان اسم الدكان هو «تريجر تشيست».

كتبت: «عزيزي السيد غريرسون».

ثم توقفت. آنذاك، كنت أعيش في «مينابوليس»، وأتناول وجبات العشاء مع الميكانيكي، وأشتغل في مكتب للوظائف المؤقتة. وعندما لا أتمكن من النوم ليلًا، أقرأ سيرًا ذاتية لمستكشفين، قصصًا عن تلك الرغبة في تسلق جبل «إفرست» حيث رجال ضربهم الصقيع يحفرون الثلج بملاعق. قرأت تلك الكتب على ضوء مصباح يدوي كي لا أوقِظ آن في سريرها المفرد عند الطرف الآخر من الغرفة. قرأت لساعات فيما يشبه الكهف تحت البطانيات، متكئة على الجدار البارد، فيما يتزايد ضيقي بالخدع الصبيانية البائسة التي يفرضها الصراع على البقاء. عندما يصل المتسلقون إلى نقطة محتمة يواجهون فيها عاصفة في الجبل، ولا شيء معهم سوى مجرفة وسكين، عندها أُحاول الكتابة إلى السيد غريرسون بدلًا من متابعة القراءة.

كتبت الرسالة عينها المرَّة تلو المرَّة. كان الفجر يجعل الغرفة رمادية، ثم يعيد ذلك.

كتبت: «عزيزي السيد غريرسون».

«عزيزي آدم». «إلى آدم غريرسون». «إلى السيد آدم غريرسون». «عزيزي». أخيرًا كتبت:

ربما لا تتذكرني. كنت تلميذتك في الصف الثامن لمادة التاريخ الأميركي، في بلدة «لوس ريفر»، بـ«مينيسوتا». كنت تلك الجالسة قرب النافذة مرتدية قميص حطَّاب، ولها ضفيرة طويلة، وتلبس حذاء التنزه. عرفتني باسم ماتي. دعوتني «الآنسة أصالة» بسبب الجائزة التي أحرزتها في مسابقة «أوديسة التاريخ». اشتغلت على الذئاب، أتَذْكُر؟ اشتغلت على تاريخ الذئاب. أكتب الآن لأنني أفكر في شيء أزعجني بعض الوقت. بعد مغادرتك «لوس ريفر» وبعد أن تحدَّثَت «ليلي هولبُرن» عن أشياء فَعَلَتها، لم ينطق أحد كلمة عما دَرَّسته أنت لنا في الصف. كان ذلك غريبًا بالنسبة لي، لأن الأمر بدا كأن تلك الأيام كلها لم تكن. لكن، أعتقد أنك بذلتَ جهدًا كبيرًا في دروسك. أتذكرك وأنتَ واقف تتلو مقاطع كاملة من «إعلان الاستقلال» عن ظهر قلب، وهو أمر لا بد أنه استلزم جهدًا في حفظه. أتذكر أنك طلبت منا رسم خريطة للبلاد كما لو كنَّا المستكشفين «لويس» و«كلارك»، كأننا لا نعرف شكل الأنهار إلا إذا عبرناها. عندما اصطحبتني إلى «أوديسة التاريخ»، وأنا أعترف بذلك، اعتقدت أنك تسخر من فكرتي عن الذئاب، لكن لاحقًا فكرت في أنك اخترتني من بين الجميع كي أنجز ذلك. ربما رأيت أني أمثّل مشكلة أقل من بقية الفتيات، لكن يبدو لي الآن أن حقيقة قيامك باختياري أهم من الأسباب المتصلة بذلك.

هل تعرف أنه في الخريف الذي تلا مغادرتنا، عادت إلينا «ليلي هولبُرن» بمفاجأة؟ لبعض الوقت، كان الناس يقولون إنها مريضة. لكن لا، كانت حاملًا، ما أنهى مستقبلها ومستقبلك في البلدة، رغم أن معظم الناس عرفوا أنها سحبت شهادتها ضدك في المحكمة.

أخافتها قاعة المحكمة، وفقًا لما قاله الناس. هل تستطيع تخيُّل ليلي

حاملًا؟ كانت جميلة جدًّا، فعلًا. كانت أكثر جمالًا مما كانته قبلًا. لكنها بعد ذلك، صعدت إلى الحافلة ذات يوم واتجهت إلى «سان بول»، حيث يوجد برنامج لأمثالها من الفتيات، تديره الكنيسة الكاثوليكية. صارت تعمل كتقنيَّة في مختبر لفحص الدم، وفق ما سمعت. قدَّم لها البرنامج تدريبًا مهنيًا مجانيًّا، ملابس للطفل، وما إلى ذلك. لذا ليس صعبًا الآن تخمين أنها كذبت بشأنك. عندما تقع في المصيدة، تؤدي حيوانات كثيرة دورالميت. أفكر فيما قالته ليلي، على ذلك النحو. وجدت طريقًا مخفيًّا للخروج من الحياة الضيقة التي كانت ستحصل عليها لو أنها بقيت وتزوجت الشاب الذي حملت منه .

لم تكن ليلي بمثل الغباء الذي تظهر عليه. لكن، لعلك الآن تعرف ذلك. فكرت مرَّة بالانتقال إلى كاليفورنيا. أنت من تلك الولاية، صحيح؟ أردت رؤية الغابات الحمراء هناك. أردت الإحساس بالضآلة بالمقارنة مع تلك الأشجار الضخمة، أن أغيّر إلى الأبد إحساسي تجاه مقاييس الأشياء. سمعت أناسًا يقولون إن تلك الأشجار تفعل ذلك بك. لكن، «مينابوليس» كانت خيارًا أيسر. هنا، الأشجار تشبه كثيرًا تلك الموجودة في «لوس ريفر»، على رغم أنها أقل عددًا.

كذلك لم أذهب أبدًا إلى فلوريدا. أظن أنني إذا قدمت إلى دكانك، سأود شراء كرسي هزَّاز بمسند مرتفع، وأرجل مقوَّسَة من خشب البلوط. إنه يبدو مريحًا في الصور المنشورة على موقعك الشبكي. لا يبدو نفاية. قرأت ما يقوله الناس عنك على الإنترنت، وأنك يجب ألا تعيش في بلدتهم. ماذا لو هام طفل على وجهه في مخزنك، وما إلى ذلك. ربما لديهم أسباب كافية لكتابة ما يكتبونه، لكن أظن أنك يجب أن تسمع هذا أيضًا: أعتقد أنك بريء. أعتقد أنك يجب أن تسمع ذلك من شخص ما، وفي حال لم يقله أحد، أكون هو ذلك الشخص بالنسبة لك.

بإخلاص

ماتي فورستون

الفجر ممر حرّ. فكرت بذلك دومًا. الساعات بين الرابعة والسابعة هي ملك حفنة من الطيور التي لا تكف عن الحركة، وربما للبعوض الصاخب. في «مينابوليس»، يتصاعد باطّراد الصخب الآتي من حركة المواصلات على الطريق السريع، ويليه في نهاية المطاف أن يشق ضوء مائل طريقه عبر الستائر ويزحف صعودًا إلى رقبتي. عندها، أضع كتبي وأوراقي. في السابعة بالضبط، أنهض من السرير، أغلي الماء على الموقد، وأجهد لأصنع قهوة لي ولـ«آن». في الحمَّام، أُدخِل رجلَيّ المهتزتين في جواربي النايلون. وعندما أثبّت لساني كي أنظفه بالفرشاة، تتجشأ الفتاة في المرآة بوجهي، بعيون محمرة.

في ذلك الصباح في منزل آل «غاردنر»، جئت في الساعة السابعة وذهبت، ولم يتحرك أحد بالمرَّة. أعتقد أن ذلك فاجأني، لكنه جاء من مجرد اعتقادي بأنهم ممن يستيقظون مبكرًا. من موضعي على الأريكة قرب بترا، راقبت البحيرة تضحي بلون الفضة تدريجيًا، ثم رأيتها تصطاد النُثَر الأولى من شمس جديدة. طفا بط غوّاص عند طرفها البعيد، مستطلعًا ما حوله. عَبر قارب سريع قربه بضجيج، شاقًّا الماء، وعندما جاء قارب آخر في إثره، تذكَّرت أني أود من الصباح أن يتباطأ، يتباطأ. أردت من الصباح أن يبقى ساكنًا، أن يأخذ وقته في الطلوع.

نهضَت بترا متباطئة. تابعَت فتح عينيها إلى المنتصف، ثم إغلاقهما مجددًا، كأنها اطمأنت بوجودي، كأن وجودي أعطاها إذنًا بالعودة إلى حالة اللاوعي من دون الإحساس بالذنب. وعندما سقط ضوء الصباح على وجهها، أضحت كل نمشة فيه دقيقة ومفعمة بالحيوية. رأيت نمشتين ترتجفان على جفنها الأيمن. لاحظت وجود ندبة صغيرة بيضاء، لم أرها من قبل، تشق أسفل شفتها العليا. رأيت نقاطًا ضئيلة من قشرة الشعر تتسلق على بضع شعرات قرب فروة رأسها.

لاحقًا، سيغدو مستحيلًا عليَّ أن أخبر أحدًا عن سعادة تلك الساعات، العذوبة الفاتنة للجلوس هناك وهي قربي على الأريكة، وصار صعبًا عليَّ أن

أعترف حتى لنفسي مدى علاقة ذلك الإحساس بوجود بول وليو آمنَيْنِ في الغرفة. تسلقت شريحة من الضوء إلى حافة فخذها المغطى بدثار. أتذكر كيف حرَّكت أنفاسها القطن الأصفر الأنيق للدثار صعودًا ونزولًا، كيف تحرَّك محجرا عينيها تحت جفنيها المنمشين. لاحظت حتى أرفع وريد أزرق في رقبتها. لم ألمسها. جلست بأرجل متشابكة على الأريكة، والدثار يغطينا معًا، فيما برزت ركبتها الصغيرة الحمراء من زاوية فيه.

في ذلك الوقت، لم أطرح سؤالًا عن سبب بقائها معي في غرفة المعيشة، وليس مع ليو في سريرهما، أو مع بول في غرفته. لم أتساءل لِمَ اختارت أن تنام طويلًا إلى ذلك الحد، وهو بدا لي أمرًا طبيعيًّا حينها، بل دليلًا على أن كل شيء على ما يرام. أن تكون هناك معي بعد كل تلك الساعات، أن تنام بهدوء وسكينة؛ كان يمثل الطمأنينة الوحيدة التي أحتاجها في العالم.

لاحقًا، بالطبع، سوف أتساءل بشأن ذلك كله. لاحقًا، عندما سُئلتُ عن أفعالها، لم يكن لدي إجابة جيدة عن سبب عدم ذهابها تلك الليلة لتفقد بول. في المحاكمة، كان المقترح هو أنها بقيت معي في نكران صريح للوقائع، أنها أبعدت نفسها مع صبية في الخامسة عشرة لأنها أرادت التخفف من إحساسها بالمسؤولية. ظهر تفسير أكثر كرمًا بأنها تماهت معي لأن كلينا حساس بمعنى ما؛ أي أننا كنا فتاتين واقعتين تحت تأثير رجل دوغمائي أكبر منا عمرًا. قيل إن ليو أبقى بول بعيدًا عنها عمدًا. كان هنالك بعض الصحة في القصتين اللتين قدمتا في المحاكمة - وعاينت أنا بعض الأدلة على كل منها - لكن حتى حينها، كنت موقنة بأن القصتين ينقصهما شيء ما. كلاهما لا يأخذ بالحسبان وعي بترا بقوتها الذاتية، ودرجة تصميمها الهائلة على رغم عدم الانتظام فيه. كلاهما لا يأخذ بالحسبان ما يجعل من بترا بترا.

ألم تكن دومًا بحاجة إلى شخص ما يراقبها ويوافقها دومًا؟

ألم أكن أنا أفضل شخص يقوم بذلك؟

في النهاية، عندما استيقظت تمامًا، جلست على الأريكة وجذبت الدثار فوق ركبتيها، منحتني ابتسامة شفتين مقفلتين، كأنها مكافأة لي على حراستها. قالت:

- إذًا. بقيت «جانيت» الليلة كلها.
- «جانيت»؟
- إنه الاسم الذي حازته «جين آير»[1] في «روتشستر». لقد كانت مدبّرة منزل أيضًا، مثلك.

أزاحت شعرها عن وجهها:

- كلاكما مدبرتا منزل.

ابتسمت للعالم. ثم، كأنما تنبَّهت لنفسها:

- ما الوقت الآن؟

هزرت كتفيّ. جلست باستقامة أكبر.

- أين ليو؟

هزرت كتفي مجددًا.

استدارت ونظرت نظرة وحشيَّة إلى الغرفة. لكن، بدلًا من الوقوف، وهو ما ظننت أنها ستفعله، أغلقَت عينيها ثانية. بدا أنها تصارع شيئًا ما، مستجمعة الهدوء بقوة إرادتها. بعدها، أطلقت تنهيدة عميقة من بين أسنانها البيضاء، وكان بإمكاني من بُعد قدم، أن أتشمم رائحة العطن والتحلل، بقايا وجبة لم تهضَم.

فتحت عينيها مجددًا، وحدَّقَت بعينين ضيقتين قليلًا .

- هل قرأت ذلك؟

كانت تنظر إلى ورقة ليو المطبوعة الموجودة على الكرسي قربي. انتظرت لثانية قبل أن أجيب:

- نعم؟
- لا بأس بذلك.

(1) «جين آير» هي رواية شهيرة للكاتبة الانجليزية شارلوت برونتي (1816-1855).

مالت إلى الأمام في انحناءة تشبه التماثيل. وضعت كفًّا رطبة على ساعدي. قالت مُطلِقَةً كلماتها بزفرة، كأنها تحدث نفسها بشيء ما:

- لا بأس بذلك، أنت تعرفين.

مع نَفَسها العَطِن ويدها على ساعدي، تحركَ في أحشائي إحساس مبهم وفضولي.

مِلْت صوبها كي أشم نَفَسَها ثانية، مشمئزة من نفسي؛ كنت مشمئزة ومهتمة معًا.

عندما عاودت التحدث، كان صوتها أخفض من المعتاد:

- اعتدت أن أقول لنفسي إن القلق هو المشكلة. ذلك هو الشيء الذي يجب حلُّه. صحيح؟

تردَّدتُ بالإجابة:

- لا أدري.
- إنها مشكلة مع عقلي.

فكرت بالأمر. شيء ما تمزَّق:

- حسنًا... ماذا تعنين؟
- ماذا أقصد؟

بدا كأن السؤال عمل على تنظيفها أو أنها تطهَّرَت به على نحو ما. أخرجَت لسانها؛ ربما كانت تضحك؟ وأمكنني أن أراه، مغطى بطبقة من زبد أبيض، ينزلق رجوعًا على أسنانها. بين ليلة البارحة واللحظة هذه، صار فيها شيء ما أقل صلابة، مُفَكَّكًا أكثر، ومحيِّرًا أكثر. بلعَت ريقها، أمسكت يدي بيدها. كانت عيناها تقفزان من شيء إلى آخر.

- أنت محقة، ليندا. بالطبع، أنت محقة. من الغباء القلق بشأن القلق. انظري، عاد دريك، ليو موجود هنا، وأنت هنا أيضًا. كل شيء على ما يرام.
- أنا هنا أيضًا.

- كل شيء على ما يرام.

أحنيت رأسي:

- كل شيء هو كذلك. أعرِف. أعرِف.
- ليس في السماء ولا حتى غيمة. وتغني تلك الطيور. صحيح؟
- إنها القراقف.
- أرأيت؟ أنت تعرفين. أعرف أنك تعلمين.

ولأنه صار سهلًا الآن جعلها سعيدة، أضفت:

- وطيور الخطاطيف الأرجوانية اللون.
- حسنًا، طيور الخطاطيف الأرجوانية اللون.

أصغيت:

- م م م م.... واثنتان من البط الغوَّاص.

على رغم أن ذلك كان صوت همهمة مُحَرّك، ربما. ربما كنت أختلقُ الأشياء، أبالغ قليلًا.

- اثنتان من البط الغوَّاص، بالطبع. كان يجب أن أعرف ذلك. يجب أن أعرف. الأمر هو أن أترك نفسي لتأخذ الأشياء كما هي فعليًّا، كتلك...

في ومضة، رأيت حقل الثلج الأبيض الذي كانته البحيرة ليلة البارحة. قالت:

- يجب علينا أن نكتفي بمعرفة الحقيقة...

كانت الحقيقة هنا هي: كل شخص سوانا كان نائمًا، كل شخص آخر ما عدانا. أحنيت رأسي موافقة. قالت:

- هاكِ. أنت تلبسين طوق الشعر الخاص بي.

توقَّفَت عيناها على وجهي. استمتعت بإحساسي بنظرها يقع عليَّ، وقلت مقرَّةً:

- هم م م م م.

ما زال الوجع القديم مكانه، لكنه صار مختلفًا. بات جزءًا من رأسي؛ ثبَّتَ نفسه بي واختفى في الوقت نفسه. قالت:

- يبدو جميلًا عليك.

بعدها، رنَّ هاتف بترا. عزفت رنَّة «حرب النجوم» ثلاث مرَّات قبل أن يظهر ليو آتيًا من الغرفة الخلفية توًّا، كأنه دجاجة بريَّة طُرِدَت من أجمة. اختطفَت بترا الهاتف، وقفزت لتصبح قرب الحافة الخارجية، قائلة:

- آلو؟ شكرًا لك، نعم!

وقفتُ أيضًا، ممسكِةً بالدثار الذي كان مازال دافئًا من جسدينا. أبقيت نظري على ليو الواقف عند المدخل، لكنه لم ينظر مرَّةً صوبي. كان يراقِب بترا، التي كانت ترد بحماسة على الشخص الذي يحدثها بالهاتف، فيما سارت بخطىً سريعة صعودًا ونزولًا، وهزَّت رأسها بالموافقة باستمرار.

- جيد، جيد، جيد.

توقفت في منتصف مشيها، كي تستوعب أمرًا ما.

- أُحاول فعل ذلك. أنا فعليًّا، فعليًّا، فعليًّا، أحاول. أنا **أفعل**.

تألق وجهها.

- الآن، أُحسُّ أنني أفضل هذا الصباح. إنها نقطة تحوُّل، ربما؟ نعم، إنه كامل في عيني الله. ذلك ما كنت أفكر به. واحزر ماذا؟ حتى أني لم أخبرك الجزء الأكثر أهمية.

بدأت المشي مجددًا، متجهة صوب الطاولة:

- لقد تناول الفطور! ماذا؟ فطائر. ماذا؟ آسفة بشأن وضع شبكة الاتصال، لكن بالتأكيد نعم، ذلك صحيح. نعم، نحن كذلك! نحن ممتنون جدًّا.

عندما أنهت المكالمة، استدارت صوب ليو بابتسامة عشوائيَّة ضخمة، تلاشت تدريجيًّا فيما بقيت واقفة هناك.

نظرة واحدة إلى ليو، وتبدد فِعل تلك الابتسامة.

سُئلتُ، هل استدعوا طبيبًا على الإطلاق، وفق معلوماتك؟

قالت بترا:

- كانت تلك هي الطبيبة المُمارِسَة الآنسة «جوليان».

قال ليو مؤكّدًا:

- نعم.

رغم أن بترا بالطبع هي التي حادثتها، وليس هو.

- قالت إنه يتوجب علينا أن نكون ممتنين؟

قال لها:

- نحن كذلك.

كان هنالك سكون مستجد عليه هذا الصباح، القليل من الكلام، كأنما أدرك أن الحركات الصغيرة تكفيه. راقبته وهو يُجَمّع نوعًا من الابتسامة على وجهه. ها إن شفتيه تتحركان، تتجهان إلى الأعلى.

قال لـبترا:

- ما رأيك بقليل من الكاكاو الساخن؟ أتستطعين تشغيل الغلاية، يا «بيا»؟

هزَّت رأسها مرَّة وحيدة، وكان شيء غريب يحدث أثناء مشيها في الغرفة باتجاهه. كل السجَّادات المضفَّرة تنزلق ثم تتصادم، تحت قدميها العاريتين. كانت تسير بمثل تلك السرعة.

أوقفها بأن فتح ذراعيه واحتضنها.

أثناء إمساكه بها، تغيَّر صوته. صار موسيقيًّا، مملوءًا بالنبرات العالية والخفيضة.

- ما الذي تفعلينه يا باتي، يا حبة بازيلائي؟ علينا ألا نتراجع الآن، يا باتي، يا حلوتي. لنفعل ما فعلناه دومًا؛ نصنع الكاكاو، ننظف علبة براز القطط، نتمشى في الصباح. هل بإمكانك أن تفعلي ذلك من أجلي؟

راقبته وهو يضع فمه على أذنها.

ثم من فوق رأسها، ومن دون غناء الآن:

- ليندا، هل تساعدينني في أمر ما؟

كنت قد افترضت أنه يتجاهلني، فأخذني سؤاله على حين غرَّة.

عبستُ في وجهه، واستعددت لهز رأسي. أحسست بكتفيَّ يرتفعان في حركة دفاعية، لكن حينما أطلقَ بترا واستدار، وجدت نفسي أتبعه.

كنت فضولية. لم أستطع التغلّب على ذلك.

وعندما بدأت تتبعنا، قال:

- بترا، بعض الكاكاو. ثم علبة براز القطط، ارتدي ملابسك. ربما قرأنا الدرس؟ إنه يوم جميل حقًّا.

في حلمي، كان بول سريعًا وماكرًا جدًّا. بدا خبيثًا ومجنونًا في آن معًا، وهو ما تناوب على إمتاعي وإغاظتي. في حلمي، غدوت غاضبة منه في خاتمة المطاف. كان هناك شيء مراوغ تمامًا في طريقة تقلُّبِه على بطنه فوق الثلج. لذا، عندما تبعت ليو إلى داخل غرفة بول، شعرت أن في داخلي شيئًا من الاستياء تجاهه. ألقيت نظرة واحدة عليه ممددًا في سريره، وأحسست أن استيائي تلاشى. لم يكن في النهاية سوى صبي صغير. صبي صغير، نائم. كان مريحًا رؤيته مستلقيًا، رؤيته محشورًا تحت الأغطية إلى العنق، ورأسه الذهبي بارز إلى الخارج. شفتاه المشققتان مفتوحتان، وعيناه مغمضتان.

دمدم ليو من الخلف:

- لا تخافي الآن، ليندا.

ولم أخف سوى عندما قال ذلك. بدا كأنه يريد التربيت على كتفي:

- الآن، ليندا. لا بأس بالأمر.

أغلق ليو الباب خلفنا، وأول فكرة جاءتني هي أن أتراجع. كانت الفكرة الثانية أن أجد طريقًا للخروج. لم أكن واثقة من نوع الفخ الذي انقدت إليه.

شعرت ببطتيّ رجليّ تتصلبان، وأطراف أصابعي تنمّل. بدا وجه ليو مختلًّا. كان يدفع أحد خديه من الداخل بلسانه، وهو أمر عرفت من دون تفكير أنه يفعله عندما يكون وحيدًا. أخبرني بخجل تقريبًا، ومع النظر إلى الأرض:

- كنا نلعب لعبة «كاندي لاند».

- ماذا؟

لكن الأمر كان واضحًا. لوحة الرسم مفرودة على السجاد، مع ممر ملتوٍ من المربعات مرسوم عبرها.

- اختار بول اللون الأزرق، وأنا الأحمر.

لكن بول كان نائمًا.

- حسنًا.

أومأ ليو إليّ، مشجعًا:

- يكفي تحريك قطعته عندما يكون الدور له. مضطر لاستعمال الحمام وبسرعة، وكذلك إجراء مكالمة هاتفية. لو كان بإمكانك أن تعرّفيني إذا كان....

كان يعتذر بألم عن ذلك. لقد كوَّم الكتاب المقدس ومجموعة كتب أخرى على منضدة بول، في هرم صغير مرتبك. كان يحدق في الطبق المملوء بالفطائر الموضوع على خزانة الأطباق، بنظرات عجلى ومن دون أن يحرك رأسه، كأنه لم يرد مني ملاحظة ذلك الأمر، لكنه غير قادر على منع نفسه. ثم اكتفى بالوقوف هناك. عيناه محمرتان، وخده كخيمة يرفعها لسانه من الداخل. سألته:

- ليو...؟

بدأ يشدُّ قميصه تحت حزامه بأطراف أصابعه. وجدت نفسي أقول:

- لا تخف.

شدَّ ليو قميصه مرَّةً أخرى، وأخرى. شدَّ القميص عميقًا إلى الأسفل.

عدَّل وضع الشورت وشدَّ طرف قميصه إلى الأسفل. صار القماش مشدودًا على كتفيه، وبدا كأنه يريد حشر جذعه كله وذراعيه حتى الكوعين، تحت

الحزام. كي أوقف حركاته، ركعت على السجادة قرب لوحة الـ«كاندي لاند». قلت، كي أدفع ليو للمغادرة:

- بول، إنه دورك.

فعليًا، لم أكن أعرف كيف ألعب «كاندي لاند». لم ألعب ألعابًا كهذه عندما كنت صغيرة، لذا استعصت عليَّ القوانين وطرق الانتقال من مربع إلى آخر. لم يكن هنالك حجر نرد ولا تلك السهام كي تدوّرها. أمكنني الإحساس ببول على سريره في تلك الكومة من الأغطية، لكني لم أحاول إيقاظه. من دون تفكير، سحبت ورقة لعب من الكومة. حرَّكت قطعة لعب لـبول على شكل رجل «جنجربريد مان» الأزرق إلى المربع الأصفر، بما يتلاءم مع الكارت. ثم حركت رجل ليو الأحمر. أزرق ثم أحمر. بقلب غائر، بدا لي أنني لست بحاجة لمعرفة طريقة اللعب. كان الأمر واضحًا. كان سباقًا. تجاوز رجل ليو «جنجربريد مان» مربع منزل «أولد بينَت بريتل هاوس». لجأ رجل بول «جنجربريد مان» إلى طريق مختصرة عبر جبال «غَمْدْرُب ماونتنز». بعد نقلات قليلة، انتابني إحساس بأني أمارس عملًا مبتذلًا لكوني لعبت تلك اللعبة مرارًا من قبل. حرَّكت القطع بانسيابية وثبات على الممر المرسوم بأقلام التلوين. شقَّ ليو طريقه عبر غابة «لوليبوب وودز»، فيما علِقَ بول في مساحة مخصصة للعرق سوس. في اللحظة التي أطبق فيها رجل سبخة «موليسس سوامب»، في اللحظة التي صارت فيها نتائج اللعبة تتخذ منحىً محتمًا، على رغم وجود طريق طويل متبقية، حدث أن رفعت نظري إلى الأعلى:

- بول؟

كان يراقبني من سريره. تنفسه يزداد عمقًا، ثم توقف. كان نصف وجهه مضغوطًا على الوسادة، لكن إحدى عينيه فقط نظرت نحوي. لم تكن ترمش، بل كانت زرقاء كليًا. سألت:

- بول؟

صار غطاء وسادته قاتمًا إذ لوثه لعابه، مع عودته إلى التنفس.

عندها، غششت: وضعت رجل «جنجربريد مان» خاصة بول في المربع الأخير.

سارت العين فوق كتفي ثم تجاوزت رأسي.

اندفعت إلى قدمي.

في الممر، صادفت ليو، وكانت يداه تقطران ماء وهو خارج من الحمام. سأل:

- م م م م م؟

وكان مازال يُحْكِم حزامه، مخلّفًا طبعات كبيرة ليديه على قميصه القطني الأزرق. لم أعرف ماذا أقول. خرجت مني كلمات:

- لقد ربح.

وأحسست أن صوتي اخترق طبقة من الذعر كي يقول ذلك. بدا ليو مرتاحًا بسماع ما قلته:

- هل فعل ذلك؟

كأنما ربحُ لعبة «كاندي لاند» كان إنجازًا، كأنما مراقبة شخص آخر يحرك قطعك على الرقعة يُسجّل الآن كنصر. قال:

- ذلك فاصل من الحظ الطيّب. يجب أن يكون سعيدًا بذلك. يجب أن يكون. سيعود إلى سابق عهده حتى قبل أن نلاحظ. لن يستغرق وقتًا طويلًا. سيكون مستعدًّا لدخول الروضة خلال بضعة أسابيع.

قلت وكأنما باحتجاج:

- إنه مجرد صبي في الرابعة!

تقبَّل ليو ذلك، ثم رفضه.

- لكنه يملك رأسًا يعمل بطريقة صحيحة. أنت تعرفينه. أنه متقدم جدًّا جدًّا عن عمره. سيكون بخير. سيكون بخير.

هززت رأسي:

- إنه مازال...

وقصدت القول إنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه. لكن قلت:

- مازال صبيًا صغيرًا تمامًا.

حاولت تنسيق بعض الوقائع للدفاع عن موقفي.

- إنه مازال غير قادر على القراءة.

ثمة شيء في ذلك، حقيقة أن بول لا يستطيع حتى نطق كلمة «قطار» في كتابه المفضل، جعلت الدموع تنهمر من عيني.

لم يبدُ أن ليو رآها. وضع يديه الرطبتين على وسطه، مستعدًّا للجدال.

بدا الآن أكثر راحة، إذ عاد إلى الساحة التي يعرف أنه يستطيع الانتصار فيها.

- حسنًا، ليندا، ليس ذلك دقيقًا تمامًا. تعرفين ذلك. يستطيع القراءة قليلًا. يستطيع قراءة كلمتي بول و«كلا».

حرَّفت الموضوع بعيدًا:

- حفظ الكلمتين غيبًا.

- أنا واثق أنه ليس إنصافًا قول ذلك. ماذا تفعلين عندما تقرئين؟ هل تقولينه بالصوت؟ ماذا؟

هززت رأسي حائرة.

- ليو، اسمع...

اقترب مني وأحاط يدي بيديه الرطبتين:

- ليندا، اسمعي.

كان يضغط عليهما الآن، يعصر أصابعي. صار صوته موسيقيًا أكثر، على غرار ما كانه مع بترا.

- لقد كُنتِ عونًا ضخمًا. الآن، أليس عليَّ أن أعود إلى الغرفة؟ أرى ما يستطيع فعله تاليًا؟ اعذريني لحظة. حسنًا؟

تركت ليو وذهبت إلى الغرفة الرئسية، حيث كانت أطباق الإفطار باقية على الطاولة. تجمدت قطرات من عصير القيقب في الأطباق، فصارت خرزات عنبرية اللون. انتشر فتات الفطائر في مجموعات واسعة على طاولة الخشب، ومفرش القصب، وألواح خشب القيقب على الأرض.

كانت بترا تنظف علبة براز القطط، ومازالت مرتدية قميصها الـ«تي شيرت». جثت على ركبتيها في المطبخ. أمسكت مجرفًا بلاستيكيًّا أزرق بيد، وبالأخرى كيس قمامة أبيض؛ بدت كطفل صغير يلعب على الرمل. نظرت إليَّ، وأزاحت الشعر عن عينيها عندما دخلت المطبخ.

لا بد أن شيئًا ما كان في وجهي ولم يعجبها، لأنها ألقت عليَّ نظرة واحدة، ثم أخذت تزحف إلى الخلف على ركبتيها، فوق أرضية مكسوة بالآجر. اقتربت منها وقلت:

- بترا.

نهضَت واقفة، براز قطط منغرس في ركبتيها، منضغط في موازييك رمادي اللَون. سرت خطوة نحوها، لكنها أبقت على مسافة بيننا. أمسكَت بالمنضدة ذات الخشب المتعدد الصفائح. درت حول الجزيرة التي صنعتها المنضدة لأصل إليها، لكنها دارت في الاتجاه المعاكس متحركة بعيدًا عني. قلت ثانية:

- بترا.

سألت برجاء:

- هل كل شيء على ما يرام؟

كأنني أستطيع ضمان ذلك لها، كأني أستطيع إنقاذها.

- أعتقد أنه ربما...

- ربما؟

- يحتاج إلى شيء ما. كأن يكون شيئًا يُشترى من مخزن الأدوية، أو....

قاطعتني قائلة:

- لا تخبري ليو.

تراجعتُ عما كان ممكنًا أن أقوله. قلت:

- كـ«تايلونول»[1] أو شيء ما؟

- **تحكَّمي بأفكارك، يقول ليو. فكري بـبول كأنه يوم جديد.**

- أستطيع الذهاب إلى مخزن الأدوية بالنيابة عنك. هل ذلك جيد؟

- ومن يستطيع منع يوم جديد من القدوم؟

لعقت شفتي الجافتين:

- يجب أن أجلب شيئًا ما، أظن ذلك. بترا؟ بترا؟

طوال الوقت، كنت أخطو نحوها بهدوء وبأسرع من ابتعادها عني. أصبحت الآن على بعد إنشات قليلة منها. وَقَفَت هناك، بنفسها الصباحي العطن وركبتين انغرستا في براز القطط. أمكنني القول بمجرد النظر إلى عينيها إنها كانت تستعمل سطح دماغها، متمايلة على ذلك السطح بأمل وقلق. لذا وباندفاعة، قبَّلتها على شفتيها، في لحظة كنت أكرهها كليًّا، ورغبت في فعل شيء ما أكثر، أن أؤذيها، أن أصفعها، أن أسترد شيئًا ما. كانت شفتاها باردتين ومسطَّحَتين، وغير متجاوبتين. لم تبدُ كشِفاه.

تنحَّت جانبًا، قالت:

- «تايلونول» وحده.

لم تستوعبني فعليًّا، لم تكن فعليًّا في وعيها، بل فقط تتمايل في قارب وسط الأمواج. قلت بنعومة:

- إنه أمر لعين.

قالت:

- ماذا؟

كانت أشد بؤسًا من أن يُلحَق أذى قاسٍ بها. بالكاد غطى «التي شيرت» سروالها الداخلي. كانت، بكل قطعة منها، مجرد أطراف؛ ممطوطة ورفيعة وعارية تقريبًا. كنت على مقربة كافية منها كي أرى ذلك. أخبرتها:

---

(1) إحدى الماركات التجارية لعقار «بنادول» Panadol. (المترجم)

- لا بأس، إذًا.

سرت عبر الغرفة، وأدخلت قدميَّ المكسوتين بالجوارب في حذائي التنس الموضوع على ممسحة منحرفة عند المدخل. ثم أدرت مقبض الباب الأمامي، وفتحته ليدخل منه مستطيل ضوء قاسٍ للصيف. نظرت خلفي لمرَّة صوب بترا الواقفة عند المنضدة بقميصها الـ«تي شيرت» المجعد. كانت تلوي شفتيها ولا يخرج منهما صوت - ببطء وغرابة - وترسمان كلمة «**أشكرك**» بطريقة وددت معها لو أعود وأرغمها على قولها بصوت عالٍ. لكن، حينها، ذهبت. في الخارج، عند الطريق الجانبي، صار الجو حارًّا. سرت بضع خطوات في الغابة كأني أعود إلى منزلي، وعندها، على نحو مفاجئ، قرفصت ورفعت حجر الغرانيت الموجود على ممر المشاة. تماوجَت الديدان إلى الأعلى بعشوائية. تحرَّكَت خنافس شبه شفافة في دوائر غبية. كانت الأشياء كلها تتلوى وتنتفض بإشفاق، لكن هناك النقود التي تركتها بترا قبل أسابيع. كانت مبللة ورطبة، لكنها نقود حقيقيَّة. حشوتها في جيبي، وانطلقت عدوًا.

15

في السنوات الثلاث التي تلت الثانوية، أخذت دروسًا في «كليَّة «إيتاسكا» الأهلية» في مدينة «غراند رابيدس»، بولاية «مينيسوتا». عملت في بار لـ«البيتزا» اسمه «ذي بينج» فيه طاولات «فينيل» بنيَّة وزجاجات نبيذ حُوِّلَت إلى مزهريات محشوة بأزهار قرنفل بلاستيكيَّة. انحصرت شروط الوظيفة في لبس شورت أسود، حتى في الشتاء، وإبقاء منضدة السلطات مملوءة بالخس المقطَّع وقطع الجزر المقشورة. خلال تلك الفترة، جمعت من المال ما يكفي لدفعة أولى لشراء سيارة «شيفي كورسيكا-88»؛ وفي السنوات التي تلت شرائي تلك السيارة، عِشت في «دولوث» حيث عملت في البيع بالمفرق، ونظَّفت المنازل كعمل إضافي. أحيانًا، في أيام راحتي، كنت أمشي إلى الشاطئ وأنتظر جسر الرفع كي يرتفع، وتنسلّ سفن المجاذيف وقوارب الأشرعة، إلى خارج المرفأ. لم أقف على التلة العشبية مع السائحين، بل عبرت الجسر وجلست على الرمال الصلبة عند الخليج. وفي رابع ربيع عشته هناك، توفي والدي. بعد المأتم في «لوس ريفر»، حطَّمت سيارتي الـ«كورسيكا» بأن ارتطمت بالأشجار، وبعت سيارتي قطعًا، ووجدت عملًا في مكتب لخدمات الوظائف المؤقتة في «سيتيز». وقد أرسلني المكتب إلى شركة «ماني كو بارج»، حيث قمت بالرد على مكالمات هاتفية تأتِي من رجال أصواتهم خشنة يعملون في نقل بقايا الفولاذ والذرة عبر نهر المسيسيبي. تمثّل عملي في ترتيب جداول أعمالهم، إعطاء الأوقات المتوقعة للوصول والإقلاع في رحلاتهم، وأحيانًا الاتصال بزوجاتهم واختلاق أعذار لهم.

كنت آكُل وجبات غداء معلَّبة في غرفة الاستراحة مع بقية العاملين بالوظائف المؤقتة، وفي نهاية كل يوم، أسير إلى موقف الحافلات في وسط

البلد، عبر شوارع نُثِرَ عليها ملح إذابة الجليد. وعبر النوافذ المليئة بالخدوش للحافلة، راقبت هطول الثلج في دوائر كبيرة تحت الأضواء، عبر النهر بأكمله.

كانت شقة الميكانيكي قبوًا عند الممشى الخارجي، نصفه فوق الأرض والآخر تحته، في ما كان مبنى من الطراز الفيكتوري الفخم سَكَن طلبةٌ في أبراجه. وقد نبتت شجيرات حور صغيرة عارية، من مجاري المياه كلها. كنت أقول لـ«روم» عندما يفتح بابه الخلفي المتداعي:

- هاي.

أجده ما زال يرتدي ثياب الميكانيكي ومعطفه الأزرق المملوء بالشحم، عيناه تدمعان من البرد الذي أُدخله معي. أحمل «بيتزا» مثلجة وست علب من بيرة «بود»، فيقول:

- آوه، يا رجل. ما كان يتوجب عليك فعل ذلك.

حتى لو لم يكن متأثرًا، فإن ذلك لم يمنعه من شرب حصته المكونة من ثلاث علب بيرة، في الثلاثين دقيقة يستغرقها الفرن في تسخين الـ«بيتزا» وخَبْزها. كنت أبقيه بعيدًا عن علب البيرة، بأن أصفع يده في كل مرَّة يمدها إلى العلب طلبًا للمزيد. أقول له:

- العدل هو العدل.

ذات ليلة، ذهب إلى غرفة النوم وأحضر خُمسيَّة ويسكي. وفيما هو يتجرع من القنينة، خلط طبقه المعتاد من السلطة المُكوَّنَة من البرغل والنعنع والخيار. دفعني إلى شرب كأس حليب أثناء انتظارنا خَبْز الـ«بيتزا». دفعني إلى أكل بضع لقمات من سلطته مع نصف برتقالة، قبل أن يسمح لي بجرعة من شرابه المسكِر الحقير. سخر مني قائلًا:

- العدل هو العدل.

حرقَت جبنة «البيتزا» سقوف حلوقنا. وعندما طلبت جرعة أخرى من الويسكي، جذب القنينة بعيدًا عن متناولي. أصدَرَ أمرًا:

- كلي سلطتك.

في أول شتاء قضيته في «سيتيز»، كان «روم» ضخمًا بسبب تناول الفيتامينات. اعتقد بأنني آكل بطريقة مزرية، ولدي مشكلة مستعصية مع الماضي، ويتوجَّب عليَّ الذهاب إلى طبيب أسنان. رَغِبَ أن نتناول الطعام على طاولته، لذا وضع أطباقًا ومربعات من مناديل الورق مطوية عند منتصفها. بدأ يضغط باتجاه اقتناء حيوان أليف، هو كلب استكشاف من نوع «لابرادور»، لأنه ظنَّ أن وجود كلب يؤدي إلى زيادة تنظيم الوقت، والبقاء في شقة مشتركة، ومزيد من التمارين الرياضية.

كان هناك رحلات عطل نهاية الأسبوع إلى الشاطئ الشمالي، والتخييم اللعين، ولا أعرف ماذا أيضًا. وعندما بحلقت عينيَّ متسائلة عن ضرورة ذلك، قال:

- إذا لم تكوني بصدد أي أمر، يا فتاة الكشافة، اكتفي بالصمت. موافقة؟ اكتفي بالصمت.

احتججت:

- لم أقل شيئًا.
- لا يتوجَّب عليك قول أي شيء.

أحيانًا، بعد العشاء، كنا نرتدي قبعاتنا وقفازاتنا المقصوصة الأصابع، ونتمشى إلى صالة السينما وهي بعد مبانٍ قليلة، باتجاه مبنى المجلس التشريعي. نتقاسم كلفة تذكرتين، وعلبتي «كولا»، ووعاءً كبيرًا من الفوشار. ودائمًا، كانت الأفلام التي يختارها «روم» بأصوات لا تكف عن الارتفاع، مملوءة بشرطة يطلقون النار من فوق سقوف السيارات. مع ذلك، كنت أجد من المريح الجلوس هناك في الظلمة المتناوبة. وكلما كان أكثر صخبًا، نمت أسرع، رأسي مستندة إلى المقعد وحذائي مثبت على الأرض. لم أبالِ بتفويت مشاهد المطاردة بالسيارات والانفجارات. كان باعثًا على الطمأنينة ذلك الإحساس بأن شيئًا ما مهمًّا يحدث أثناء نومي، شيئًا ما يحدث ويستعمل فيه السلاح.

بعدها، يعمد «روم» إلى امتحاني كي يعرف متى غفوت. كان يقول عند مشينا خارجًا:

- ذلك الرجل الذي تحوَّل وجهه إلى سمكة، هل رأيت ذلك؟

وكنت سأقول، وعادةً لم أكن أفعل:

- إنه لا يُصدَّق.

عندما انقضت ثمانية أشهر على قدومي إلى «السيتيز»، وتكاثرت العُطَل، ذهبت إلى شقة «روم» في عشية عيد الميلاد حاملة حزمة صغيرة لففتها في ورقة جلد غزال حمراء، وطوقتها بشريط رفيع أخضر. فتحها «روم» على سريره غير المرتب، حيث جلس بأرجل متشابكة. كانت قدماه عاريتين بأظافر صفراء، لكنه كان يرتدي جينزًا جديدًا ومتيبسًا، وقميصًا أسود بأزرار مقفلة، وغير مشدود تحت الحزام.

راقبته يقص الشريط الأخضر بأسنانه، ويرفع من الصندوق طوقًا بمسامير لرقبة الكلب، معلقًا برسن من جلد سميك. استغرق لحظة في فك الرسن، ومن الغريب كيف يكتسح الفرح وجه رجل ناضج بحيث إنه لثانية واحدة، تستطيع رؤية الطفل الذي كانه: وجه ناعم وغير حذر. ثم ذهبت تلك النظرة وأخذ يحدق بي بعينين ضيقتين، وأنا أتلوى أثناء نزع الجينز، ثم أفك صدريتي، وأُصبح عارية تمامًا. أخذت الطوق الجلدي وربطته حول رقبتي.

لبرهة، بدا محبَطًا جدًّا، وخائب الأمل جدًّا - كأني فعلت الشيء الوحيد الذي يستطيع إيذاءه حقًّا - لكن بعدها تشممت حضنه وناولته الرسن، وأمضينا وقتًا طيبًا. قال لي:

- أنت فتاة سيئة.

شددت بعكس اتجاه الرسن. لم أكن لأذهب إلى حيث أراد. وبومضة في عينه قال:

- إلى الأسفل. ابقي.

كانت هديته لي سكينًا سويسريًا. أوضح الأمر قائلًا:

- إنها دفاع الأحمق.

بدا متوتّرًا قليلًا، وانحنى إلى حد أني سمعت الزر المثبت على لسانه يرتطم بأسنانه. كان ذلك بعد أن أعدنا ارتداء ثيابنا، وكُنَّا على سريره نرتشف شراب البيض من الكرتونة مباشرة. انتظرَ إلى أن قلت:

- مناسب، شكرًا لك.

ثم بدأ يريني الأشياء التي تستطيع السكين فعلها. تقشير برتقالة، إزالة حراشف سمكة. لم أخبره أني أملك سكينًا مماثلًا تمامًا في محفظتي، لكنها تؤدي وظائف أكثر. لم أخبره أني عرفت من قبل أي بروز معدني يتوجب أن أخرجه بأظفري كي أحصل على قطّاعة للأسلاك، أو شفرة سكين بطول ثلاثة إنشات. بدا الأمر كأن تلك الهدية تتعلق بأشياء كثيرة بيننا. بالنسبة لي، كانت الشيء الصواب تمامًا والخطأ كليًا.

في ذلك الشتاء نفسه، عقب عيد الميلاد مباشرة، تلقيت مغلّفًا أحمر لامعًا بالبريد.

كنت أراجع الفواتير مع «آن» ذات ظهيرة قاتمة، عندما سحبَت مغلّف «بابا نويل» الذي يُرسَل إلى الأطفال في عيد الميلاد، مع عنوان للرد مصدره «فلوريدا». سألتني:

- هل هذا مُرسَل من عائلتك؟

أخذته منها. تقوّس حاجباها الباهتان المنتّفان فوق إطار نظارتها، في إشارة أمل. لطالما قلقت «آن» - بل كسرت الشيفرة الصارمة للُطف الكندي - من عدم امتلاكي خططًا مجهزة للعطل، وأني لا أخبرها حتى أدنى تفصيل عن المكان الذي أتيت منه. ترددت طويلًا قبل أن أقلب المغلّف إلى سطحه الأمامي وأقول:

- نعم.

وقفت وحملت المغلَّف إلى مطبخنا الصغير. في داخله بطاقة تهنئة بعطلة الميلاد مع رسم غزال وكلمات «هوو هوو هوو»[1] بخط أسود منمق. عندما فتحت البطاقة، فاجأتني صورة رجل أبيض الشعر يداه ملتفتان على كلب. بطريقة ما، كانت مخيفة، لكنها لم تكن كذلك أيضًا. مجرد صورة رجل على كرسي جزَّازة عشب، مع كلبه؛ مع ظل شجرة نخيل يحوم فوق رأسه.

أمكنني أن أُحس بأن «آن» تراقبني عبر الغرفة. سألت:

- ما المنطقة التي يسكنها أهلك في فلوريدا؟

لم أستطع النظر إليها كي أرُدّ. لم أطق الحديث عن «لوس ريفر»؛ لذا، بدلًا من ذلك، اتجهت إلى المدخل.

- أريد وجبة سريعة. هل ترغبين في «كولا دايت» من المخزن القريب؟

لطالما رغبت في ذلك. نفضت سترتي، وحشوت المغلَّف والصورة في جيبها. فتحت الباب، ونزلت أربعة طوابق في المصعد، مصغية إلى الصوت الحاد والمتكرر لآلته غير المرئية. في الطابق الأرضي، كان هناك صرير ووثبة. لماذا أُخبِر «آن» أني لم أتواصل مع أمي منذ ثمانية أشهر؟ لِم أخبرها بذلك؟ خارج الشقة، زحفت المركبات على طرق جليدية، وامتزج في الهواء الثلج مع دخان العوادم. صلَّب البرد بشدَّة الجلد على خدي، وهدَّأني. بعد هنيهة، استدرت عائدة عبر الباب الدوَّار، ووقفت في المبنى الدافئ ثانية، وكان الضوء لامعًا فوق صناديق البريد.

كتبَ السيد غريرسون في بطاقته الميلادية:

- عزيزتي ماتي.

بعدها، صار خطه المنمق يكتب قطعًا منفصلة ومتتالية. قال في قطعة منفصلة، بخط مائل إلى الأسفل واليمين:

---

(1) هي الصيحة الشهيرة التي يطلقها «بابا نويل» ممتطيًا عربته التي تجرها غزلان. (المترجم)

- أشكرك على رسالتك التي أرسلتها قبل شهور.

وأضاف:

يا له من أمر غير متوقع، رسالة من الطراز العتيق حقًّا. رغبت أن أكتب الرد فورًا، وبعد ذلك، عقب مرور بعض الوقت، صرت أَمْيَلَ إلى عدم الكتابة بتاتًا. لكن، أعطاني عيد الميلاد عذرًا وجيهًا، وكانت مفاجأة سارة أن أسمع منك، وأعتقد أن ذلك سببه أني لم أتوقع أن أحصل على رسالة كتلك. قلقت أيضًا لأن تلقي كلمات من أستاذ قديم لا يشكِّل إلا إحباطًا. أتذكر أني صادفت أحد أساتذتي القدامى قبل بضع سنوات، واكتفينا بأن وقفنا مع بعضنا ولم نجد شيئًا لنقوله، ولذا افترضت أنه لم يتذكرني بالطريقة التي قال إنه فعل ذلك فيها، وأن ذلك كان أمرًا حلوًا. وحينها، ثم بعدها، أقسمت ألا أتظاهر بأني أعرف تلميذًا قديمًا. أرجوك ألا تعتبري المسألة أمرًا شخصيًّا عندما أقول إن فترة وجودي في «مينيسوتا» كلها، تبدو لي غائمة الآن. لا أملك الكثير من الذكريات عن تلك السنة. إضافة إلى ذلك، لم أعد ذلك الشاب الذي كنته، وأنا واثق أنك تعرفين ذلك. على الرغم من ذلك، من الجميل معرفة أن أحدًا ما استفاد من دروسي. لقد عملت بجد، ومن الجيد معرفة أن ذلك الجهد كله ترك تأثيرًا على نحو ما.

تكاد مساحة هذه البطاقة أن تنفد! ليست فلوريدا بالمكان الذي أوصي به. إنها تشبه التحطُّم ببطء بأيد غير مرئية. ها، ها، ها. ما أقوله هو أنها حارة. تمر الأيام سراعًا فيها، ومؤخرًا صرت راغبًا في مقاربة الأشياء على طريقة قائمة المشتريات. أشعر أن ذلك هو كل ما أقدر عليه الآن. إليك ما أريده؛ مجرد الجلوس آخر النهار، وإدراك أني أنجزت بنود القائمة. على الأقل، أنا لست من تقولين إنني هو، على رغم أن رسالتك كانت لطيفة. لقد تعلمت قليلًا عن تلك الأمور في حياتي، أقصد أولئك الناس الذي يتكبدون عناء الكتابة لي. وجدت أن بعض الناس يرتكب خطأً ما، ثم يمضي ليُدين كل شخص آخر كي يتخففوا من الإحساس بكونهم قذرين هم أنفسهم.

كأن ذلك له أي جدوى. هناك أنواع أخرى من الناس، ولست أقول إنك منهم بالضرورة، لكني أوضح الأمر؛ يُدافعون عن أشخاص مثلي بشكل مبدئي، لأنه عندما تدور الدائرة عليهم، يريدون بشدة أن يجدوا من يفعلون ذلك لصالحهم. لا تأخذيني على محمل الجد. رغم ذلك، أعتقد أن كاليفورنيا رائعة. اذهبي، إذا أردتِ.

السلام، نعمة الله، وسنة جديدة سعيدة!

آدم غريرسون

في أول يوم من السنة الجديدة، نهضت مبكرة لأني لم أستطع النوم، رغم أني بقيت لوقت متأخر في شقة «روم» في الليلة السابقة. سرت في الممر المتلوي الذي يحاذي نهر «مينيهاها كريك» إلى بحيرة «ليك نوكوميس». لم تشرق الشمس بتاتًا. كان هناك ظلام يليه ما هو أقل منه ظلمة. وعندما وصلت إلى البحيرة، وجدت صيَّادًا متفائلًا يجر على الجليد زلاجة حمراء بلاستيكية محمَّلَة بالمؤونة. كل أنواع العدَّائين غير التقليديين وهواة عبور البلاد بالطيران، بقوا في منازلهم. أعتقد أنهم كانوا نيامًا، أو أنهم يكتبون خططهم على بطاقات الملاحظات، ويشربون مزيجًا من عصير البرتقال مع الشمبانيا من نوع «ميموزا»، ويمارسون الجنس. كنت أنا ورجل الزلاجة وحدنا في العالم خارجًا. صنع جسمه زاوية حادة مع سطح الجليد، إذ كان يميل بجسده بمثل تلك القوة عندما يشد. حفرت زلاجته خطًّا طويلًا أزرق ممتدًّا من طرف البحيرة إلى طرفها الآخر.

عندما زادت سرعة الريح، أسرعت الخطى عبر الأشجار كي أبقى دافئة. تبوَّلت في مرحاض متنقل، من دون أن أجلس عليه تمامًا. خرجت، وتركت البحيرة خلفي، ولم أنظر إلى الوراء. إلى أين يذهب الناس في المدينة كي يتخففوا من شعورهم بأنهم واقعون في فخ؟ في شارع «سيدر آفينيو»، توقفت لتناول فنجان قهوة ولأدفئ يديَّ العاريتين في مخبز يبيع أنواعًا من الخبز

والأرغفة غطت الجدار بأكمله. في البداية، اهتممت بالخبز، لكني خرجت من دون أن أشتري شيئًا. وبدلًا عن ذلك، ذهبت إلى بار كان يعجبني، وفيه كراسٍ من دون ظهر ولا مسندين دُهِنَت كي تشبه أرجل البشر.

تركت نفسي أثمل. تركت نفسي أتقوَّس كرجُل الزلاجة، بزاوية حادة فوق البار. وفي النهاية، نظرت إلى ساعتي وأدركت أنني أحتاج الوصول إلى الحافلة كي ألاقي «آن» في مغسل آلي اسمه «لا وندرومات»؛ إذ رغبت «آن» في غسل كل مناشفنا وستائرنا وسجاداتنا لنحصل على «انطلاقة جديدة»، وفق قولها.

ولمدة ثلاث ساعات، استنفدنا فيها قطع أرباع الدولار التي لدينا وزال السُكْر عني؛ غسلنا ونشَّفنا وطوينا بياضاتنا.

عندما هممنا بالعودة، كان الظلام قد عاد تقريبًا. قالت «آن» إنها ترغب في رؤية مشاعل الأغنياء على امتداد النهر. لذا، حملنا سلالنا وقطعنا مشيًا الطريق الطويل إلى المنزل، وعبَرنا ممرًّا، ثم سرنا عبر خط ملتوٍ من الدكاكين. بين بنك ومخزن مغلق لبيع الكاميرات، مررنا بغراب ينتزع بمنقاره قطعًا من لوح خبز طويل مثلج، أمام مخزن وحيد مُضاء. كُتِب على نافذة المخزن **«العلم والصحة»** بطبشور أزرق، وفي داخله، ابتسمت بهدوء سيدة تذكر بالعصر الفيكتوري، في صورتها على ملصَق. نقل الغراب لوح خبزته إلى عامود تلفون، وأثناء عمله ذلك، توقفت «آن» وتباطأت قرب الزجاج. قبل سنوات، ذهبَت إلى مخيم مع بعض «العلماء المسيحيّين»، ما جعلها تعتقد أنها نوع من مرجعية. وتوقَّفَت لحظة لتقرأ بصمت عبر النافذة.

- اعتقدت أنهم أغلقوا معظم غرف القراءة. الحال أنه لم يتبق الكثير من هذه الكنائس.

ثم هزَّت رأسها ونقلت ثقل السلَّة من ورك إلى آخر.

- أقصد أن الشيء الذي لم أفهمه أبدًا، الشيء غير المنطقي أبدًا، هو كيف يمكن أن يكون لك دين لا يقدم شرحًا إطلاقًا عن أصل الشر.

استمررت في المشي.

كانت ليلة مملة أخرى، ومن دون ثلوج. تقريبًا، لم يكن من أحد في الخارج، إذ أمكننا أن نسير مباشرة في وسط الطريق. تساءلت «أين هي تلك المشاعل»؟ آلمتني ذراعاي من ثقل مناشفنا التي تفوح برائحة الليمون.

هل ذهبنا بعيدًا؟ هل فوتناها؟ لكن، لا. على مسافة بضعة مبانٍ، رأينا أول الخطوط الطويلة من أكياس الورق البنيَّة مضاءة، تلتمع كلها بلون برتقالي من شموعها.

صرخَت «آن»، قبل أن تتوقَّف قليلًا:

- آه.

نقلت سلَّتها كي تتمكن من لمس ذراعي.

- انظري إلى ذلك! انظري.

في وقت ما من تلك السنة - ربما تلك الليلة، ربما بعدها بأسابيع - انتهى الأمر بي إلى إخبار «آن» عن «لوس ريفر». أخبرتها عن التنافس في مشهديات مغارة المهد في عيد الميلاد، عن صنع اللوثريين كيسًا للرمل على هيئة المسيح، وعلى لجوء الكاثوليك إلى الثلج في الأمر نفسه. أخبرتها عن سطح قاعة الرياضة الذي انهار تحت ثقل الثلوج عندما كنت في الصف الثامن، وعن السيد آدلر المُحِب للملكيَّة الروسيَّة أكثر من كل شيء آخر، حتى أميركا. حتى أني ربما أخبرت «آن» في نهاية المطاف، عن والديَّ، وعن ليلي الجميلة - ليلي التي تركتنا كي تعيش مع طفلها - لكني لم أقل شيئًا بتاتًا عن بترا وبول، ولم أخبرها عما أفكر به فعليًا بشأن «العلم المسيحي» الذي هو وفقًا لما أعرفه، وفقًا للقليل الذي أعرفه، يعطي أحد أفضل المسارد عن الشر الإنساني الأصيل.

إليك هنا يا «آن» المصدر الذي يأتي منه.

أعتقد الآن: تلك هي القصة التي أحاولُ سردها هنا.

كلما استثير بول، ركض بخطوات كبيرة تشبه تلك التي سار بها رواد الفضاء على سطح القمر. بدا دومًا كأنه يركز بشدَّة، يقول لنفسه **اركُض، اركُض** ، وفي كل مرَّة تعبر تلك الكلمة في رأسه يقومَ بقفزات أشد تصميمًا في الهواء. عندما أطلب منه أن يركض يسرع، يحدث أنه يجري إلى **الأعلى**، فتنخفض سرعته كثيرًا.

من شأنه أن يقوم بكل ذلك العمل غير المجدي، رافعًا ركبتيه، ملوّحًا بقبضتيه.

كان جميلًا رؤية ذلك، وأنا كنت لئيمة قليلًا بتحريضه عليه. كنت أقول له:

- اركُض.

فيتباطأ إلى سرعة تشبه الزحف، مع شبه توقف بين القفزة والأخرى. كنت أقول له:

- أَسرَع.

تنغلق شفتاه وتنطبقان. يطلق يدًا إلى الأمام وأخرى إلى الخلف. كان صبيًا تعلم الركض من مراقبة الأقزام في منجمهم[1]، وشاشة التلفزيون، وأفلام الكرتون. ذات مرَّة، قلت له:

- أُسابِقُك إلى المنزل!

ثم، وكأنه أخيرًا فهم الأمر - أقلَّه في ذلك اليوم - فبقي واقفًا على الرصيف الخشبي. لذا، قمت ببضع خطوات مبالغ فيها كي أشجعه. قلت، مانحة إياه تهديدًا لا يُقاوم، بل ضربت بجزمتي على الألواح الخشب **الخبطة تلو الخبطة**:

- أنا لن أهزمك!

---

(1) إشارة إلى قصة «بياض الثلج والأقزام السبعة»، وفيها الأقزام هم عمَّال في منجم. (المترجم).

لم يحرك ساكنًا. عندما التفت إلى الخلف، كان يتكوَّم إلى وضعية التمدد، بطنه إلى الأسفل، وذراعاه معقودتان تحته على الألواح. قلت:

- ماذا هناك؟

دنوت منه، وبتحبب شجعته بلكزة من طرف جزمتي.

- دخل هذا الدب في سبات شتوي، على ما يبدو.

بعد برهة، قال:

- مللت.

سألت بسخرية متشككة:

- أصاب الملل الدب؟

أضاف:

- و...

ثم أدار عنقه فصار وجهه مضغوطًا على الألواح، فيما اندفع جلد شفته مزمومًا راسمًا حلقة:

- بطني...

ثمة شيء في الطريقة التي قالها بها، جعلني أقرفص وأنظر إليه عن كثب. ثم جذبته إلى وضعية الجلوس. أغدقت عليه كل القليل الذي كان لدي.

- إذًا، أنت لا تعرف عن الذئب.

تأوَّه قائلًا:

- لا أريد التظاهر.

وعدته بأن قلت:

- هذا شيء حقيقي.

ربما حدث ذلك في أواخر مايو. كانت أشجار الحور والحور الرجراج تلقي بذورها في كتل ناعمة تطير في الريح ثم تتجمع - كما تفعل ندف الثلج - على الطريق الجانبي الموحل.

استدرجته إلى الكاراج بقليل من كعك «بريتزل»، وثبَّته على الدراجة أثناء تناوله لها، وجلس مترهلًا، مرتديًا الخوذة، وبدا مشتتًّا بسكينة. وعلى المقعد البلاستيكي الأحمر، بدا كبير الرأس وشبيهًا بتمثال لـ«بوذا». دفعت الدراجة على الطريق الجانبي، وبشيطنة تعمدت أرجحتها أثناء قيادتي لها. صرخت:

- ها نحن نمضي!

وكنت آمل أن أُخِلَّ بتوازنه، أن أدهشه كي يتصرَّف بطفولة أكثر. كانت رحلة طويلة إلى «مركز الطبيعة»، وأثناءها أخبرته عن الذئاب حقائق وإحصاءات وقصصًا. تعمَّدت أن أُبهِره بالذئب المحنَّط في المدخل. تعمَّدت الإشارة إلى أنيابه الصفراء تحت شفته الزرقاء، وإلى نقط الدم الحمراء المرسومة على مخالبه المرجانية اللون. تذكَّرت المرَّة الأولى التي رأيت فيها ذئبًا عندما كنت طفلة، كيف أن ذلك الإحساس تجاوز الحب، وجعلني جائعة، جائعة، جائعة.

لكن بول لم يهتم بالذئب. نظر إليه بضع ثوانٍ، ثم هزَّ كتفيه استخفافًا. بعد أحد عشر ميلًا على الدراجة، لم يقل سوى:

- إنه ليس حقيقيًا.

كان أشد ما أحبه في المركز فعليًا هو الأحجيات. عثر في رفٍّ عند الزاوية على واحدة تطابق ما لديه في المنزل. كانت مشهدًا رعويًا في الشتاء داخل الغابة: بومة مثلجة تجثم على غصن أسود، عيناها مستديرتان وبلا أهداب، كأنهما فتحتا إناءين. كان بول يعلم عن ظهر قلب كيف يجمع تلك الأحجية، لذا فبدلًا من النظر إلى الذئب أو الثعالب المحشوة، بدلًا من تلمُّس الروث المطاطي أو إدخال يده الصغيرة في إحدى العلب الخشبيَّة لتخمين محتوياتها؛ جلس معقود الرجلين على الأرض عند الزاوية، وشرع في تجميع قطع الأحجية عينها التي كرر تجميعها عشرات المرَّات في المنزل. تجوَّلت في المركز قتلًا للوقت، قرأت عن شاي يمكن صناعته من أوراق الصنوبر الإبريَّة، راقبت الأسماك الذهبية الصغيرة تدور في الحوض المائي للسيدة «بيغ». وفي النهاية،

لم يتبقَّ شيء لأفعله، ذهبت إلى بول وجلست القرفصاء قربه، وكان يحمل بيده قطعة من وجه البومة على هيئة شريحة جبنة سويسرية.

في البداية، أثار حنقي أنه لم يرفع نظره حين اقتربت منه. أنه لم يلاحظني كليًّا، أو يفكر فيما كنت أفعله. حشر نفسه فيَّ تلقائيًا، وترك جسده يتحرك نحو جسدي، وشقَّ طريقه إلى حضني. لم يتوقف أبدًا عن تفحُّص الأحجية. استقر بجسده فوق جسدي واضعًا رجلًا على رجل، فتوجَّب عليَّ الجلوس كليًّا على الأرض. افترض أنني متوفرة له ومهتمة به؛ كان يكفيه دومًا أن يفترض. طوى نفسه من منطقة الخصر ليصل إلى الأحجية من المستقر الذي اتَّخَذَه في حضني. وفي الخارج - خارج النافذة وعلى الطريق - هطلت جبال من كتل ناعمة لأوراق الحور.

في البداية، انزعجت، ثم تضاءل إحساسي بذلك. أحسست بصدره يتمدد مع كل نفس، ضاغطًا على سترته النايلون وكذلك على أضلاعي. أحسست بحرارة جسده عبر بنطلوني الجينز. حرَّك أصابعه بمعرفة من قطعة إلى أخرى، وأخذ يرجع رأسه إلى الخلف أحيانًا، متكئًا عليّ، كي يقيِّم ما يفعله. عندما انتهى، عمد إلى تفتيت الأحجية كي يعيد تركيبها ثانية. قلت:

- كلا.

على الرغم من أنني لم أكن واثقة مما عنيته بذلك. حينها، أضحت الغرفة مذهَّبَة بأشعة شمس الغروب. كان ذلك شيئًا اعتقدت أنه يتوجَّب عليّ قوله:

- حان الوقت. حان وقت الذهاب.

حينها، تثاءب وحبسَت جمجمته الأنفاس بين عظمتي كتفي.

تضمَّن ذلك شيئًا ما جعلني أندم على اقتراحي أن نغادر - شيئًا ما بشأن تلك الهدية البسيطة لجسده وقربه وحرارته - ما جعلني راغبة في البقاء لمدة أطول قليلًا.

بعدها، صرنا عند الباب، وكُنت أحكم إقفال سحَّاب سترتي فيما أعطته السيدة «بيغ» ثلاث قطع علكة على شكل دببة - وسألَتْه بنوع من التحريض مستهدفة :

- هل أمضيتَ وقتًا طيبًا؟

أحنى رأسه بطريقة جعلت جسده كله يتحرك إلى الأعلى والأسفل. قال:

- **كانت تلك أحجية رائعة.**

16

وفق شهادتها في المحكمة، ترعرعت بترا في إحدى ضواحي مدينة «ميلووكي». كانت الصغرى بين خمسة أطفال يكبرونها بعشرة أعوام على الأقل، فكبرت في أسرة من بالغين. أبوها مهندس، وأمها التي بقيت في المنزل مع أشقائها كلهم، كانت بصدد العودة إلى الدراسة والحصول على الدكتوراه في علم الاجتماع الحضري، وقد اصطحبَت معها بترا الصغيرة إلى كل الصفوف التي عملت معيدة فيها، وإلى عملها البحثي التطبيقي في مركز للأحداث في ووكيشا. وعندما وصلت بترا إلى الثانوية، كانت أمها أستاذة جامعية مرموقة، وأبوها متوفى بسرطان القولون، كما كان لأشقائها أبناء في سن المراهقة. أنهت بترا المرحلة الثانوية أبكر بسنة، وانتقلت إلى جامعة شيكاغو، حيث قابلت الدكتور ليونارد غاردنر في السنة ما قبل النهائية، وتزوَّجا في الأسبوع الذي تخرَّجَت فيه. اشترى ليونارد في آوك بارك منزلًا مشادًا على طريقة منازل المستعمرات عند بداية القرن العشرين، مع قطط وحديقة خضار، ومجموعة أراجيح، وكوخ حديقة للاسترخاء.

عقب ولادة بول، أخذته بترا إلى صفوف موسيقى وجمباز لصغار الأطفال. وفي سن الثالثة، أرسلته إلى روَضة أطفال هي الأفضل في المدينة. أصطحبته يوميًا إلى صفوف علمية للأطفال تتبع طريقة د. مونتيسوري في تعليم الطفل طرق الملاحظة العلمية - أكَّدَت بترا ذلك على منصة الشهادة في المحكمة - على رغم نفورها من قيادة السيارة، وتفضيلها إبقاء طفلها قربها في المنزل لوقت أطول قليلًا. وعندما ضغط عليها المدَّعي العام للولاية، أكَّدَت بترا أنه عندما عبَّر أحد الأساتذة في أحد أيام فبراير عن قلقه بشأن صحة بول أخذته سرًّا إلى أحد

أصدقاء أمها الذي كان مختصًا في الغدد الصماء للأطفال. أبرز المدَّعي أوراق عمل تظهِر أن الطبيب طلب فحوصًا لم تجرها بترا على الإطلاق. حاولت بترا إيضاح أن السبب في ذلك هو أن بول بدا في وضع أفضل بعد ذلك، لذا رأت أن قلقها الزائد - وقرارها باستشارة طبيب -أمرٌ مبالغٌ فيه وما عاناه بول هو مجرد تقلبات طبيعية لطفل في طور النمو. كانت تلك هي النقطة التي وافقت عندها على خطة ليو لتمضية وقت أطول في منزلهما المشاد حديثًا في شهر مارس. قالت:

- كي نحصل على مساحة ذهنيَّة أكبر. كي نحصل على تغيير في المشهد.

خلال المحاكمة، علمت أيضًا أنه بينما كنت في «لوس ريفر» في اليوم الذي أحضرت فيه «تايلونول»، أثناء ذهابي إلى البلدة وعودتي منها، قرَّر ليو أنه من الأفضل الحصول على «تغيير في المشهد» مجددًا، وألبس بول الغائب عن الوعي بنطالًا، وأدخل قدميه في حذاء، وعبَّأ صندوق السيارة بالأحاجي والقطارات، ومناديل الورق المعطرة، وكعكًا على هيئة حيوانات، ودفترًا للتلوين فيه رسوم عصافير اشتراها في «دولوث»، ومشَّط شعر بول. وعندما عُدت بعد الظهر حاملة زجاجة الحبوب، كانوا في طريقهم للخروج عبر المطبخ. جاءت بترا أولًا وعبرت بمحاذاتي تمامًا - وجهها أبيض ومتوتر - وبعدها عَبَر ليو. بعدها، عَبَر بول وهو بين ذراعي ليو. تجنَّب ليو ساحة المطبخ كأنه يحمل قطعة كبيرة من الخشب، أو تمثالًا مصغرًا عن طائر. لاحظتني عينا ليو الحمراوان، ثم تحرَّكتا لتنظرا إلى عوائق أخرى في طريقه. الطاولة، والباب الأمامي. وعندما أزلت كرسيًا من طريقه، قال:

- شكرًا، ليندا.

تدلَّت إحدى ذراعَي بول خلفه كأنها قطعة من حبل.

* * *

سُئلت:

- هل أخبروك إلى أين سيذهبون؟

لم يقولوا شيئًا.

- هل أخبروك أنهم سيقودون السيارة ساعتين ونصفًا ويتوقفون مرتين في مساكن خاصة في «برينيرد» و«سان كلاود»...

لم يقولوا شيئًا.

- ... ولم يكن أيٌّ منهم يمتهن الطب، قبل أن يقضي الضحية بتأثير تعقيدات الوَذَمَة الدماغية، قرابة الساعة السابعة والنصف من تلك الليلة؟

لم يطلب مني ليو سوى إغلاق الباب خلفهم.

آخر مرّة رأيت بترا فيها، كانت تقف في الطريق الجانبي أمام المنزل، منحنية القامة، وباطن يدها في فمها كقطعة كبيرة من الخبز. ارتَدَت جينزًا غير مزرَّر، وحذاء نسائيًا من دون كعب لم يكن ثابتًا تمامًا في قدمها. وعندما انتصب جسمها كان وجهها يلمع. عيناها زائغتان، وفمها أكثر اتساعًا مما يحتاجه للتنفس. ثم أغلقت باب السيارة من دون قول كلمة واحدة.

وقفتُ وقتًا طويلًا عند المدخل. كنت لا أزال ممسكة بزجاجة الحبوب، وبعد برهة، دخلت ووضعتها على الطاولة. لم أنزع حذائي عند الباب. أمكنني رؤية أَهِلَّة رفيعة من الوحل في الممر الذي صنعته على الأرض. فكَكْت حذائي التنس، وعثرت على مكنسة لأزيل الوحل، وبدأت أجوب المطبخ والقاعة مرتدية جواربي.

خارج غرفة بول، شممت رائحة تشبه مزيج الحلوى والسمك. وقفت لحظة لألتقط نَفَسي. ثم دخَلت ورفعت طبق بول المملوء بالفطائر من خزانة الأطباق. أمسكت كوبه المملوء بالحليب - بدا دبِقًا في يدي - وحملتهما إلى المطبخ .

سرت إلى الحافة الخشبية الخارجية، واقتنصت بعض أكواز الصنوبر وشرائح من لحاء الأشجار من أجل جدران «أوروبا»، وعدت وأنا أحملها بين ذراعيّ. رتَّبتها تمامًا بالطريقة التي ارتصفت بها على سجادة بول عند المدخل، وجعلتها في نصف دائرة حول خزانة الأطباق. صارت رائحة الغرفة مختلفة، تشبه رائحة نُسغ الأشجار. رفعت النافذة لتكون مفتوحة، كإجراء جيّد. سبق لشخص ما أن جرَّد السرير من الأغطية. طويت لوحة «كاندي لاند»، وأرجعتها إلى الصندوق. أضأت المصباح الليلي المحدَّب في غرفة بول، رغم أن الظلمة لم تحل بعد، وشمس الظهيرة المتأخرة أصابت زاوية أتاحت لها المرور عبر الأشجار، لترسم شكلًا شبه منحرف على الأرض. جلست على سرير بول الطفولي الصغير، واستلقيت بظهري عليه. احتطت أن لا ينمّل جلدي عندما أحسست برطوبة فراشه العاري. ركَّزت على شكل شبه المنحرف الذي رسمه الضوء، أثناء انحنائه، وصنعه ما يشبه خشبة المسرح، ثم صعوده سريعًا على الجدار. تدلت قدماي بجواربهما من الطرف البعيد للسرير.

هل ظننت أنهم سيعودون؟

أخذت الغرفة تدخل في الظلام. أمكنني سماع تكتكة الساعة، صريف مزراب، ودمدمة الثلاجة. صرخَت بطَّة غوَّاصة، شاطرةً قلب المساء، وطاردةً كلَّ ما هو زائد عن الحاجة. **هذا هو. ما قيل قد قيل.** هزَّ النسيم الستائر. ولم ألاحظ الشكل شبه المنحرف عندما اختفى. لم ألاحظ قدوم الليل إلا عندما سمعت صوت نحنحة قوية آتية من المدخل.

نهضت. في الضوء الأحمر المنبعث من مصباح بول الليلي رأيت شكل رجل. أول ما فكَّرت به أن ذلك كان ليو، وقد عاد. ظننت أنه ليو، واجتاحني إحساس بالراحة أو الخوف؛ أو كلاهما معًا.

رغم ذلك، لم يكن ليو.

كان ذلك أبي. قال: «أرسلتني أمك. لقد طرقت الباب.»

لا بد أنه دخل من الباب غير المقفل. جاء يبحث في المنزل الخالي أثناء

نومي. هل كنت نائمة؟ نظرَ إليَّ جالسةً في سرير بول، جالسة وأنا مشعثة المظهر بشكل مزرٍ، كأني المراهقة «صاحبة الجدائل الذهبيّة»[1]، وقد ارتديت جوارب متهدلة و«تي شيرت» مبْتَلًّا بالعرق.

سألني:

- «مادلين»؟

نظرت إلى الغرفة بالطريقة التي رآها بها حتمًا. مصباح ليلي بنور أحمر، أكواز الصنوبر منثورة حول خزانة الأطباق، ألعاب على هيئة أحصنة ودببة في الرفوف، و...أنا، لوحدي في السرير. كأني صنعت بعناية قلعة في الغابة أو ما يشبهها، كأني رتَّبت الأشياء كلها ثم جاء وداس على الدمى التي ألعب بها، أو أتظاهر أنني أفعل. لثانية، أحسست بأنني أصغر من أصغر الأطفال. سارعت إلى الجلوس على حافة السرير، مقوّسَة كاحليَّ على قاعدة لوح خشبي. قال معتذرًا:

- ما كنت لأجيء. لكني رأيت حذاءك التنس عند الباب...

كان يرتدي قميصًا سبق لي أن ارتديته، هو رداء قطني ناعم رمادي بدا مشدودًا على صدره، لكنه تهدَّل من كتفيَّ عندما ارتديته للذهاب إلى المدرسة في الربيع الماضي. كان شعره ملمومًا إلى الخلف على شكل ذنب الفرس، مربوطًا كالعادة عند مؤخرة قبعته الرياضية المرسوم عليها شعار فريق «توينز». كان يرمش بعينيه كي يعتاد على الضوء.

- هل كل شيء على ما يرام؟

ربما أخطأت في التفكير بأنه لا يوجد سوى جواب وحيد عن ذلك السؤال، بإمكانه أن يمنعني من الذهاب مباشرة ودفن وجهي في صدره.

- نعم.

- ماذا عن أصدقائك، العائلة؟ هل هم...؟

---

(1) إشارة إلى بطلة قصة الأطفال الشهيرة «صاحبة الجدائل الذهبية والدببة الثلاثة» التي كتبها الإنجليزي روبرت ثاوزي في القرن التاسع عشر. (المترجم)

استطعت أن أرى كم يكلفه حتى مجرد قول ذلك. ألم تكن نعمة كبرى - الأكبر بين النِعَم كلها - ألا يطرح المرء الكثير من الأسئلة؟ ألم يكن ذلك ما عرفته دائمًا؟ ألم يعلمني هو ذلك؟

- غادروا للتو. أنا في طريق العودة إلى المنزل.

ورغم أن ذلك كان كذبًا واضحًا، لكنه لم يقل شيئًا. كل ما قاله هو:

- حسنًا.

ووضع كفَّه الكبيرة على فمه ثانية، مزيلًا أي بقايا من التعبير ربما كانت متبقية. ثم استدار وشرع في الخروج، وأنا خلفه.

مات بعد عقد من الزمن من ذلك اليوم. أصيب بجلطتين دماغيتين جعلتا وجهه يبدو أكثر نعومة وامتلاءً. وفي نهاية المطاف، صار رجلًا شبه بدين بين ليلة وضحاها، رغم أنه اكتسب في الماضي مزيدًا من الوزن على مدار سنوات حتمًا، وببطء؛ حدث ذلك مع قلة المشي، وزيادة استعماله الدراجة ذات الثلاث عجلات، وتوقفه عن ركوب قارب «الكانوي» سوى لعبور البحيرة. ذات مرَّة، جئت إلى المنزل في السنة الفائتة لمساعدة أمي على إعداد المكان للشتاء، ورأيت أن أحدًا ما علَّق إناءً لإطعام الطيور على إحدى الصنوبرات عند مدخل المنزل. فقد دأب أبي على مراقبة الطيور طوال اليوم، وهي تجيء وتذهب. أتذكر أني جلست معه ذات مساءٍ بنفسجي اللون أثناء غروب الشمس، نراقب الطيور تتجمع على الثلوج في الخارج. وفي لحظة معينة، رفعت يدي وقلت:

- انظر، إنه طائر «نقَّار الجوز».

عرفت توًّا أني كنت مخطئة، إذ قفز طائر الحسون المنزلي إلى غصن آخر وتغوَّط. عرفت أنه يعرف خطئي، ومع ذلك، أحنى رأسه موافقًا.

لأحكِ كيف كانت أمي. في ذلك الشتاء نفسه، حيث وقفت على مقعد لأُثبِّت الستائر المبطنة على النافذة؛ وفيما العصافير تتقاتل على الحبوب في

الخارج - وأبي يغفو في كرسيه - شرعت أمي في حديث طويل عما كانه أبي في شبابه. قالت من دون أن تهتم بخفض صوتها:

- كان يتبعني إلى أي مكان. لم يكن يعرف إن كان راغبًا في متابعة الدراسة أو العمل مع والده أو العيش من الصيد. لم يكن يعرف. كان يهيم في دوائر، من دون الذهاب إلى أي مكان! أنا عرفت ما يجب عليه أن يفعله.

أسندت مرفقيها إلى مشروع غير منتهٍ على الطاولة، وهو كتابٌ مفتوح فوق كتبٍ مفتوحة أخرى. كانت أكثر اضطرابًا من المعتاد في ذلك الشتاء. نهضت طلبًا لمزيد من القهوة، لكن قدحها كان ما يزال ممتلئًا. أدارت إصبعًا على حافة القدح، وقالت:

- كان بحاجة إلى توجيه. ما كنت لتعرفي ذلك من الطريقة التي صار عليها لاحقًا، فلم يكن سوى واحد من أولئك الصبية الذين يعزفون على الغيتار. آنذاك، لم يكن يجيد سوى التقاط نغمة وتصيد سمكة. ذلك كل شيء. بعد ذلك، التقط الأشياء الأخرى كلها.

في عام 1982، وفق ما أخبرتني، عمدوا إلى تنفيذ فكرة ثورية جاءتهم من لا أحد. كانوا ثمانية بالغين، وثلاثة يافعين. ولأن أمي أكبر سنًا من الآخرين، لأنهم كانوا يجيدون الكلام فيما تجيد هي وضع الخطط، فهي من رتَّب توقيت المغادرة. أسندت المهمات للآخرين، وأقنعت والدي بأن يأخذ بضع فؤوس وبنادق من دكان يبيع معدات صيد الأسماك. سألتني أمي:

- هل فهمت؟

لم أُجِب. سمعت معظم تلك القصص من قبل. في صغري، سمعت مرات عدّة وصفها أول شتاء قضته في الكوخ: كل تلك الأزمات الصغيرة المتناثرة، السمكة الوحيدة التي نالوها للأكل، الطفلان الجديدان اللذان جاءا قبل الربيع، وكيف أن صبيًا، هو ابن مختص سابق في التغذية، أشعل النار بالخطأ في أحد الطفلين، وتلك الرحلة المذعورة إلى المستشفى في عزّ العاصفة، الشاحنة

المكسرة على الطريق، ونجاة الطفل في نهاية المطاف، ثم كيف صار الصبي مراهقًا، لكنه لم يعد يتكلم بعد ذلك. سمعت القصص، لكني لم أحبها تمامًا، ولم أستسغ أبدًا هذا المزيج من المرارة والحنين إلى ما مضى. في السابق، لطالما شدَّدت على أنهم كانوا شبابًا جاهلين آنذاك، وافتقدوا التوجيه. لكن، ها هي الآن تخبرني أنها لم تكن شابة صغيرة. كانت في الثالثة والثلاثين، مع انقضاء وقت طويل على سنوات دراستها في الثانوية والكلية. لقد فعلت كل ما فعلته، في وقت كان يجب أن تكون فيه أكثر دراية.

قالت لي:

- اسمعي.

ومضت تروي كل شيء مجددًا، من البداية تمامًا. سرقوا الحافلة الصغيرة في منتصف الليل من كاراج منزل والديها، وقادوها في رحلة شتوية خطيرة إلى كوخ مهجور للصيد يملكه عمها، والمهجع الكبير الجديد الذي شيّدوه في الربيع الأول، الراحة في الصيف، والصيف التالي، ميثاق التشاركيّة التي نسخوها بخط اليد على ورقة مقوّاة وثبّتوها على الباب؛ لكنها احترقت عندما تفكك كل شيء خلال ست سنوات.

- كانت تلك نهاية سيئة تمامًا، بالتأكيد. تصارع كل شخص مع كل شخص آخر، وكلٌّ كان يغار من الآخر، وساد التركيز على الأطفال. ما الذي يتوجب فعله بكم، أيها الأولاد. لكن، لم تكن كل التفاصيل سيئة، ليس معظم الوقت. كان لدينا أفكار جيدة وخطط جيدة. أردنا القرابة، من دون التزامات.

صمتت قليلًا.

- آمنّا بأنه يوجد ما هو أكبر من مجرد الأسرة- النواة- اعتقدنا حقًا أنه يمكننا رؤية شيء ما أفضل...

حدَّقَت بأبي النائم، وقد انضغط خده على كتفه. استأنفت:

- اعتقدنا حقًّا أننا نستطيع أن نفعل أشياء أكثر في هذا العالم...

خفضت بصري نحوها من علو المقعد الذي كنت واقفة عليه، وانتظرت:

- لكن، آنذاك رحل الجميع، وعاودنا البدء مجددًا، ولم يكن لدينا إلا أنت.

17

ملاحظة: أشجار «الـسكويَّة» أكثر إثارة للإعجاب من بقية الأشجار الحمراء، في حال زرتِ كاليفورنيا ذات مرَّة. هناك فرق، وفق ما ستعرفين توًّا، إذ تنمو الغابات الحمراء قرب الشاطئ (كما هو واضح)، فيما تكون الـ«سكويَّة» في الجبال. ويمكنك قيادة سيارة مباشرة عبر جذع شجرة «سكويَّة»، صحيح؟ ذلك أحد الأشياء التي يفعلها الناس. أكثر من ذلك، أشجار الـ«سكويَّة» أقدم عمرًا.

ظننت أنك تهتمين لمعرفة الفارق. اعتدت الذهاب للتخييم في جبال «سيرا نيفادا» مع والدي، وكنا نأكل الحساء المُعلَّب، وننام في خيمة صغيرة معدَّة لرجلين، امتلكها والدي منذ كان في الجيش. كان ذلك رائعًا. تبدو تلك الأشجار كأنها باقية أبدًا، إنها كبيرة جدًا. كنا نبقى أسابيع عدَّة، لا نغسل شعرنا، ونشرب عصير برتقال من نوع «تانغ». تبدو الغابات كأنها من زمن الديناصورات، أو ما يشبه ذلك. بالطبع، تبدو الأشياء مبهرة أكثر عندما يكون المرء طفلًا صغيرًا. ذلك أحد أسباب عدم رغبتي فعليًا في العودة إليها. أقصد، مَنْ يرغب في تخريب أحد أفضل الأشياء التي تحب التفكير بها؟ من يترك ذلك عمدًا؟

أشكر الله على ردك على البطاقة، لكني الآن فعلًا لا أملك غرفةً.

وداعًا ثانية

السيد «غ».

18

انقضى الصيف بسرعة عقب مغادرة آل «غاردنر». ليس بسرعة، بل على دفعات. كان صيفًا من الأشد حرارة في الآونة الأخيرة. بلغت شدة الحرارة في بعض ليالي يوليو إلى حد أني كنت أغمس الـ«تي شيرت» في مياه البحيرة، قبل الذهاب إلى النوم. كنت أعصره في الغابة وأرتديه وقطرات الماء تسيل منه في المنزل المظلم وعلى الدرج. في الصباحات، تستدرج الشمس بخارًا من البحيرة، وكان وقت ما بعد الظهيرة فائق الرطوبة، فيتعذر فعل أي شيء على الإطلاق. أتذكَّر انتظار الساعات الأسوأ في الظل المتأرجح لأشجار الصنوبر، أُبعِد الذباب بغصن من شجر «التنوب»، أتقصى القمل على الكلاب الأربعة المنهكة تمامًا المنهارة التي تتمدد حولي في الغبار. أحرك أصابعي في الفرو الكثّ لـ«آيب» وهو نصف كلب أسكيمو، وأستشعر كل واحد من ضلوعه التي تنتفض بتأثير لهاثه. أمكنني استشعار كيف تنفصل العظام ثم تعاود الانقباض، متيحة المجال لمزيد من الأوكسجين. أمكنني الشعور بابتعاده عني بصبر، تحت وطأة الثقل غير المعتاد ليدي.

أتذكر أني ذات مساء رطب قفزت إلى ظهر الدراجة ذات العجلات الثلاث التي يملكها والدي، لأصل إلى مركز شرطة في «وايت وود»، حيث أعطوني «كوكا كولا» سُكِبَت سريعًا في كوب مصنوع من مادة «ستايروفوم»، فاندلقَت على الطاولة. حدث ذلك بعد بضعة أيام من ظهور ضابط عند نهاية ممر السُمَّاق، تحدث إلى والدي من فوق غطاء محرك سيارته ذات اللونين الأبيض والأسود.

في مركز الشرطة ، أعطوني حزمة مناديل ورق بنيَّة كي أمسح الـ«كولا» عن الطاولة. عرضوا إعطائي علبة أخرى، لكني هززت رأسي، وشفطت الرغوة من

الأعلى. أدار أحدهم مروحة فنفثت هواء ساخنًا في وجهي، وفيما جففت أنفي وعينيّ، أتذكر أنني سألت نفسي إذا كان ذلك هو المكان الذي أتت إليه ليلي. إذا كان ذلك المكان الذي جلست فيه الربيع الفائت، وتناولت «كولا»، وسردت قصتها مع السيد غريرسون.

لن أعرف ذلك على وجه اليقين أبدًا.

في ذلك الصيف، أمضيت ساعات في تلك الغرفة الصغيرة، جالسة على كرسي بلاستيكي أخضر قابل للطي، مجيبة عن أسئلة من مختلف الأشخاص الذين يرتدون بزّات شخصية ورسمية. لم أعد أتذكر مَن سأل ماذا، أو متى، أو بأي ترتيب. أعرف أني شربت الكثير من الـ«كولا». عضضت على كثير من الحواف الخارجية لكؤوس الـ«ستايروفوم» الصغيرة المعدَّة أصلًا لتناول القهوة فيها، كأنها قطع ثلج مُلتَفَّة، وفي النهاية عرفت كيف أطلب الكرسي الوحيد المبطن والقابل للطي، الذي احتفظوا به خلف مكتب الاستقبال. عند نهاية يوليو، جرى تدريبي مِنْ قِبَل سيدة ذات وجه متجهم - هل كانت مساعدة مدعي عام الولاية؟ - على أن أشبك رجلي من الكاحلين، وأطوي يدي، وكذلك، وفق ما أذكر، أن أقول «سيدتي» للقاضية، و«سيدي» لمحامي الدفاع. قالت لي:

- لا تدعيه يخيفك.
- لا تقضمي أظافرك هكذا، لا تنظري إلى الأسفل، لا تتركي ذلك يؤثر فيك. فكري في نفسك باعتبارك شيئًا يطفو أو ما يشبه ذلك؟ كسمكة؟ تحبين الصيد، ألا تفعلين؟ لكن، ليس كسمكة ميتة، لا أقصد أن تطْفي مثلها. أقصد أن تسبحي؟ في الماء؟ أبقي تلك الصورة في عقلك، وتذكري أنك لست الشخص الذي تجري محاكمته.

لم أخف، على أية حال. لم أحتج أن أفكر بنفسي كسمكة «وول آي» تطفو مع التيار في مكان ما، منتظرة من يتصيَّدني. كنت أتوق لذلك.

* * *

جاء أغسطس. صارت الأيام أكثر ضبابيَّة، وبرائحة الرماد. اشتدَّت حرائق الغابات على بعد بضع بحيرات إلى الشمال منا، وذاق الهواء طعمها، على رغم أن الأسوأ بين الحرائق يبعد عنا ما يزيد على خمسين ميلًا. قال الناس:

- بالكاد نجونا.

آنذاك، عند نهاية الصيف، غدت كل الأشجار المتساقطة الأوراق - كل «البتولا» «الحور الرجراج» - مجعدة وشقراء في الجو القائظ. تدلَّت كل زهور «إبرة الراعي» الزهريَّة في أُصص نوافذ محكمة مقاطعة «وايتوود كاونتي»، وغدت بنيَّة خطوط العشب في ممرها الأمامي. بنيَّة، عدا مربعًا من الأرض امتد أمام درجاتها الرخامية، احتفظ بلون زمردي كأنه سجادة صغيرة ثمينة. على مدار أسابيع، كانت الحرارة جائرة، لكن الآن ومع اقتراب الصيف من نهايته، الآن وقد لاح سبتمبر في الأفق، وشرعت طلائع الإوز في الطيران؛ تحدث الجميع عن مدى روعة الفصل، ومدى الحظ الذي امتلكناه خلاله، ونعمة أن نعيش في الشمال، في الغابات التي كانت بلد الإله بالذات.

أثناء صعودي مع أمي الدرجات الرخامية المفضية إلى محكمة الولاية، سمعت من يقول:

- يا له من يوم مميَّز.

جاءت الإجابة:

- يا لها من عشر درجات مثالية.

على رغم أنها سجَّلت تسعين درجة فعلًا.

في الداخل، توجَّب عليَّ الإصغاء إلى الحوار عينه عن الطقس، المرَّة تلو المرَّة. راقبت مساعِدَة مدعي عام الولاية، تمرر إصبعها سريعًا في كوب ماء، وترطِّب شفتيها أثناء حديثها إلى رجل يحاول جاهدًا طي كمَّيه إلى الأعلى، إنشًا إنشًا. راقبتهم وهم يرمقونني بعيونهم، وأنا مرتدية لباسًا من مخزن الثياب المستعملة؛ يقيمونني وفي الوقت نفسه يتظاهرون بأنهم لا يفعلون ذلك. عندما حدّقت بهم، ضيَّقوا نظراتهم لتصبح ابتسامات، نظروا في ساعاتهم، وشبكوا

أرجلهم. جلست أمي بقربي تمامًا على مقعد طويل لا ظهر له، وكانت تتعرق وتستعين بيدها كمروحة. قرر والدي ألا يأتي. قال إنه خشي من تغيير في اتجاه الهواء يجعل النيران تقترب أكثر. ورغم أني أملت بأكثر من ذلك، فإن ما أعرفه عنه تكفل بألا أطرح أسئلة أو أطلب منه إعادة النظر بذلك. فتح أحدهم نافذة في آخر قاعة المحكمة، فتدفق نسيم إلى الداخل، لكنه لم يكن كافيًا. وفي لحظة معينة، وَضَعَت أمي يدها الرطبة على ذراعي. قالت:

- يا إلهي، يا إلهي!

فتتبعت مسار نظرتها. دخل ليو وبترا، الواحد تلو الآخر. نما شعر بترا، ورأيته عندما عبرا قربي. لم يعد ملتفًّا حول أذنيها، بل تدلى، ملتصقًا ببعضه بفضل «الجيل»، على كتفي سترتها. ارتدت سترة صوف بلون أزرق طفولي، وحتى قبل أن تصعد إلى منصة الشهادة، تجمعت أهلَّةٌ بلون بحري أزرق من العرق تحت إبطيها.

توقَّعت منها أن تنظر إليّ، وتعطيني إشارة. تلويحة يد عبر قاعة المحكمة المكتظة، تحية أو إيماءة رأس. أو، إن لم تستطع تدبُّر ذلك، ظننت أن بمقدوري تفهم ذلك. اختلست نظرة من مكاني للبحث عن أي مؤشر على أنها رأتني. لكن، في كل مرَّة نظرت باتجاهها، كانت عيناها متجهتين صوب مكان آخر. تهمس شيئًا ما في أذن ليو أو تتفحص سوارًا على رسغها. أخذت رشفة من ماء من قنينة على طاولة في المكان الذي جلست فيه. تهزهزت رُكبتها تحت تنورتها الحريرية السوداء، لكن وجهها كان هادئًا كما رأيته دومًا.

على المنصة، أبقت عينيها منخفضتين معظم الوقت، ويديها مشبوكتين في حضنها. وعندما سألها محاميها عن طفولتها أجابت بفقرات طويلة. ثم عاد ظهرها لينتصب. أجابت عن أسئلة وجهها إليها مدعي الولاية، بتلك الدقة - وتلك الدماثة - التي ربما ناقشت فيها الطقس أيضًا، ولكن مع لمسة من الندم فاقت ما لدى كل من في الغرفة، ربما بقدر من التسامح. كان ذلك هو ما أراد مدعي الولاية من هيئة المحلفين أن تسمعه وتزدريه، وفق ما فهمته من

تحضيري قبل المحاكمة؛ أي إحساسها بالانشراح وكونها امرأة شابة، وزوجةً لأستاذ جامعي. أوحى كلام مدعي الولاية أن تلك الأشياء مجتمعة جعلت من بترا أسوأ مزيج من العجرفة والوضاعة. وعندما طوت منديلًا كي تنظف أنفها به، قال مدعي الولاية لها:

- تكلمي!

ردَّت، ربما بدافع الخوف، أو الاحتقار:

- لم أقل شيئًا.

ومضى الأمر على ذلك النحو. يطلب مدعي الولاية منها أن توضح أو تتكلم، وتكرّر بترا نفسها بصوت واهنٍ لاهث. لم تنطق مرَّةً اسمي أو اسم بول. قالت:

- جليسة الطفل.

قالت:

- ابني الذي أحبه.

وفيما كانت تغمغم بإجاباتها الدمثة، فكرت أنني أستطيع تخيُّل أستاذة المدرسة التي كانت بترا لتكونها، المُصحح بداخلها يدقق في كل كلمة بقلمها الأحمر الأنيق. أمكنني سماع القواعد في جُمَلِها. أمكنني سماع تصحيحاتها الصغيرة كلها. **ابني هو الذي أحبه كثيرًا جدًّا، أخبرني أنه يشعر بتحسن. ~~كنت~~ كنا ~~مستريحين~~ مسرورين بشكل فائق. نحن ~~لم نستطع~~ لم نكن نستطيع أن نحصل على سعادة أكبر.** استقام جذعها، كلما تكلَّمَت، بطريقة مبالغ فيها، وبدت رقبتها أكثر طولًا. وخلال فترة قصيرة من الزمن، كان النسيج الأزرق على ذراعيها قد صار أسود تقريبًا.

وضع مدعي الولاية يده على صدره فصعدت ربطة عنقه إلى تحت ذقنه.

- أنا أحاول أن أفهم يا سيدة «غاردنر»، أنت تقولين إنك لم تري أن شيئًا كان خطأ؟ أو إنك رأيت، وتخاذلت عن طلب المعالجة؟ إما يكون هذا أو ذاك. أرجوك، ساعدينا على الفهم.

راقبت بترا تبلع ريقها. قالت:

- كان... قد جرت معالجته.
- نعم، حسنًا، شرح زوجك الأمر بالأمس. نحن جميعًا مؤمنون. لسنا هنا لنحاكم تديُّن أي شخص. لكن، أحتاج أن توضحي لنا أمرًا. في الصباح الذي كُنتِ فيه في «دولوث»، بمعنى صباح العشرين من يونيو، ألم تخبري زوجك أنك تصطحبين بول إلى السوق من أجل - ماذا كان ذلك؟ - جلب مؤونة النزهة؟ في الوقت الذي أجريت فيه فعليًّا مكالمة هاتفية مع اختصاصي الأطفال الذي اتصلت به قبل شهور، الدكتور....

نظرتْ بسرعة إلى ليو.

- لم يكن هناك أحد.
- لكنك فكرت بأن شيئًا ما ليس على ما يرام؟ أدركت عند تلك النقطة أن شيئًا ما لم يكن على ما يرام.

بلعت ريقها، فتحركت عضلات رقبتها كلها.

- لم يكن هناك أبدًا... أي تشخيص.
- لِمَ؟
- يذهب الناس إلى الأطباء دائمًا.

للمرَّة الأولى، أحسست بتضرع في صوتها. أمكنني سماع مدى رغبتها في إقناعه بذلك، أو على الأقل أن يكون أكثر لطفًا معها. وضعت يديها البيضاوين على الحاجز أمامها. «يذهب الناس دائمًا إلى الأطباء، ولكنهم لا يتحسنون دائمًا.»

- اعذريني يا سيدة «غاردنر»، أنت تغيّرين الموضوع. أرجوك، لا تدعيني أذكرك مرَّة أخرى بأن تجيبي عن السؤال الذي يُطرح عليك. لقد سمعنا قبلًا أن الإنسولين والسوائل كان من شأنها أن تنقذه في الساعتين اللتين سبقتا معاناته وتوقف قلبه. ساعتان. العلاج سهل وضمن الحد الأدنى...

قاطعته بترا:

- أنا أمه...

رد عليها مدعي الولاية مقاطِعًا:

- أنت كنت أمه.

اندفع شيءٌ ما إلى وجهها، ثم خرج ثانية كاندفاع الماء. تقلَّصت عضلات وجهها كلها، ثم تراخت. بعد ذلك، كانت تنتظر بصبر كل سؤال تالٍ، بعينين مسطحتين كشاشتين زرقاوين صغيرتين. كررت كل الأشياء التي قالتها سابقًا: كان بخير. كان يرتاح في سريره. وفي النهاية، عندما صرفها مدعي الولاية، بإحباط، سارت عبر قاعة المحكمة بعينين كشاشتي تلفزيون، حاملة قنينة مقلوبة من الماء تمسكها بكلتا يديها كأنها تخنقها.

في ذلك الصباح بطوله، ظللت أنتظر أن تنظر إليَّ بترا كي أتمكن بطريقة ما أن أطمئنها. كل ما احتجته هو إشارة صغيرة منها، وكنت سألقي اللوم كله على ليو عندما يجيء دوري في الاستجواب. جلس هناك وظهره لي، مع الكتاب المقدس في حضنه وقنينة مملوءة بالماء. يهز رأسه باستمرار صوب بترا، بانحناءات خفيفة.

تململ أثناء جلوسه في مقعده، أعاد تشبيك رجليه كي تلامس ركبتاه ركبتيها. ربى لحية منذ رأيته آخر مرَّة، شعرها مشذَّب إلى حد أنها تشبه نصف قناع رمادي. راقبته، لكنه لم يدفع خده بلسانه من الداخل كالعادة. لم يبدُ مضطربًا. لم يبد قلقًا على الإطلاق.

في ذلك اليوم الأخير، قال لي بعد أن وضع بول في السيارة:

- كل شيء سيكون على ما يرام.

كُنت أقف بغباء عند مدخل منزلهم، بترا منحنية في المقعد الخلفي، وليو يدور حول مقدمة السيارة عندما رآني أتمايل في الطريق الجانبي للمنزل. توقَّف، حينها. عاد عبر الطريق الجانبي، وفيما امتدت يداه في الهواء متَّجِهة إليّ، قال لي:

- كل شيء سيكونِ على ما يرام.

ثم أخذ وقتًا قبل أن يصل ويحتضنني - **أنا** - قائلًا:

- لا يمكنك إلَّا أن تكوني إنسانة خيرة. افهمي ذلك، ليندا. يجب ألا يكون لديك إحساس سيئ تجاه أي شيء من هذا.

رغم ذلك، كنت سأتهمه بالتنمر، بدفعنا لتنفيذ ما أراده، لكن بترا لم تعطني إشارة. في الاستراحة التي سبقت صعودي إلى المنصة، خرجتُ ودخنت ثلاث سجائر بأسرع ما يمكنني. جلست على حاجز حجري في مرآب السيارات، وعندما أنهيت السجائر وضعت ذراعَيَّ على ركبتيّ، ورأسي بين ذراعَيّ. أغمضت عينيّ. أحسست كأن قلبي قطار أسود يقرقع صاعدًا عبر جسدي. تركت لحرارة الشمس أن تصعد من الإسمنت لتشوي جلدي، وعندما فتحت عينيّ، عمِل البياض المبهر للنهار على جعلي فارغة. على مسافة ما، صدر أزيز منشارٍ آلي. وسمعت أغصانًا تتشقق.

بعدها - في هبة هواء ساخن - خرجت بترا. دفعت باب المحكمة، وتوقَّفَت برهة، مستنشقة أنفاسًا عميقة. طار شعرها مع الريح، فبدت أكثر شبهًا بنفسها. تشعث شعرها قليلًا. أزالت غطاء قنينتها ورشفت الماء، شفطته بقوة إلى حد أن الزجاجة انبعجت إلى الداخل، ثم انتفخت ثانية عندما رفعت بترا فمها عنها. أظن أنها لم ترني منثنية على مقعد حجري بين السيارات، لأنها عندما رفعت القنينة إلى فمها ثانية وأمالت رأسها إلى الخلف، مشت وصارت أقرب إليَّ ببضع خطوات. ثم اقتربت أكثر إلى حد أنني شممت رائحة شامبو جوز الهند الذي تستعمله. اقتربت أكثر كثيرًا، إلى حد أنه كان باستطاعتي تقريبًا مدُّ يدي ولمس رجلها المرتدية جوربًا من النايلون.

كان بإمكاني أن أتركها هكذا. شعرت كأني تلقيت الإشارة التي كنت أرتجيها. لم يكن في مدى بصري سوى رجلها ونقطة كبيرة من الماء تسيل من فمها، والأرض الإسمنتية الرمادية.

سبع وثلاثون، ست وعشرون، خمس عشرة، فكَّرت وأنا أراقب سقوط نقطة أخرى.

ست وعشرون، خمس عشرة، أربع.

وقفت في الثانية التي سبقت استدارتها إلى الخلف. سأحكي كيف كان وجهها آنذاك. تشكَّلَت ابتسامة هجينة على شفتيها، ود صداقة عادية ممزوج بتردُّد لا يُنكر.

- ليس لدي ما أقوله لك. من فضلك.

بدت لي الكلمات كأنها سطر يلقيه محامٍ. استدارت مبتعدة.

- بترا.

- ماذا؟

استدارت إلى الخلف، وغدا سؤالها جديًّا الآن.

- ماذا؟

- أنا...

اهتزت عضلة في رقبتها:

- اسمعي...

- «أكرهه»، قلت من دون تفكير، «ليو».

قصدت أن أقول إنني أكرهه لأجلها.

بدت مرتبكة:

- ليو؟

حركت هبة نسيم أخرى شعرها فحطَّ فوق عينيها، فأزاحته. وأثناء ذلك، وضعت كفها فوق جبهتها، فرأيت النمش يختفي في حمرة جلدها. هناك شيء جديد في عينيها. سألت ثانية: «ليو؟» كان صوتها يقطرُ مبتلًّا حتى العظم.

تنهدت، وغدوت الآن أكثر تردُّدًا:

- كان بول مجرد... لم تكن غلطتك.

تقدمت خطوة إلى الأمام: «ماذا تريدين أن تقولي لي؟»

وضعت يدي على ذراعها كي أهدّئها، فارتدَّت إلى الخلف كأنها ضُرِبَت. ارتعشتُ بطريقة خاصة، وعندها رأيت أني لم أكن سوى جزء من الشر الذي أخذه، الجزء الذي وصل، ثم سيطر على الموقف، بالضبط في وقت اختفائه. ذلك كل ما كنته بالنسبة لها الآن. انقلبت عليّ:

- «**أنت** هو الشخص الذي فكَّر به بتلك الطريقة. **أنت** هو الشخص الذي نظر إليه ورأى...»، ثم أجهشت بالبكاء: «فيه طفلًا صغيرًا مريضًا!»
- كلا...
- أعرف أنك فعلت. وأن ذلك كان كل ما أمكنك رؤيته. أليسَ كذلك؟ أليس كذلك؟

اعترفْت؛ بل كانت تلك المرَّة الوحيدة التي قلت فيها:

- كان يجب أن أذهب في وقت أبكر مما فعلت. كان يتوجب عليَّ الحصول على مساعدة. كنا بحاجة إلى ذلك.
- «كيف كان له أن يتحسَّن إذا كنت تفكرين على ذلك النحو؟»، قالت بمرارة، «كيف كان له ذلك؟ لقد فكَّرتِ في هذا. فكرت فيه المرَّة تلو المرَّة. أخبرني ليو أنه يجب أن أسيطر على أفكاري، لكن **عقلك** كان...»

قالت ذلك كأنها بالكاد تستطيع التلفُّظ بالكلمات. سَحَبَت نفسًا متقطعًا:

- **عقلك** أنت. كان عقلك صغيرًا جدًّا... ليرى أبعد من نفسه. عقلك أنت...أنت رأيته كمريض.

جعلوني أسرِّح شعري بطريقة مختلفة في ذلك اليوم، فكان ممشطًا ومفروقًا إلى جهة واحدة، وممسوكًا بمشبك واحد. دأب على السقوط على وجهي، لذا اضطررت إلى إمساكه بقبضة يد ثنيتها على صدري. أصرُّوا أن أرتدي لباسًا طويلًا فضفاضًا، مزيَّنًا بنسق زهور خضراء كالسلطة. أمكنني أن أُحِسَّ بفخذيَّ ينزلقان على بعضهما تحت النسيج. أمكنني الإحساس بسروالي الداخلي القطني ينزلق عن مؤخرتي. رطبًا. شممت رائحة مزيج من نفتالين وسجائر ومنظف غسيل الثياب.

أحسست أني مقرفة وتافهة. سمَّاني محامي الدفاع **المراهقة المَحَليَّة**، وكذلك فعلت مجلة «**نورث ستار غازيت**».

جليسة الطفل؛ ذلك ما قالته بترا على المنصة.

لذا، عندما قالتْ ما قالَتْهُ في المرآب، انثنيت على نفسي ورفضت قول أي شيء. فهي لم تحتج إلى رد ولم ترغب فيه. أقفلَتْ غطاء قنينة الماء، واستدارت خارجة. بعد مغادرتها، بقيت في المرآب إلى أن جاء حاجب المحكمة أو شخص آخر (أو ربما أمي؟) ليأخذني. وقفت في الشمس، فشعرت بحكَّة في جلدي، وأحسست بوجهي قاسيًا وسميكًا كأنه تمدَّد فوق عينيّ وصَعَّب الرؤية عليّ. وقفت هناك مصغية إلى صوت المنشار الآلي وهو يطيح بشجرة قديمة: هناك الأجزاء المرنة المورقة أولًا، ثم يجيء صوت الأغصان التي تصطفق، وأخيرًا لطمة سقوط الجذع.

لا أحد يصدّقك عندما تتحدثين عن السعادة، أخبرتني بترا ذات مرَّة.

طيلة شهور، راقبتها تنفخ على حساء بول وتقبّل حاجبيه المقوسين كنصف بدر كامل. رأيتها تهرع إلى الخارج تحت المطر قبل الغداء، كي تجمع كتبًا تركها قرب البحيرة، وتعود مبتهجة والماء يقطر منها. تغني له. تغني لنا. راقبتها تتحرك بسهولة، مرتدية جواربها فقط، ذارعةً أرض المطبخ، من المنضدة إلى منتصفه، تملأ الصحون، تحرك القدور، تزيح بيدها عن وجهها خصلًا مشعثة[1] من شعرها.

---

(1) التعبير المستخدم يشير أيضًا إلى «شَعر شيطاني» في اللغة الأميركية المحكية. (المترجم)

طوال ذلك الوقت، كان بول بخير. كان بخير: بل حتى أفضل من ذلك. ألم تفتفت بترا لوح مكسرات من نوع «غرانيولا» كي تبدو كرات صغيرة، ليستطيع أن يأكلها كما تفعل القطط؟ ألم تسخّن له ذات مرَّة عصير التفاح في فرن «ميكروويف»، لأنه قال إنه بارد جدًّا وربما يؤذي أسنانه؟ كان مدللًا كليًّا وبوضوح: تلك هي الحقيقة. كان يمكنني قول ذلك كله، عندما أُعطيت فرصتي. رغبت في ذلك - بل خطَّطت له - لكني لم أفعل.

سأحكي ما قلته على المنصة عندما سُئلْت عن بترا وما فعلته لابنها:
لا شيء.
لم تفعل شيئًا.

19

أتذكر وجود لوحة جدارية باهتة في رواق المحكمة، تظهِر هنديًّا أحمر مع شخص أبيض في قارب «كانوي»، يرتدي كلاهما فروًا بلون الشوكولاتة، ويشيران معًا إلى دب عند شاطئ الغابات. كان فيها أشجار خضراء وغيوم بيضاء ككتل الزغب؛ كل شيء حلو ومسالم. تعرفون، الجميع في انسجام. لكن، أثناء خروجي مع أمي من المحكمة في ذلك اليوم، أثناء سيرنا إلى الخارج، لاحظت أن المنظور في تلك الجدارية مختل قليلًا. كانت يد الرجل الأبيض تشير إلى مؤخرة الدب، وللهندي يد تشير إليه، لكن ليس له يد أخرى؛ وبدا الدب مرتفعًا قليلًا عن الأرض كأنما من تلقاء ذاته. لم تكن قوائمه على الأرض تمامًا، ولم يبدُ مندهشًا لكونه يطفو في الهواء صوب الأشجار على ذلك النحو، بل بدا سئمًا ومستسلمًا لسأمه، ربما، ومُرعِبًا إلى حدّ ما.

لم أعرف إذا كان يتوجب عليَّ جذب الباب أو دفعه، بل لم أعثر على المقبض في البداية. سألتني أمي أثناء خروجي:

- هل ستأتين؟

بطريقة ما، وجدت طريقي لنزول السلم الرخامي. بطريقة ما، عدت إلى الشاحنة التي كانت حارة، وعُدنا إلى الطريق. كانت شاحنة ركاب صغيرة مستأجَرَة من أحد معارف أمي في الكنيسة، وهو شخص سمع بالمحاكمة وأراد إظهار الفارق بين المسيحيين الحقيقيين والزائفين.

على لوحة القيادة، سلسلة أوراق لاصقة عليها اسم السيد «يوك»؛ وخرج من معطّر الهواء، المثبت وراء مرآة الرؤية الخلفية، رائحة تذكر بمكتب طبيب أسنان. لم تستطع أمي تحريك مقبض التحكُّم بزجاج النافذة إلا بإمالة جسمها كله، وحتى عندها لم يتزحزح إلا بمقدار شق صغير.

ركَّزت أمي كليًّا على مناقلة مبدّل السرعة أثناء قيادتها في الشوارع المزدحمة قرب وسط البلد. جددت رخصة قيادتها حديثًا، وكانت متنبّهة للتوقف عند الإشارات كلها، وصمتت مع تركيز تام عند انتقالها إلى الطريق السريع. ولكن حينما وصلت إلى الطريق رقم 10 المنبسط والسهل، وتلاشت حركة المواصلات وأطلت الغابات، راحت تخفف عناء الطريق بالانتقال من موضوع إلى آخر. حرارة الجو. تشدُّق القاضي. التواليت الأصفر في حمام السيدات. سترة السيدة «غاردنر». لم تعرف لِمَ يرتدي أي شخص سترة في أغسطس. أزعجها ذلك، لسبب ما. دأبت على التحديق بي أثناء حديثها، وردّ خصلات شعرها التي تطايرت عبر النافذة.

- ما أقصده هو، من ذاك الذي يستيقظ ويفكر بأنه إذا كانت الحرارة عند تسعين درجة فهرنهايت، هل يتوجب عليّ ارتداء **سترتي القطنية**؟

نظرت اليّ عبر «كابين» القيادة، لأنني كنت نوعًا ما منزاحة إلى آخرها، وملتصقة بالباب.

- الأرض لك[1] يا «مادلين»!

الأرض لي. الأرض لي، ذلك ما فكرت به.

كنت أُراقب الظلال على الطريق، والشمس التي مدت ضوءها على الطريق الأسود أمامنا، وكيف أن حركة تلك الأشياء تظهِر الطريق وكأنها تتموج أثناء القيادة عليها. كنت أتساءل إن كان الزفت عند حافة الطريق السريع يذوب أو أنه يبدو كذلك؛ إذا كانت القوارض الصغيرة والحشرات المتجمعة على امتداد الطريق عالقة في ذلك الاضطراب، وإذا كان ذلك مكانًا خطرًا لتكون فيه. كنت أحذّرها ذهنيًّا طوال الطريق، أُحذّر الضفادع والجراد؛ وحتى عندما أفعل ذلك، حتى عندما كنت أبتكر في عقلي حقلًا للقوة على جانبي الطريق السريع؛ أمكنني

(1) «الأرض لك»، تعبير شائع يستخدم لوصف شرود شخص ما والطلب إليه بأن يعاود تركيزه؛ بطريقة مرحة وعلى سبيل التودد. (المترجم)

الإحساس بجاذبية نظرة أمي، والطريقة التي صارت الآن مؤلمة حتى جسديًّا لها، في تحمُّل صمتي.

بعد برهة، تظاهرت أنها تدق على الهواء الفاصل بيننا، قالت:

- هاااالو! هل المراهقة نائمة؟

أسندت رأسي على النافذة.

- كل ما أقوله هو أن ارتداءه ليس شيئًا عمليًّا. لم يكن عمليًّا، أليس كذلك؟

كانت متشبثة بالمقود بيديها. نظرت اليّ لوقت يتيح للشاحنة أن تنحرف قليلًا، صوب الاتجاه المعاكس.

- فقط قولي نعم. حسنًا؟

أعادت الشاحنة إلى مسارها. تباطأت أو أن المحرك لم يكن يستجيب.

- فقط قولي نعم؛ إن تلك السترة كانت شيئًا مستغربًا ارتداؤه. بإمكانك أن تقولي إنه أمر بذيء. صرت مراهقة، وأنا لا أهتم. بإمكانك قول إنه كان شيئًا بذيئًا ومستهجنًا ارتداؤه، وبعدها بإمكانك القول بأن شرحها، دفاعها أو أيًا كان أمره، لم يكن سوى كتلة كبيرة من الهراء، أيضًا.

أمكنني سماع صوت دَبَق يديها على الغطاء البلاستيكي للمقود. بعد ذلك، أضافت بشيء من القلق:

- تعرفين أنه ليس سوى كتلة من هراء. صحيح؟

عندما كنت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة، عثرت على شيء غير متوقع خلف الزريبة. كان مهدًا خشبيًّا ملفوفًا بغطاء مشمع شفاف، وفتحته أثناء بحثي عن شيء آخر. كانت عليه أشكال مرسومة باليد، تمثّل أقحوانًا أبيض، وزنابق زرقاء، أسماكًا بزعانف تسبح عبره وكلها لها هيئة شياطين مبتسمة. كان المهد ممتلئًا بحطب عفِنٍ، وروث الفئران، وخنافس صغيرة. أتذكّر أني أعدت تغطيته بالمشمع، وغطيته بكومة من حصى الإسفلت. أبعدت الكلاب خارجًا، وعدت

إلى أعمالي اليومية، لكن لاحقًا، عندما أقود قارب الـ«كانوي» في المياه الضحلة، أو أسحب أشواكًا صغيرة من قوائم «آيب» - أو أعمل على مسألة رياضيات مملة - تعاودني أحيانًا صورة ذلك المهد.

كنت لأرى حافته الكالحة وهي حديثة الطلاء مزينة بالزنابق والأسماك، وصرير أرجله المقوسة من خشب القيقب أثناء تأرجحها، وشيئًا بداخله برأس أصلع، يقرقر بالضحك.

كنت لأرى وجهًا ينحني فوقه. يستمر بالقول كما تعرفون ش ش ش.

المسألة هي أني لا أملك ذكريات إطلاقًا عن أمي قبل تفكك التشاركية. في ذهني، تحضر دومًا «تامِكا» وجمعٌ متغيّر باستمرار من المراهقين والبالغين - سيقان في الجينز، سيقان في التنانير - وأعترف أنني رغبت في وضعها في بؤرة الصور، أن أراها تهدهد طفلة صغيرة أتخيل أنها أنا. لكن أمي لم تتحدث كثيرًا عني عندما كنت طفلة. لم يكن لديها بالطبع صور، وقالت ذات مرَّة بتبرم إن أول كلمة لفظتها كانت «واهه». حتى أنها ما كانت لتخبرني ما كان خيارها عندما صوَّت أفراد التشاركية على اسمي. أصرت على القول:

- كان اسم «مادلين» اختيار أبيك بالكامل.

لكنني عرفت من قصص متفرقة، أن كل شخص كان يكتب الاسم الذي يختاره، ثم توضع الأوراق في قبعة. لفترة ما، فكَّرت في ذلك طويلًا، الأسماء التي ربما أعجبتها، على غرار «وينتر» أو «جونيبَر» أو «آرك». فكَّرت في أيام الطفولة تلك، وربما الأسماء («كانيداي» اسم فكرت به بتوق، عندما كنت أعمل على مشروعي عن الذئاب في الصف الثامن)، إلى أن خطرت في بالي عند نقطة ما، فكرة أن أمي لن تخبرني عن ذلك، ليس لأنها اختارت شيئًا آخر، بل لأنها لم تقترح شيئًا على الإطلاق. وحينها، أخذت أتساءل مَنْ، إضافة إلى أبي، رغِب في اسم «مادلين»؟ من غير أبي صوَّت لصالحه؟

لست أقول إني رغبت عن وعي، لو أنه كان هناك شخص آخر. ولست أقول إن ذلك التفكير حدث دفعة واحدة، لأنه لم يكن كذلك. جاء الأمر

تدريجيًّا، وتقريبًا بطريقة غير ملحوظة، بطريقة بدا أنها تتحرك في حقل منفصل عن حوادث حياتي كلها.

لا أستطيع ربط ذلك بحدث ما، أو سنة من سنوات المدرسة، أو شيء محدد فعلته أمي أو لم تفعله، لكن ما إن تحضر تلك الفكرة فإنها لا تذهب. مثلًا، كانت تقول:

- المديرة التنفيذية تجري حساباتها!

فتصبح فروة رأسي يابسة كقبعة فوق أذني. أو تدلّي أمام أنفي زينة مغرية كانت تصنعها، فيما أنا منشغلة بتوصيل النقاط في رسم في دفتر الوظائف المدرسية؛ فكنت أترك قلمي الرصاص. أترك قلمي الرصاص كأنه عود ثقاب اشتعلت فيه النار. أنظر إلى الأعلى، إليها. وهي تقول لنفسها:

- صه!

إذ ترى تعبيرًا قاتمًا على وجهي، لكنه ليس استرحامًا، ليس أبدًا رغبة صريحة في معاملة أكثر لُطفًا. كانت تهمس:

- البروفسورة تعمل! صه! فليصمت الجميع.

أو، عندما لوحت في الهواء بيننا باليد التي لم تكن تستخدمها في قيادة الشاحنة. لوحت في الهواء وأبقت عينها على الطريق السريع.

- الأرض لك يا «ما-د-لين». هل سمعت ما قلته؟

قبل أن أعي ما كنت أفعله في الشاحنة ذلك النهار، قبل أن أتمكن من منع نفسي، صاحت:

- هل كان ما فعلته حسنًا؟

- تقصدين...؟

انتظرت، أحسست بأن محرك الشاحنة كان يهزنا على الطريق. لا يستجيب، ثم يهزّنا ثانية. فكَّرت في الأمر برهةً قبل أن تقول:

- ما حدث ربما كان سيحدث مهما فعلت. إذا كان ذلك ما قصدته.
أدرت رأسي إلى حافة الباب، رأيت غيومًا تنتفخ فوق غيوم ربما كانت دخانًا. حاولت مجددًا:
- لست القاضية في ذلك الأمر.

أتذكَّر أنني فكرت بالتالي: **أنت تقولين ذلك لأني لست طفلتك**، وسحبت جبهتي المزيتة على زجاج النافذة، فبدا كأن حشرة عملاقة مجهولة ضربت ذلك الزجاج.

من الصعب عليَّ الآن أن أعرف عدد الأشياء التي فعلتها أو رغبت في فعلها، خلال تلك السنوات، تحت تأثير ذلك النوع من التفكير.

ما الفارق بين ما تريد تصديقه وما تفعله؟ ذلك هو السؤال الذي كان يجب أن أطرحه على بترا، ذلك هو السؤال الذي أردت إجابة عنه؛ لكنه لم يخطر لي - أو ليس بتلك الطريقة - إلا بعد أن تحدثنا ذلك اليوم في مرآب السيارات في المحكمة، إلا بعد أن ركبت مع أمي في الشاحنة المهتزة الساخنة، وقد رَكَنَتها بين حافلتي ركاب صغيرتين خلف تمثال للسيدة العذراء. وفيما كتبت أمي ورقة شكر ثم حَشَرَتها في حافة زجاج السيارة، نزلت وقرفصت في المرآب المملوءة أرضه بالحصى، فيما كان ثوبي ذو الزركشة الشبيهة بالسلطة، يتجمع بعيدًا عن جسدي؛ وشرعت في تفحص الحصى الصغيرة. ثم جاءت أمي لتقول إن كل شيء على ما يرام، وانطلقنا عائدتين. أثناء سيرنا على حافة الطريق السريع، فتحت يدي تاركة الحصى تسقط. لم تعد أمي تحاول الحديث معي. أتاحت لي أن أتلكأ وأتأخر خلفها، مسقطة الحجارة أثناء سيري. استدارت مرَّة لتنظر إليَّ عند مفرق البحيرة، لكن عندما وصلت ممر السُمَّاق، وصارت مداخن كوخنا منظورة مجددًا، كانت قد اختفت عن النظر. لم تَعُدْ سوى حفيف أغصان السُمَّاق، وأوراق تتمايل خافقة أثناء مرورها تحتها.

ما الفارق بين ما تفكر به وما ينتهي بك الأمر إلى فعله؟ ذلك ما كان يجب أن أسأله للسيد غريرسون في رسالتي؛ السيد غريرسون الذي حتى بعد أن سَحَبَت ليلي اتهامها، نال حكمًا بسبع سنوات استنادًا إلى الصور واعترافه في قاعة المحكمة. قرأت أقواله بعد شهور من صدور الحكم عليه، وقد قضاه في «سياغوفيل» بولاية تكساس، ثم «إلكتون» بولاية أوهايو.

أُدين آل «غاردنر» بجريمة القتل، وأُخليَ سراحهم بعد أسابيع بسبب تمتعهم بحماية قانون «الإعفاء الديني»[1]. لم أتابع أمرهم بعدما انتهت المحاكمة في «وايتوود». وعقب إدلائي بشهادتي في المحكمة، عدت إلى المنزل مع أمي في الشاحنة المستعارة، وأكلت ثلاثة سندويشات زبدة الفستق الواحد تلو الآخر، وذهبت لتصيُّد سمك الكراكي. ذهبت لأصطاد، وثملت للمرَّة الأولى، ونسيت. بقي كوخهم عبر الطرف الآخر من البحيرة خاليًا لشهور، ولم أعد إليه إطلاقًا؛ ولم أتوقف عن مراقبة الملَّاك الجدد وهم ينصبون مشواة وشبكة للعب تنس الريشة، في الصيف التالي. لكنني تتبعت السيد غريرسون عبر البلد، بعد خروجه من السجن، وتابعت على الإنترنت عَلَمَه الأحمر الصغير متنقلًا من ولاية إلى أخرى؛ من فلوريدا إلى مونتانا، ذهابًا وإيابًا. راقبت عودته إلى السجن بسبب انتهاكه بنود إطلاق سراحه المشروط، ثم خروجه بعد قضائه سنة أخرى فيه، وتأسيسه متجرًا في منطقة المستنقعات. في الوقت الذي كتبت فيه رسالتي له، عندما كنت أعيش في «مينابوليس» مع «آن»، قرأت أقواله الرسميَّة بشأن ليلي مرَّات عدَّة. قال:

- فكرت في ذلك، فكرت في ذلك، فكرت في ذلك.

---

(1) في الولايات المتحدة، عبر سلسلة من المنازعات القضائية (خصوصًا منذ 1963)، تعتبر الممارسات الشخصية المخالفة للقانون والمتصلة بمعتقد ديني متأصل (مثلًا: رفض أسرة ما تطبيق إلزامية التعليم على أبنائها)، شأنًا يتمتع بحماية دستورية، وتعفى من العقوبات. (المترجم)

وبعد بضع جمل، مضى قائلًا:

- رغبت في ذلك، وعندما قالت إني فعلت، بدا الأمر لي كضربة حظ طيّب. عندما عُثِر على تلك الأشياء في شقتي، تظاهرت بأني لم أرها من قبل. لقد كذبت بشأن ذلك. لكن، عندما قالت الفتاة ليلي ما قالته، فكرت بأن كل شيء على ما يرام. حسنًا. الآن، تبدأ حياتي الفعلية.

20

من مكتبي في شركة سفن التحميل في «مينابوليس»، تمثَّل المنظر الخارجي برصيف إسمنتي متقادم لركن السيارات. طوال اليوم، أمكنني رؤية الناس يطلون برؤوسهم كالدمى من نوافذ سياراتهم، يثقّبون بطاقاتهم، وينتظرون الذراع المعدني الأصفر ليرتفع. إذا أبعدت كرسيّي عن المكتب، واستدرت 180 درجة، يصبح بإمكاني رؤية شطرٍ من نهر المسيسيبي، بين رصيف الإسمنت وضفة الصفصاف.

طيور البلشون، دخان بني، وأشياء طافية بيضاء.

بعد مرور سنة كاملة على وجودي هناك، أُعطيت مكتبًا صغيرًا خاصًّا بي، وكومبيوترًا، لذا أمكنني أن أفعل ما يحلو لي معظم الوقت، من دون أن يزعجني أحد. أمكنني مراقبة البلشون يلتقط الأسماك من النهر، وعبَّارات السيَّاح تتجه صوب مدينة «سان بول». أو، إذا أردت، بإمكاني مطالعة الأشياء على الإنترنت أثناء إدخالي المعلومات في الجداول الإلكترونيّة؛ حالات من الوَذَمَة الدماغية الناجمة عن الصعود إلى أعالي جبل «إيفرست»، أو المبيعات الجارية في موقع «تريجر تشيست». وعلى الرغم من كوني موظفة مؤقتة، إلا أنني أمضيت ما يكفي من الزمن في شركة «ماني كو بارج» كي أحصل على رفّ أضع عليه غدائي، وعَلَّاقة لسترتي في الغرفة المخصصة للاستراحة. أمضيت هناك وقتًا يكفي لجعلي الشخص المرجع في التعامل مع الزوجات المضطربات لنوتيّي السفن. ولدهشة الجميع، كنت بارعة في تهدئة أولئك النسوة عندما يخابرن الشركة.

كنت أقول أشياء من نوع: «لا تقلقي، سيعود زوجك إلى المنزل سريعًا»، أو أعطي وعودًا: «سينزل إلى الشاطئ في «أوكاوكا» ويتصل الليلة». كنت أقول ذلك

حتى مع علمي بأنه لن ينزل إلى الشاطئ إلا بعد يوم آخر، وعندها فالأرجح أنه سيقصد البار قبل الاتصال بأي شخص. رغم ذلك، عرفتني الزوجات باسمي، وكنَّ يطلبنني في كل مرَّة. احتفظت بسجل عن أعمار كل أطفالهن، وأسماء كلابهن، وأسماء جليسات أطفالهن.

اعتَدت على تلقي اتصالاتهن عند آخر النهار، لذا عندما دقَّ هاتفي في الرابعة بعد الظهر - في مطالع ربيع سنتي الثانية هناك - ظننت في البداية أنها مكالمة من زوجة مضطربة أخرى. بإمكاني الإحساس فورًا بالاضطراب في صوت امرأة، الطريقة التي تتلاشى فيها حروف العِلَّة عندما تحاول أن تبدو ودودة. استهلت بالقول:

- آسفة جدًّا لاتصالي بك في العمل. هل هو وقت غير مناسب لك؟

عندها كنت متأكدة أنها ليست زوجة، بل مجرد اتصال برقم خطأ. كنت موشكة على إقفال الخط بوجهها. كنت موشكة على إقفال الخط، وتسوية جواربي النايلون الطويلة، والنهوض لجلب آخر فنجان قهوة لي، عندما سمعتها تأخذ نفسًا عميقًا، وتقول ثانية:

- آسفة جدًّا لإزعاجك. (ثم) أرجوك، لا تقفلي الخط.

وقبل أن تقول إنها من «لوس ريفر»، وحتى قبل أن تفصح عن هويتها، لاحظت شيئًا بخصوص طريقتها في الحديث، الطريقة التي اعتذرت فيها كي تعبّر عن عدم الموافقة. كانت تلك من أفعال أهل «لوس ريفر». عندما لم أقل شيئًا ولم أقفل الخط أيضًا. استمرَّت المرأة في الكلام. قالت إنها عثرت على رقمي عندما اتصلت بمكان عملي القديم في «دولوث». قالت إنها تتبعت المالك القديم الذي كنت مستأجرة عنده، وإنه أخبرها عن اسم شركة الوظائف المؤقتة التي يعتقد أنني قصدتها للعمل، لكنها بذلت جهدًا مع الأخيرة قبل أن يعطوها اسم شركة سفن التحميل التي أعمل لديها. قالت إنه كان صعبًا جدًّا العثور عليَّ. مضت لتقول إنها لم تكن راغبة في التطفُّل على ذلك النحو، لكنها لم تكن واثقة من وجود طريقة أخرى لإتمام ذلك.

قالت، قبل أن تصمت:

- أتحدث بالنيابة عن أمك.. لقد توقَّفَت عن المجيء إلى الكنيسة. لم تأتِ إلى الكنيسة منذ شهور. لذا، ذهبت لزيارتها.

انتظرت.

- صار المكان... مهملًا قليلًا؟

تنحنحت، وقلت:

- الكوخ؟

- فعليًّا، اقتلعت العاصفة سقف الكوخ في السنة الماضية. أو، ذلك ما قالته.

- اقتلِعَ السقف؟

- م م م. أعتقد أنها أمضت الشتاء في الزريبة. نقلت مدفأة إلى هناك.

- الزريبة؟ لكن جدرانها ليست عازلة للحرارة ولا تصد البرد.

- حاولت جعل الجدران عازلة واستخدمَت أوراق الشجر والثياب والجرائد.

لم أستطع تخيلها تفعل ذلك، ثم استطعت.

- حسنًا.

- أطاحت بإصبع أثناء تقطيع الحطب. لا أعتقد أنها ترى جيدًا.

سألت، وأنا أحسُّ - ليس بمرض - بضرب بطيء في رأسي.

- هل قلت ثانية من أنت؟

- «ليز لوندغرِن». أنا أذهب إلى كنيسة «أور لايدي» مع والدتك.

نهضت:

- الآنسة «لوندغرِن».

أخذت أذرع المكان بقدر ما يتيح لي طول سلك التلفون، وألوك شفتي، أنظر إلى جدران المكتب الصغير وإلى الخارج عبر النافذة، حيث المياه البنيَّة لنهر الميسيسيبي تجري حاملة الطين متجهة من تلقاء ذاتها صوب الخليج.

عند تلك النقطة، انطلق شيء ما في عقلي، ثم تدفق خارجه. قلت:

- علوم الحياة.

ساد صمت عابر.

- نعم. قبل مليون سنة. نعم.

عضَّت «ليز لوندغرِن» على شيء في فمها، وأمكنني سماع الراحة تتدفق في صوتها عندما عاودت الكلام.

- اشتغلت مُدَرّسَة بديلة قبل أن أتقاعد. في الثانوية، نعم. إنها أنا. أصغي، ليندا. لست أحاول التطفُّل. لا أريد التسبُّب في مشاكل، لكني أعتقد بأنني أستطيع تدبير أمر مكالمة. أقصد، أظن أنها تريد مني أن أدبر أمر مكالمة.

الجنَّة والنار هما طريقتان في التفكير. الموت هو الاعتقاد الخطأ بأن كل الأشياء يمكن أن تزول. بالنسبة إلى «العلماء المسيحيّن»، لا يوجد سوى المرحلة التالية، التي هي بمقدار ما أعرف هي نفسها المرحلة الحاضرة، ليس سوى أنك ربما تراها بشكل مختلف. ذلك مقدار ما عرفته من قدَّاس حضرته في كنيسة إحدى ليالي الأربعاء في ذلك الربيع. ذهبت بعد وقت قصير من مكالمة الآنسة «لوندغرِن»، ذات أمسية بعد ساعة مبهجة شربت فيها كأسي «فودكا تونيك»، وكأسي بيرة مزبدتين. ذرعت رصيف المشاة خارج الأبواب الكبيرة للكنيسة لبضع دقائق - ثَمِلَة تمامًا، متظاهرة أني ذاهبة إلى مكان آخر -، ثم دخلت. سرت بأقصى ما أمكنني من الاستقامة، إلى أقرب مقعد خشبي طويل، وجلست كأني في المدرسة ثانية، نظرت حولي من دون أن أحرّك رأسي. أيًّا كان ما توقعت أن أجده في الداخل، أيًّا كان ما حاولت تجنبه لأكثر من دزينة من السنوات؛ ذلك كله لم يكن ما رأيته تلك الليلة. كان هناك ربما ثمانية أشخاص في محراب بلون الكريم، وله رائحة منظف الجلي من نوع «باين سول»؛ وفيه سجادة بيضاء مخدَّشة بخطوط فارغة عميقة، بين المقاعد

الخشبية. كان كل شيء مطليًا بالأبيض والكريم، والأبيض والبني الفاتح، والأبيض والزهري؛ الجدران المُجَصَّصة والمقاعد الخشبية الطويلة، ومنضدة القراءة في المقدمة.

بدأت الموعظة أو أيًا كانت تسميتها. انحنى رجلٌ مسِن وناعم الوجه على منضدة القراءة، وقرأ من الكتاب المقدس وكتاب «علم وصحة مع مداخل إلى العهد القديم». بين الفينة والفينة، كان يتوقف ليأخذ رشفات ماء من زجاجة كانت تلتقط أسطحًا من الضوء ثم تعيد توزيعها حول الغرفة، على طريقة كرة أضواء الـ«ديسكو». لا بد أني غفوت لأن الشيء التالي الذي عرفته هو وجود شخص على بعد مقعدين أمامي، يتحدث في ميكروفون غير متصل بسلك.

كانت سيدة مسنة، لفَّت شعرها على هيئة كعكعة فضيَّة، وحملت ذلك الميكروفون الكبير في يدها الصغيرة، كأنه قمع «آيس كريم». حرَّكَت شفتيها عليه، وجعلت الغرفة مشوَّشة بتأثير موجات التشويش التي يخرجها الميكروفون. شرحت كيف أنها شُفيَت من أَلَمٍ في أحد أسنانها، عبر تحسين علاقتها مع جار لها كان يشكو من حديقتها. كان وجع السن مجرد اعتقاد مغلوط في عقل فانٍ، خادَعَها كي تشعر بالألم. لكن ماري بيكر إيدي علمتنا، عبر المسيح، أن نحب جيراننا. قالت إنها تركت أصيصًا من زهور التيوليب في الطريق عند مدخل منزل جارها، واختفى وجع السن.

بعدها، تحدث أحد المراهقين. كان يرتدي حذاءً جلديًا ملمَّعًا وقميصًا متغضِّنًا بأكمام مطوية إلى المرفقين. في البداية، ذكَّرني بصبية الطب الجنائي في الثانوية، إلا أنه كان يملك عضلات قوية في ساعديه وشعر لحية خفيفة جذابة، كأنه شخص عمل في الخارج. كان يعرف بالضبط كم يجب أن يبعد الميكرفون عن فمه. عندما يتوقف عن الكلام، كان يسوّي ثنية في بنطلونه قرب حضنه. روى قصة طويلة عاصفة عن امتحان في المدرسة لم يستعدَّ له جيدًا، امتحان عند نهاية المرحلة الثانوية، وحينها قدَّم الشكر لـ«المؤسَّسَة التي

نحبها»[1]، ماري بيكر إيدي، وشرح كيف أنه أبلى بلاءً حسنًا في الامتحان، بشكل ما.

بعد ذلك، ساد صمت طويل. صرَّت المقاعد الخشبيَّة كأنها أغصان، وأخذ رأسي يؤلمني. شرعت عصافير الليل تغرد في الخارج، ورغبت في الانحناء إلى الأسفل في مقعدي، وأن أضع رأسي على خشب بارد لمقعد طويل. لكني لم أفعل. دفعت نفسي للجلوس باستقامة أكثر، والإصغاء بانتباه. كان الشخص الأخير، الذي أخذ الميكروفون كي يتكلم، امرأة مسنَّة.

قالت إنها شُفيَت من الاعتقاد بأن زوجها قد مات، عندما قرأت درس هذا الأسبوع. ابتسمت بإشراق، ولمست شعرها الأبيض كالثلج بيدها أثناء تحدُّثها. قالت إنها استسلمت للاعتقاد خطأً بأن زوجها كان مادة، ولشهور لم تكن قادرة على التخلي عن أشيائه، أحذيته أو كتبه أو صابونه.

لكنها أخيرًا، سكبت في التواليت شامبو «أولد سبايس» الذي كان يستعمله، عندما فكرت بأننا انعكاسات للحياة، بما في ذلك «هارولد». ليس من موت أبدًا لأيٍّ منا. أذكر بالضبط كيف صاغت الجزء التالي، لأن كفَّيَّ شرعا في التعرق.

- «هارولد» بخير. «هارولد» دائمًا بخير. ليس مهمًّا ما تفعله، بل إن ما تفكر به هو المهم. تخبرنا ماري بيكر إيدي أن الجنة والنار هما طريقتان في التفكير. نحتاج إلى معرفة الحقيقة في ذلك، أن نصلي كي نفهم أن الموت هو مجرد الاعتقاد خطأً بأن الأشياء كلها تزول. ليس هناك من ذهاب إلى أي مكان لأي منا، ليس في الحقيقة. ليس هناك سوى تغيير في الطريقة التي تُرى من خلالها الأشياء.

---

(1) اللقب مكتوب بأسماء حروفها الأولى كبيرة، على غرار الأسماء المبجلة دينيًا. (المترجم)

بعدها، كنت في طريقي للخروج عندما أوقفتني تلك المرأة ذات الشعر الثلجي، عند الباب. من قُرب، بدت عيناها مُغَشَّاتين بالتماع أزرق. كانت ترتدي ثوبًا حريريًّا بلون بني فاتح، وفي إصبعها البُنْصر خاتم ألماس.

- هل تودين التوقيع كزائرة؟ سررنا بحضورك.

أحضرت من مكان ما حافظة أوراق مع منشور، ودفعت بها إليّ.

- اعذريني...

أثناء تجاوزها، أمكنني أن أشم رائحة النعناع الفلفلي في نفسها، وعطرًا برائحة ورد الليلك على رسغيها، ورائحة منظف كيماوي على ثوبها. كانت تفوح برقيٍّ وحميميَّة، مُعطَّرَة بثروة حياة بأكملها من النوايا الحسنة. لا بد أنها في الثمانين على الأقل، لكن هناك مسحة شابة تسري في وجهها، بسكينة تحسد عليها. على الرغم مني، توقفت كي أدرسها عن قرب. أردت معرفة المزيد عن زوجها، والشامبو الذي يستعمله. لا بد أنها لاحظت ترددي. رفعت القلم المعلَّق بسلسلة من كرات، عند طرف حافظة الأوراق.

- هل أنت جديدة هنا؟

قلت:

- نعم.

ثم ندمت توًّا. بدت متشوقة جدًّا للمزيد. ثم أوضحت قبل أن أخرج إلى العتمة:

- أعني، في هذه الكنيسة.
- أنا لست... أعني، لست من هذا الجوار.

* * *

ربما حدث ذلك في منتصف إبريل. أتذكر أن التماعة خضراء شرعت في الظهور على أشجار الصفصاف عند النهر. لم يطل الوقت قبل أن تبرز الأوراق على أشجار الرصيف - دفقة من التماع أخضر تجدها أينما نظرت -، وذات

يوم؛ ذهبت إلى شركة الائتمان التعاوني لأعرف كم اقتصدت من المال. بعدها، ذهبت إلى مخزن المعدات كي أشتري برغيًا لمقبض الباب الذي اشتكت منه «آن» شهورًا طويلة. وفيما كنت أثبت البرغي، ولأني كنت جاثية على ركبتيَّ في الحمام، قررت أن أصلح التسريب في حنفية حوض الحمام. انتزعت كتلة من شعر من المصرف بإصبعين، ووضعت لفَّة ورق تواليت في موزِّعها، وجمعت كل المناشف كي أغسلها عند «لوندرومات». تركت المناشف في المُجَفِفة إلى أن صارت ساخنة جدًّا إلى حد أنها لسعت ذراعيّ عندما حضنتها. طويتها ورتبتها في كومات دافئة ومائلة، ثم حملتها إلى البيت، مسندةً ذقني عليها.

في يومي الأخير في المدينة، ذهبت فجرًا إلى شقة «روم».

كانت الريح تضرب الألواح الخشبية المتخلّعَة في أبراج المبنى الفيكتوري العتيق. استخدمت مفتاحه للدخول، تركت أغراضي في كومة عند المدخل، وزَحفت إلى سريره وأنا مرتدية سترتي وحذائي. لم يستيقظ أثناء احتضانه، وأثناء إغراق وجهه في شعري. قلت:

- وداعًا.

أردت إيقاظه. أردت أن أجوب المكان مرَّة أخرى على ركبتيّ ويديّ، والطوق في عنقي. لكنه لم يتحرك. بالكاد وضع عُضوَهُ بين رجلَيّ، وغط في نوم أعمق.

التمعت الأرقام الحمراء للساعة الموضوعة على الرف، أمام عيني. دخل الصبح متمثّلًا في مستطيل رمادي وحيد، عبر شقّ في الستائر. بدأت أسخن بين يديه، مع ارتدائي السترة، وتعرَّقت. بعد هنيهة، نظرت إلى الساعة مجددًا وأدركت أني إن لم أسرع، فسوف تفوتني الحافلة.

سوف يفوتني الانتقال إلى محطة «غرايهاوند» في المدينة، وركوب الحافلة إلى بلدة «وايتوود»، حيث تنتظرني أمي مع الآنسة «لوندغرِن» في مطعم «بيرغر كينغ» قرب محطة الحافلات. لم يحمل صوتها كثيرًا من السعادة بشأن سماعها صوتي، عندما اتصلت بها أخيرًا. كانت سنتان قد مرّتا على المرَّة الأخيرة التي

خابرتها فيها، أي منذ وفاة أبي، ولم تقل بعد بضع مرات لفظت فيها كلمة «آلو» بتحفُّظ، سوى:

- يبدو أن الوقت قد حان لبيع قطعة من الأرض.

وعندما أطلّت الشمس من النافذة العلوية في شقة «روم» السفليّة، تملَّصت خارجة من بين ذراعيه النائمين. سحبت نفسي من قبضته، وعندها استيقظ أخيرًا: عندما أحسَّ أني سأغادر.

- ماذا تفعلين هنا؟
- لست هنا.
- إذًا، مَنْ كان في سريري، يا فتاة الكشافة؟
- بعض من تخيُّلاتك.
- عليكِ اللعنة.

همست مبتعِدَةً:

- حسنًا. أتحداك.

فيما كنت أنسلُّ من بين ذراعيه، جذبني ثانية. اعتصرني بقوة أكبر. أمكنني أن أُحسَّ بأضلعي وأنا بين ذراعيه، حتى عبر نسيج سترتي؛ أحسست بالعظام تدفع إلى الداخل بتأثير وزنه. أعجبني أنه كلما قاومت، ازدادت قوة إمساكه بي. تلويَّت لأتحرر من قبضته، وصرت نصف جالسة. استدرت بجذعي، وقبل تمكني من نقل رجليّ إلى الأرض، أمسكني من خصري وألقاني على السرير. أردت المزيد. أردت المزيد. شرع في فتح أزرار معطفي، وكردة فعل ثنيت رجليّ ووضعت ركبتيّ على صدره بقوة، لذا أخذ يسعل. اعتدل جالسًا القرفصاء، وكان يرتدي سروالًا داخليًّا من نوع «بوكسر»، وبدا مرتبكًا. أحسست ببرد تلك اللحظة تضرب جلدي كدفقة ماء. وصل ضوء الصباح إلى مسام وجهه، فبدا كورقة زجاج.

سأل، وصار الآن مستيقظًا تمامًا:

- ماذا يحدث؟

بدت كتفاه ببياضهما الباهت، وخلفهما الجدار، كأنهما مستطيل. ولأنه نزع الزر من لسانه، لم تعد الطرطقة ترافق كلماته. بدت أكثر نعومة من المعتاد، أكثر بساطة ورطوبة.

- لا شيء.

عندها، رأى حقيبة الظهر الكبيرة عند الباب.

- ما هذا؟ إلى أين تذهبين؟

- جئت لأقول وداعًا.

ألقى عليَّ نظرة سريعة.

- وداعًا؟

- تعودين إلى بلدة «ميدل أوف نو ويرس فيل» المزرية. الآن.

خرجت من السرير، سوَّيت سترتي. ذهبت إلى الباب حيث تنتظرني حقيبة الظهر، وأثناء رفعها إلى كتفي، استدرت لأنظر إليه، مُكَوَّمًا على السرير في الطرف الآخر للغرفة. وَضَعَ كفًّا على عينيه اليسرى، مقلّدًا القراصنة.

- أنت ذاهبة إلى مكان تأكل الذئاب فيه الكلاب اللعينة.

هززت رأسي.

- يحدث ذلك في «آلاسكا». مجرد دعابة.

- مضى على ذلك، كم، لنقل سنتان؟

- تحدثت إلى والدتي. صار الأمر مخططًا له.

- كُنَّا سعيدين، صحيح؟ ما الذي برأيك فعلته لتشعري بأنك لست سعيدة؟

قلت:

- سعيدة، سعيدة، سعيدة.

قَلَبَ الكلمة، وعادت إلى براءتها:

- سعيدة.

بسخرية قلت:

- لا تكن طفلًا.

لا بد أنه لمح شيئًا قبيحًا في تعبيري، لأنه التقط «تي شيرت» وأدخل رأسه فيه. للحظة، كان وجهه قناع قطن أبيض، بفجوات فارغة مكان العينين والفم. هَمَّ بإخراج هاتفه الخليوي من الخزانة الصغيرة، ووجدت أني أستطيع معاودة الحديث معه كأني أتحدث إلى نفسي، بطريقة مقصودة أكثر.

- لا تكن طفوليًا بشأن ذلك. جئت لأقول وداعًا، حسنًا؟ جئت لأقول شكرًا لك، ووداعًا.

سار بضع خطوات إلى الأمام، ووصل قميصه إلى قمة بطنه.

- أنا طفوليّ؟ اسمعي،اسمعي. هل تذكرين متى أخبرتني عن ذلك الطفل الصغير؟

مرَّ التفكير بـبول كهبَّة نسيم في جسدي. رفعت يدًا لأمنعه من الاستمرار.

- لم أُخبرك عن أي طفل صغير.
- قصدتك أنت، يا فتاة الكشافة. الفريسة الأسهل في العالم. منزل قدامى الهيبيّين، الطفلة التي تركوها خلفهم.
- ليس ذلك ما قلته. ليس ذلك ما كان الأمر عليه.
- ورقة اللعب «المجنون».
- كلا.
- السير على حافة الهاوية كلما سرت خطوة. الفتاة الصغيرة المسكينة، وهي لنقل، حافية وبطنها خاوية. من كان يعتني بك؟
- لم يكن الأمر كذلك. كنت بخير. كنت بخير.
- أيَّ صبي صغير قصدت؟

شهقت.

- لا أحد. لقد مات.
- من هو؟
- لا أحد. إنه بخير.

قلت ذلك، ووضعت يدي في جيبي، وعثرت على سكين الجيش السويسري، ودفعت بها باتجاه «روم».

تراجَع إلى الخلف:

- ماذا بحق...

كان ذلك السكين الذي أهداه لي في عيد الميلاد، السكين الأحمر اللامع. كانت الشفرات كلها مطويَّة، لكنه ربما لم ير ذلك. ربما لأن ذكرى دفعي له بركبتي على صدره، كانت حديثة جدًّا. شبك أصابعه فوق قمة رأسه، وتمكنت من رؤية الشعر الخفيف تحت إبطيه عبر فتحات في كمَّي الـ«تي شيرت».

بعد هنهية، ترك يديه لتنزلا على جنبيه.

زفر. دفع بيديه إلى جيبيه.

- أيًّا كان الأمر، احتفظي بها. احتفظي بها أيتها الكشافة المجنونة[1].

وجدت نفسي أفكر بتلك السيدة في الكنيسة، أثناء انتظاري الصعود إلى الحافلة . **الجنة والنار هما طريقتان في التفكير. الموت هو مجرد الاعتقاد خطأً بأن الأشياء كلها تزول.** تلبَّثت إلى الدقيقة الأخيرة في منطقة الانتظار قرب رجل مشرد أعمى يجلس على قطعة من الكرتون، مترددة في المضي، مترددة في صعود السلم المنحدر الصغير لركوب الحافلة. **ليس ما تفعله هو المهم، بل إن ما تفكر به هو المهم.** لم أرغب في الركوب، لكن ما إن فعلت حتى رأيت أن النوافذ طويلة وعريضة؛ بخلاف المتوقع؛ مع سمرة خفيفة تقي من التماع شمس الصباح؛ ونلت مقعدين متجاورين. سارت الحافلة من دون جهد عبر المدينة. استدارت بما يشبه التزلج حول حقول البرسيم، ووصلت إلى الطريق السريع،

(1) في النص، تمزج الكلمتان بين لقب «فتاة الكشافة» وورقة اللعب «المجنون». (المترجم)

متجاوزة حتى الشاحنات على المنحدر. وعندما انعطفت الحافلة إلى الشمال، وتركنا المدينة خلفنا، راقبت أوراق الشجر تتحول من لون أخضر غامق إلى لون النعناع الباهت ثم إلى لاشيء. راقبت الثلج يظهر ثانية في أكوام على جانبي الطريق، وفي نقطة ما من الطريق - رغمًا عني - أخذت أشعر بنعاس وتعرق وهدوء مُسكِر. ربما تعلق الأمر بسرعة الحافلة وارتفاعها، ذلك الشعور بالتحليق فوق الطريق السريع، والمضي بسرعة تكفي لقتل شخص ما. السرعة نوع من السحر. شعرت بذلك دومًا. لكن تلك الموجة من الهدوء جاءت أيضًا من رؤية البحيرات تعاود تجمُّدها عند الشواطئ، بقع من الثلج الأزرق في الشوارع، وتحوُّل الحقول السوداء إلى شيء أبيض وفارغ. بعد بضع ساعات، ظهرت أكشاك الأسماك ترتفع عند البحيرات، مشكّلَة بلدات صغيرة ومرصوصة بدقة. أمكنني رؤية الغربان تحلّق عاليًا في الهواء، تبحث عن الفضلات.

خطر ذلك لي قرب بلدة «بِميدجي». تباطأنا لنفسح المجال لمرور مجموعة من المراهقين يعبرون الطريق عند إشارة المرور، والفتيات مرتديات معاطف كبيرة فضفاضة. لا بد أنه أمر مستغرب الانتقال إلى مكان بارد كهذا للمرّة الأولى عندما تكون في منتصف العمر، أن تصل إليه في الشتاء قادمًا من كاليفورنيا.

لكن، لا بد أن المكان بدا متسامحًا جدًا، في البداية. كل أولئك المراهقين - كل الفتيات - يسيرون ببطء في البلدة مرتدين جزمات، مرتدين سترات صوف ثقيلة. كل ما سبقه، كأنما لا يحتسب. كل تلك الصور، لا تحتَسَب. ليس ما تفكر به مهمًّا، بل ما تفعله هو المهم. انتظرت أن تظهر «وايتوود» عند القمة التالية، ثم التالية، ثم آنذاك، راودني تفكير جديد. جاء كله دفعة واحدة: كل تلك الصور كانت مُعَدّة كهدية، ترِكَت عمدًا تحت المغسلة كي يعثر عليها شخص ما. كي يعثر عليها، ويفهم. هو أراد حدوث ذلك. أخذ الثلج يتساقط. قبل وصولنا «وايتوود»، تدثَّرت الطرق بالثلج. حدث ذلك بسرعة، وكان أخاذًا. في دقائق، اختفت كل القمم السوداء، الخطوط الصفر، الفواصل بين اتجاهي الطريق. أحسست بأن القطع غير المترابطة لدماغي تشرع في الترابط قطعة قطعة، كلّ

واحدة في مكانها، مع التماع نُدَف الثلج النضر والرطب، في الخارج. حدث ذلك عندما تأرجحت الحافلة كذيل سمكة، وشهق الجميع. عندما استطاعت الدواليب التقاط التجاذب مع الطريق، ومضينا قدمًا.

21

كلا. لم يخطر لي الاتصال برقم الإسعاف 911. أقررت بذلك على منصة المحكمة. لم يخطر لي استعمال الهاتف الخليوي، أو الذهاب إلى منزل والديّ، أوقيادة الدراجة للذهاب إلى البلدة. لم أفكر إذا كان الأسرع هو إعطاء إشارة إلى عابر ما في الطريق السريع، أو الذهاب إلى كشك الاستعلامات في «معسكر حرس الغابات الوطني». قلت: لم يكن لدي خطة، قلت: إنني لم أعرف حقًّا بماذا كنت أفكر. أوردت في شهادتي أنه عندما أخبرت بترا أني سأجلب «تايلونول» ذلك الصباح، لم يزد الأمر عن أني ارتديت الحذاء وفتحت الباب.

ما لم أقله على منصة المحكمة هو أنني عندما استدرت لأنظر إليها عند الطريق الجانبي للمنزل، رسمَت بترا بفمها قولًا ما. كان ذلك أمرًا غريبًا رؤيته، كأنها كانت تصرخ من دون صوت. كأنما وجهها كله كان يتلوى مع كل كلمة. يصبح له شكل: **شكرًا لك**. يصبح: **أنقذينا. أنقذينا من فضلك**. هل فكرَت بأني سأفهم ذلك؟ أتذكر إغلاق الباب بلطف تام، الإصغاء إلى صوت القفل. هل فكرَت بأني سأفعل لها ما لم تستطع القيام به بنفسها؟ ألأني وصلت إلى ذلك العمق، وجمَّعت كل الأشياء التي تهمها عبر سلسلة من الخيارات الصغيرة التي لا رجعة عنها؟ أتذكر التحديق بعيون ضيقة في الصباح الحار، العثور على النقود في لفَّتها الرطبة، والانطلاق بسرعة.

انصبَّت عليَّ الشمس مباشرة من الأعالي. لا نسيم.

لا طيور ولا غيوم. ارتفع جداران أخضران عاليان، على جانبي الطريق السريع.

لا أتذكر أني أحسست بالتعب، لكنني أتذكر حرقة في صدري ما إن ابتدأت

حتى مرت طائرة هيليكوبتر فوق رؤوسنا مباشرة. كانت إحدى المروحيات المخصصة لخدمة الغابات، زُوّدَت بدلاء وخزانات ماء، وطُليَت بلون أحمر لامع. هزَّت الطائرة الأغصان العالية، وتوقفتُ لحظة في الطريق السريع لأشاهدها. أتذكر أني تساءلت: **هل هناك نار؟** لكن لم يدم ذلك سوى برهة، لأن زئير الطائرة أطاح بالأفكار كلها. هزَّ هواؤها خصلات مفكوكة في شعري، وتموَّج كشبح في قميصي الـ«تي شيرت». عندما ذهبت، كنت أتابع سيري. قلبي يجلجل، لكن غادر أطرافي ذلك الإحساس بوجود أمر طارئ. أصبح من السهل مجددًا أن تكون موجودًا في الهواء الطلق. في الغابات، في الشمس. أحسست أني أكثر خفة، فيما استقر الـ«تي شيرت» مجددًا على جلدي المتعرق. أحسست بلسعة برد.

سأكون واضحة بخصوص أمر ما. لم تكن الغابات في طفولتي كتلك التي أراها اليوم. عندما كنت صغيرة، كان الاسم الآخر لـ«ستِل ليك» هو البحيرة المستنقع، لأنه خلال السنوات الجافة التهمت أعشاب البِرَك الشاطئ، ونمت أحواض الزنبق بكثافة إلى حد أنها بدت كأرض صلبة. وفي السنوات المطيرة، غمرت مياه البحيرة شواطئها إلى حد أنه أمكن لقاربنا «الكانوي» الرسو قرب سلم الكوخ تقريبًا. الآن، عمدت «رابطة ملّاك البيوت» إلى توسيع القناة بين بحيرتي «ستِل» و«مِلْ»، ما ضمن مستوىً غير متغير للمياه على مر السنين. هناك اثنا عشر منزلًا في محيطهما المباشر - أقرب إلى فيلات صغيرة من كونها بيوتًا خشبية - مع كوَّات منيرة في السقوف، وحوافّ خشبية متعددة، وعوَّامات راسية على الشاطئ. في الصيف، تصير ضاحيةً، إذ قُطِعَت معظم أشجار الصنوبر عند الشاطئ لمصلحة المستجمين تحت الشمس وأحواض الزهور. تكتظ المياه بأطفال صغار يمرحون، ومراهقين يطفون على دواليب هوائية سوداء ويضربون الماء خلف قوارب التنزه. وآباء متبطلون يجوبون في قوارب سريعة الخلجان الصغيرة ويمنون النفس بنيل أسماك «وول آي» المعروفة.

أحيانًا، حين أجلس مع أمي خارج كوخنا المُرَمَّم، في ما تبقى لنا من أرض، أحاول تذكُّر ما كانته الغابات في صغري. أعرف ما يكفي لتجنيبي الإحساس بالأسى. لم تكن ساحرة أبدًا بالنسبة لي: لم أكن صغيرة أبدًا، ولم أملك الحق أيضًا كي أراها على ذلك النحو. سنة بعد أخرى، استمرت الغابات في البروز والتموج، وتفتح الأزهار، والجفاف، وأوحى تقلُّبها الثابت بمعانٍ بعضها معلن والآخر خبيء؛ نعم، أسرار لكنها أسرار تغدو روتينًا من التغيير نفسه، بغابات تغطي، ثم تعيد تغطية، مساراتها. عندما كنت في الثامنة أو التاسعة، اعتدت الذهاب إلى الشاطئ، وتعبئة علب القهوة بضفادع بحجم قطع النقد المعدنية الصغيرة. كنت أسميها «حدائق الحيوانات». كانت أمي تود مني أن أصلي قبل النوم، لذا كنت أتلو الصلاة نفسها يوميًا: **أيها الرب العزيز، أرجوك ساعد أمي، أبي، «تامِكا»، «آيب»، «دكتور»، «جاسبر»، «كوايت»، وكل الحيوانات في كل «حدائق الحيوانات»؛ في ألا تكون ضجرة كثيرًا ووحيدة كثيرًا**. كانت تعويذتي هي «ليس كثيرًا». رغبت كثيرًا في الاحتفاظ بصغار الضفادع. أحببت وجوهها الكثيرة - خصوصًا عيونها الدقيقة التركيب - لكنني قلقت بشأن سبب احتفاظي بها. عقب بضع ليالٍ من الإحساس المتنامي بالذنب، أفرغ العلب من محتوياتها في أجمة شجيرات حرجي؛ وعندما تبتعد الضفادع متقافزة على أرجلها الصغيرة، أحسُّ تمامًا بقوة الغابات. أشعر بالطريقة التي تعاقبني وتصحححني بها، الطريقة التي تبدو فيها كأنها تقول دومًا: **أرأيت؟**

سأحكي عن الأشياء التي مررت بها ذلك اليوم، عندما تجولت في البلدة. أولًا، هناك الإعلان المألوف المرسوم بالرشّ فوق عمود على جانب الطريق، ذلك الذي يعد بتقديم **البنزين والمشروبات الكحوليَّة**. لسنوات، أدارت «كاترينا» الشيوعية ذلك المكان العتيق، تبيع فيه طعوم الصيد والبيرة مع خصم، والغازولين والفودكا مع زيادة.

بقيت «كاترينا» في الخمسين من العمر، خلال حياتي كلها؛ وهي قدمت من

ولاية «آيوا» كواحدة من الجيل الثاني من المهاجرين التشيك فيها، واحتفظت بنفس العينين المغطاتين كعيون الضفادع الصغيرة. اعتادت بيع أخشاب أبي المكسرة بعد جعلها في حزم مزدوجة، وأشياء الزينة التي تصنعها أمي بعد تحويلها أقراطًا. عندما كبرت، لاح لي أنها تشفق علينا. ذات مرَّة، أعطتني زوجًا من أحذية التنس ماركة «آديداس»، كانا لابن شقيقها. وعندما تمنعت عن أخذها في البداية، قالت:

- اللعنة، يا ليندا. لا تذهب فتاة إلى مدرسة ثانوية مرتدية حذاء تزلج، نقطة على السطر. حسنًا؟ حسنًا؟

على مدار سنوات، كانت تلك أفضل أحذيتي. كنت أرتديها في ذلك اليوم.

أعرف أنها تحتفظ على الرف بزوجين من علب لصقات الجروح، وزجاجة أو اثنتين من «تايلونول» أيضًا، لكني تجاوزت **الوقود والمشروبات الكحولية** في ذلك الصباح الحار في يوم الإثنين، خشية من صخب «كاترينا» وأظافرها المقروضة، وشفقتها الدبِقَة التي تصيبني بالعدوى بطريقة ما، ونظراتها السيئة التي تجعلني أُحسُّ دومًا بأني عفنة ومتعرقة مثلها.

ثانيًا، عبرت إشارة المرور التي لا يراعيها السكان المحليون إلا لمامًا، وبعدها بثلاث بارات وثلاث كنائس. صباح الإثنين، كانت تلك المباني مغلقة كلها؛ البارات على جانب من الطريق، والكنائس على الجانب الآخر. كان هنالك زجاجات فارغة ملقاة على العشب قرب الصليب الخشبي لكنيسة «آور ليدي»، ومنشورات يوم الأحد التي أطاحت بها الريح فعلقت كشبكة ورق، على الأسلاك المتصلة لسياج شركة «هير أند فوكس». كرَّرت تلك المنشورات عبارة **أهلًا بالجميع في بيت الله**، المرَّة تلو المرَّة.

بعدها، جاء مبنى حلبة التزلج، بهيكل خارجي يشبه الصَدَفة، وجدران جانبية من الألومونيوم، وسقف من الإسفلت المسطَّح. كان المبنى الأضخم في البلدة، بلا منازع. وطيلة أسابيع الصيف، يكتظ المكان بأعداد من

المتزلجين ولاعبي الهوكي، ويتنافس الكل على وقت التزلج على الجليد. عندما مررت بمبنى الحلبة، رأيت أن آلة «زامبوني»[1] قد اجتذبتهم كلهم في الخارج. في المرآب، كانوا يدورون حولها متمايلين في بزَّات التزلج؛ الفتيان على أمل أن يكونوا هدفًا لحديث الفتيات، والفتيات على أمل أن يكن هدفًا لدغدغة تحت ذقونهن، بقطع مقشوطة من الجليد.

بعد الحلبة، جاءت دكاكين البلدة بواجهات عتيقة الطراز وحجارة متداعية، إذ شُيِّدت واجهات المخازن في القرن الماضي إبَّان فورة الإقبال على الأخشاب. البنك، مخزن الطعوم وأدوت الصيد، مخزن المعدات. انخرطت الجدَّات وقدامى المحاربين في شراء وجبات الغداء في المطعم، مع سندويشات الخبز الأبيض وحساء الرز البري. من الجانب الذي بهت بسبب الشمس في المبنى، ارتفع رسم سمكات «وول آي» الثلاث، مرفرفًا فوق عامود الضوء في الشارع. قريبًا من النهر، ظهرت البقايا المتفحمة لطاحونة الخشب القديمة، وقد طغت عليها أشجار الصيف والأعشاب البريَّة، فصارت لا ترى إلا بالكاد. في شارع «ماين» أيضًا، قرب الطريق الذي يربط بين الولايات، هناك المركز التجاري «باين آلي». بعده، تكون بلدة «وايتوود» على بعد 21 ميلًا. وبعد 120 ميلًا أخرى، «دولوث»، ثم جسر رفع السفن، السفن الطويلة الراسية، وبحيرة «سوبيريور» نفسها. فكرت فيها هنيهة، عندما مررت بالدكاكين في «باين آلي»، ولمست أصابعي الأوراق القذرة الأربع من فئة عشرة دولارات في جيبي. أحسست بما يشبه الحنين: «سوبيريور»، بمساحتها التي تبلغ 31 ألف ميل مربع من المياه، وحرارتها التي تبلغ 93 درجة فهرنهايت على مدار السنة، وسفينة الشحن «إس إس إدموند فيتزجيرالد» الغارقة فيها، وحمولتها من خامات معدن «تاكونايت»، والأجساد التي لم تستخرج وبقيت فيها مقلوبة على وجوهها، مرتدية سترات النجاة البرتقالية اللون.

---

(1) آلة أميركية معروفة تعمل على تسوية الجليد ليصير أسطحًا مستوية. (المترجم)

كان مخزن الأدوية في المركز التجاري، فدفعت الباب ودخلت.

بعث الهواء المبرَّد قشعريرة سريعة اجتاحت جلدي صعودًا ونزولًا. كان باردًا جدًّا ملمس كل المعروضات على الأرفف؛ زجاجات الفيتامين المستعصية على القراءة، وسوائل علاج السعال. لا بد أني كنت متعرقة جدًّا عندما دخلت من الباب، لأنه خلال دقيقة أو اثنتين، غدت أصابعي مبقعة بالبياض، وتوجَّب عليَّ فركها كي يعود الدم إليها. في آخر المخزن، ظهر أب لوَّحَت الشمس جلده، منتعلًا «شبشبًا»، وبنطلون حمام قصيرًا؛ وهو يحاول إفلات علاَّقة عصا مكنسة من فم رضيع.

أومأ إليَّ برأسه، رافعًا يد الطفل في الهواء كأنها عصا.

سأل صوت فتاة:

- أتحتاجين شيئًا معيَّنًا؟

رفعت بصري ورأيت أنها «سارة» المتزلجة على الجليد. كانت ترتدي ثوبًا فضفاضًا أخضر، وتمتص رشفات صغيرة من مثلجات «فروستيز» بواسطة قشة حمراء. كنت أشد اندهاشًا من أن أجيب. ألم يكن صيفًا؟ ألا يعني ذلك أن «سارة» تعمل طوال النهار يوميًّا على قفزاتها الثلاثيَّة؟ ألم تكن الألعاب الأولمبية على مسافة سنة واحدة؟

بعدها، تذكَّرت أن القفزة الأمامية المزدوجة لـ«سارة» اختلَّت في الربيع الفائت، أثناء مسابقة «البحيرات الثلاث العليا». وفق ما قاله الناس، فإنها كلما قفزت في الهواء امتلكها الرعبُ المحتَّم للانتحار. كانت تبدو كأنها ترمي بنفسها من حافة هاوية. اقتربَت مني وصارت تعض على القشة بأسنانها:

- هل تحتاجين شيئًا معيَّنًا؟

أخذ الطفل في الخلف يصدر أصواتًا إ إغ غ غ، إ إغ غ غ.

- كلا.

فيما مسحت بنظري الزجاجات في قسم الصحة والتغذية، أحسست أن المسافة بيننا تضاءلت. كان هنالك دواء اسمه «هيومن هيلث» يزعم قدرته على

إغلاق مسامك. هناك فيتامين اسمه «إيغي» تعصره في أنفك بواسطة قطارة للعين. لم أر أي «تايلونول»، لكن أسبرين بجرعة خفيفة، وفق ما قرأت، يستعمل لتخفيف لزوجة الدم، إضافة إلى منع الحمى، والجلطة الدماغية، والإجهاض، والألم، وربما (وفق دراسات واعدة) السرطان. سألتُ «سارة»:

- أهو موعد دورتكِ الشهرية؟
- كلا.
- دوخة شرب الكحول؟
- كلا.

راقبتني وأنا أقرأ الكلمات المتلاطمة على قفا زجاجة فيها فيتامينات عدَّة. سألت:

- هل تعانين فقر الدم؟

ثم عاودت الارتشاف من القشة، من دون أن ترفع عينيها عني.

- هل تعانين سوء تغذية أو ما يشبه ذلك؟
- أعاني من الصداع. عندي...

فتشت عن الكلمة:

- صداع الشقيقة.

خفضت صوتها وقالت:

- هل وقعت؟ هل ضربك أحد ما؟
- أقصد أن لديَّ نوعًا من وجع المعدة. أو ربما حمى؟

تراجعتُ خطوة إلى الخلف.

- حمى؟ الأفضل أن تتصلي بالدكتور «لورد».
- تقصدين «لورن»؟
- هناك دال في آخر الاسم. أنا واثقة جدًّا من ذلك.

كنت على وشك المجادلة في تلك النقطة، عندما أطلق الطفل في الخلف عويلًا. ثمة شيء في ذلك الصوت جعلني أخطو إلى الأمام وألمس بسرعة رسغ «سارة».

- ربما كانت حمى مرتفعة. هل يوجد شيء هنا للحمى المرتفعة؟

على رغم أني بالكاد لمستها، إلا أني أقسم بأن ذراع «سارة» انتفض. ضيَّقَت عينيها السوداوين.

- يا الله. أنت مصابة بمرض مُعدٍ، أليس كذلك؟ لدي عمل ليلي! يتوجب عليَّ العمل حتى وقت متأخر. ابقي بعيدة عني، لا تقتربي كثيرًا. أنا جادة.

سرت خطوة إلى الأمام.

- لست مريضة إلى ذلك الحد.

ابتعدت بأناقة على قدمها المستندة إلى زلاجة، ووقفت وظهرها مستند إلى جدار رُصَّت عليه سدَّادات قطنية.

- لا تقتربي مني، حسنًا؟ خذي ما تحتاجينه، وضعيه على منضدة الحساب.

وفي حيرة، أخذت زجاجة الأسبرين الخفيف الجرعة بسعر 3.99 دولارًا، ووضعته في سلتي. ثم، في اندفاعة، أخذت ورقة أصابع حلوى من نوع «بيكسي ستكس»، وكيسًا من كريات الحلوى «سكيتلز»، وعلكة من نوع «آتوميك فايربُل». وضعت الأشياء كلها على منضدة عند نقطة المحاسبة، وأخبرتني «سارة» أن أبتعد عند قدومها، وقد وجدت زوجًا من قفازات تعشيب الحدائق كانت ورقة السعر معلَّقَةً عليها، ودسَّت يدها في أحد القفازين، واستعملتها في توضيب الأشياء كلها. وصل المجموع إلى 5.39 دولارًا. وعندما وضعت إحدى أوراق العشرة دولارات الملوثة على المنضدة - كانت ملطَّخَة بالوحل والطحلب، ومثناة عند أطرافها - أغلقَت «سارة» عينيها كأنما أسوأ مخاوفها قد تحقَّق، كأنما هناك مرض مرئي ملتصق بورقة النقد على شكل طين فعلي، وأخبرتني أن آخذ ما أحتاجه، وأنها ستدفع بنفسها، أيًا كان الحساب. عليَّ فقط المغادرة.

أثناء مغادرتي، رأيت الرضيع عند نهاية المتجر وهو يضع حمالة صدر مبطَّنَة في فمه، كأنه سارق. لوَّح لي بيده.

بمجرد عودتي إلى الشارع، صفعتني الحرارة الحقيقية للنهار. صعدت التلّة ببطء، وسرت باتجاه الثانوية وأنا أمصُّ إحدى عصي الحلوى من ورقة «بيكسي ستكس»، ثم انحدرت متجاوزة منزل كبار السن أثناء تناولي حلوى «سكيتلز». مررت أمام دار البلدية مرتين ثم ثلاثًا، وأنا أفكر أن أحدًا ما ربما يوقفني ليسأل عن سبب تسكعي أمام أبوابها. جلست دقيقة على حاجز حجري حيث رأيت ولاعة قديمة في جدول، كأنها تنتظر أصابعي لتلتقطها. أشعلت عصا ثانية من حلوى «بيكسي ستكس». احترقَت ببطء، وصعد منها دخان، وسالت منها قطرات حمراء دبقة على الرصيف.

عندما لم يوقفني أحد بسبب التسكع أو خوف إشعال حريق، دسست قشَّة الحلوى في الكيس، وذهبت إلى مخزن العدَّة. خطر لي أني ربما أرى والدي هناك. كان يأتي أحيانًا لشراء مسامير وخيوط لصيد الأسماك، لكن السيد «لينغ»، صاحب المخزن، كان وحيدًا، يغالب النعاس واضعًا قبعة لفريق «غوفر» على عينيه.

بعدها، ذهبت إلى مخزن البقالة. كان فارغًا إلا من السيد «كورهونِن» الذي كان يقرأ جريدة على المنضدة ولم يرفع رأسه. بغرابة، لم يصدر الباب صوتًا عند دخولي أو خروجي، وفي كل مرَّة كانت قبضة من الهواء تمنعه من الانغلاق التام. أطللت برأسي داخل المطعم، لكن النادلة «سانتا آنا»، رئيستي القديمة كانت في إجازة. ذهبت إلى «مهرجان أفلام لوريل وهاردي» في مدينة «تورنتو» بكندا، وأحلَّت أختها بديلًا عنها. قالت الشقيقة:

- ستعود بعد أسبوع تقريبًا.

وأزاحت غرَّتها الكثّة عن عينيها، وسكبت قهوة لسيدة مُسنَّة تحل كلمات متقاطعة.

في الطريق، رأيت أن باب مركز «يونيفايد سبيريت» بات مفتوحًا الآن، فدخلت إذ ظننت أني ربما قابلت أمي خلال واحد من اجتماعاتها الكثيرة. وعلى أضعف تقدير، ظننت أني ربما أرى القس «بِنسون» يرعى أرانبه في الأقفاص في

مكتبه، أو السكرتير يطوي منشورات يوم الأحد في الغرفة المتعددة الاستعمالات في الخلف. لكن، لم يبد أن أحدًا هناك بالمرَّة. المقاعد الخشبية الطويلة في حرم الكنيسة موضوعة بطريقة تحول دون وصول أحد إلى المذبح بطريقة مقبولة. شققت طريقي بتعرج عبر متاهات المقاعد الخشبية، ووصلت بانتصار كئيب إلى المذبح، وأنا أمص إحدى حبَّات علكة «آتوميك فايربُل». أحسست بحرقة في فمي، وفي الوقت نفسه أحسست بلسعات خفيفة ومرهفة من كسرات السُكَّر.

حينها، كانت أربع وعشرون ساعة قد مرَّت على مغادرتي «دولوث». حينها، كما علمت لاحقًا، كانت قد مرَّت ساعة على دخول بول في غيبوبة، قبل أربع ساعات من توقف قلبه.

أيها الرب العزيز، فكرَّت حين وصلت إلى الصليب، على رغم معرفتي بأنني لا أملك سوى إيمان عشوائي، لا ينفع حتى كمعتقد غيبي. **أيها الرب العزيز، أرجوك ساعد أمي، أبي، «تامِكا»، «آيب»، »جاسبر»، «دكتور»، «كوايت»، وبول، في ألا يكونوا ضجرين كثيرًا ووحيدين كثيرًا**. ليس كثيرًا. كانت تلك الصلاة الوحيدة التي أعرفها، فيما ملأت الحرارة الآتية من علكة «فايربُل» فمي - بدت كأنها انتفخت وانعقدت عند لساني، كأنها تكَبّر الفراغ في داخلي الذي ربما يحترق - فكَّرت في بترا حينها، بتعمُّد، تاركة لعقلي أن يرجع إليها، قطعة تلو قطعة. فكَّرت في بترا مع كل تلك الفطائر المحشوة في فمها، فكَّرت في بترا أثناء ذهابها إلى المستشفى لتنجب بول، بيدها تضرب إيقاع نبضات قلبها على فخذي؛ وعندما فكَّرت بذلك كله، اقتربت من الاعتقاد بأن شرائي الأسبرين وعدم إثارتي شوشرة، فإنني قمت بشيء يسعدها. ترطَّبت عيناي من أثر الحرارة في فمي. وبسرعة مماثلة، انتابني إحساس بالارتياح.

لقد فعلت بالضبط ما طلبته بترا مني، وليس أكثر، لذا بدا الأمر حينها بطوليًا تقريبًا، شجاعًا في طريقة فعله، بالقليل تمامًا الذي أنجزته.

ذهبت إلى صندوق الصدقات عند المذبح، ووضعت ورقات العشرة دولارات المدوّدة، بزواياها المُثنَّاة. في الدقيقة الأخيرة، استرددت طوق شعر بترا، عقب إعادة التفكير بأمر منحِه، مُدرِكَة أن الألم ذهب عميقًا، وأنه لن يتبدد سريعًا.

بعدها، شققت طريقي عبر المقاعد الخشبية، وشرعت في العودة.

سأحكي كيف أتذكر ما كانته الغابة في طفولتي. كل شجرة، حتى الصنوبرات المزروعة في صفوف محكمة بواسطة حرس الغابات لسنوات خلت؛ بدا كل منها مختلفًا عن البقية. يسيل النُسغ في الحر عن بثراتٍ في واحدة منها، هناك أخرى أغصانها منكسرة فكأنها وجه عفريت في الغابة. كانت الغابة نوعًا من الحضانة لا ينشغل الفكر بها، فهي لمجرد النظر والتمشية. أحببت أن تستطلع عيناي التفاصيل، الأغصان الصغيرة والأوراق الإبريَّة، الحيوانات التي دهستها المركبات على الطريق ولفظت أحشاءها كمتاع متروك على الإسفلت. هناك أشياء معيَّنة عرفتها عن الغابة، لكن دومًا هناك أشياء أخرى كنت متأكدة أني لم أرها في حياتي من قبل. يتقاتل غراب على المنحدر مع سلحفاة عضَّت على كيس ورق فيه بقايا طعام خفيف، على سبيل المثال. أو نملة خشب كبيرة تظهر كأنما من لامكان على رسغي، تجرُّ يرقة خضراء وتصعد على يدي، كأنها نالت جائزة.

عندما وصلت إلى منتصف طريق عودتي إلى منزل آل «غاردنر»، مرَّت سيارة بي. بعد مئة قدم، توقَّفَت وأخذت تسير إلى الخلف. حينها، كانت الشمس منخفضة في السماء؛ تولت القيادة امرأة ترتدي خوذة شمس بيضاء، وقد لوت عنقها إلى الخلف، لكن الرجل في المقعد المجاور للسائق هو الذي أنزل النافذة وتحدَّث إليّ . في المقعد الخلفي، جلس طفلان، صبي وفتاة، وأخذا يحدِّقان.

قال الرجل:

- مرحبا. هل كل شيء على ما يرام؟

تظهِر لوحة السيارة أنهم من ولاية «إلينوي»، وهي «أرض لينكولن» وفق شعارها الرسمي.

استمررت في المشي.

عمدت السيارة، وهي مركبة عائلية طويلة مع قارب «كانوي» مربوط على سقفها، إلى محاذاتي أثناء سيري. كأنها أحد تلك الكلاب التي لا تستطيع التخلص منها.

كان للرجل حاجبان كثيفان كالفرو. قال:

- لا نحاول التطفل. بالطبع من حقك أن تكوني مرتابة. لكن، أعتقد...

داست السيارة على غصن ساقط، فتكسر ببطء وبصوت مرتفع. أضاف الرجل:

- لا أستطيع سوى التفكير بأنه يمكنك أن تستفيدي من الركوب، للوصول إلى مكان ما؟ هل تحتاجين توصيلة إلى مكان معين؟ تقول الخريطة إن الغابة تمتد خمسين ميلًا من هنا. فقط الغابة والبحيرة.

أظهر خريطة من النافذة ليريني. كأني لا أعرف ذلك، كأن ذلك خبر جديد بالنسبة لي.

لكنه كان يراقب وجهي عن كثب. أخيرًا، قلت:

- حسنًا.

الوقت عند أواخر ما بعد الظهر، وزجاجة الأسبرين في يدي. أحسست بالهدوء، لأنه يجري توصيلي. وعَدْته بأن المكان ليس بعيدًا.

في المقعد الخلفي، ساعدني الطفلان على تثبيت قفل حزام الأمان.

توجَّب عليّ توجيه السيارة. توجَّب أن أقول «على مهل»، عند المنعطف إلى «ستِل ليك»، وأن أشير بعدها إلى طريق ضيق في الظلال يوصل إلى كوخ آل «غاردنر». كانت المرأة ذات الخوذة سائقة ماهرة، ولم يزعجها السير على طريق

مرصوف بالحجارة. مرت الغابة بفتور، وعبر النافذة بدت الأغصان مبهمة بلون أخضر- أزرق. تساءلت كم يمكنني الاستمرار في حفز المرأة على الاستمرار في القيادة، وهي واثقة بي، وأحسست بذلك. انتابني إحساس بأني أستطيع الإشارة إلى أي نقطة في الطرق الخلفية للغابة، أي ممر وعر، مهما كان طويلًا، وكانت ستمضي إلى حيث أقول.

عندما وجدت نفسي مستمتعةً بهذا التفكير، بدا الأمر كأنه خيانة لشيء ما رغم أني لم أعرف ما هو، لذا استحثثت المرأة على المضي قدمًا. حاولت تحذيرها من المطبات والمخاطر المقبلة.

- من الصعب أحيانًا رؤية غزال. عليك الحذر أثناء القيادة وقت الغروب. تذكري ذلك لاحقًا. لا توجد إشارات طريق أو ما يشبهها.

ابتسمت لي المرأة قليلًا عبر المرآة، كأنها تقول: **أعرف.**

دخل الرجل في حديث معي، ليس كـليو الذي يحب الحقائق، ولا أبي الذي لا يجيد سوى البيسبول والحديث عن الطقس وصيد السمك. سألني إلى أين كنت ذاهبة. فقلت «إلى المنزل»؛ ما بدا له الشيء الصحيح لأنه كف عن السؤال وأخذ يحدثني عن موقع مخيمهم قرب بحيرة «توركواز».

- هل ذهبت إلى هناك؟

لم أستطع إيقاف عيني عن التقلُّب.

- مليون مرَّة.

- هل تعطينا بعض الإرشادات؟

فكرت في الأمر.

- هناك عشٌ للنسر الأصلع عند الشاطئ الشمالي.

بكل جديَّة، قالت الفتاة:

- جيد.

كان لديها دفتر ملاحظات، فكتبت ذلك. **عشُ النسور.** عند أعلى الصفحة ظهرت كلمة **خطط**، تلتها قائمة ثانية عن **الذكريات**. لأحكِ ما كَتَبَتهُ تحتها: **غزال**

ميت على الطريق. فتاة تبدو كصبي. لا تعرف كيف تستعمل حزام الأمان في المعقد. قلت لها:

- م ق ع د.

أجرت التصحيح، وحكّت الورقة بالممحاة. من المقعد الأمامي، قال الأب:

- **نحب** أن نرى نسرًا أصلع.

قالت الأم:

- رأينا بعض الصقور، لكن لم نر نسورًا. سيكون الأمر عظيمًا.

حينها، كدت أن أقول لهم: هناك خطبٌ أَلَمَّ بـبول.

كدت أن أقولها. فكرت أني بحاجة إلى مساعدة.

لكني لم أفعل، لأني أعرف أنهم **سوف** يساعدون، ولم أردْ أن تحدّق بترا بهم عبر الباب الأمامي مرتديَةً الـ«تي شيرت» وسروالها الداخلي مكشوف، أو أن يُنَفِّر ليو هذا الأب الآخر بمصافحة يد متعرقة. لم أُرد أن أرى ليو يطلب من بترا أن تصمت ويرسلها إلى داخل المنزل؛ أو أن يشدَّ ليو قميصه تحت حزامه ويرمش بعينين محمرتين أثناء شرحه لهم سبيل العودة إلى الطريق السريع. وكذلك أعرف أنه إذا تمكَّنت بطريقة ما من إدخال المرأة المرتدية الخوذة إلى داخل المنزل، وإذا جعلتها بطريقة ما تتجاوز ليو لتصل إلى غرفة بول، فسيعني ذلك نهاية «أوروبا» و«جانيت» إلى الأبد، نهاية كل شيء له قيمة. لذا، طلبت من المرأة أن تأخذ الطريق البطيء حول البحيرة، وتنحدر عبر طريق باتجاه واحد مرصوف بالجذوع، يكاد لا يستعمله أحد، بل تكاد تغطيه الشجيرات والحور الرجراج. جعلتها تأخذ طريقًا يستعمل لإيصال القوارب إلى الشاطئ، ثم تعود ثانية. أثناء قيادتها، أمكنني ملاحظة أن المرأة تراقبني بتمعن عبر المرآة. كانت تقود وتراقبني في الوقت نفسه، فبدأت أنظر إلى حضني.

جالسًا قربي، لمس الصبي زجاجة الأسبرين التي اشتريتها لـبول.

- ماذا في يدك؟

قلت:

- عندي صداع.

رغم أني لم أعد أعانيه. لقد ذهب.

كنا نسير ببطء تمامًا، والغابة ظليلة وقاتمة إلى حد أن الأشجار بدت كأنها تتحرك، لا السيارة. كانت تنزلق قرب النافذة، بحركة ميكانيكية، في ما بدت السيارة هشّة ومترددة.

ثم ظهر كوخ آل «غاردنر». هناك سيارة في الطريق الجانبي، الستائر الأمامية مسدلة، وقطٌّ أبيض يتلصص عبر النافذة. تفاجأت المرأة- السائقة.

- أوه!

بدت مرتاحة بوضوح لوصولها إلى مقصد فعلي. أنزلت زجاج النافذة كي ترى بصورة فعليَّة.

- يا للمنزل الصغير الجميل! إنه مختبئ بعيدًا هنا.

أمكنني رؤية البنت الصغيرة تدوّن ذلك. كذخ.

كتبتها بعناية. **في عمق الغابة.**

بعد زمن ما - ليس بعيدًا من نهاية ذلك الصيف - بدأت الغابة تبدو مختلفة بالنسبة لي، وإلى الأبد. لأكن صريحة. بدأ هذا الشعور قبل وقت طويل من تقسيم العشرين فدانًا من الأرض على الشاطئ الشرقي لـ«ستِل ليك»، ثم إعادة تقسيمها على يد متعهدين من «توين سيتيز». بدأ قبل وقت طويل توسيع القناة بين بحيرتنا وتلك التي تليها، قبل إزالة أشجار الصنوبر والحور الرجراج وبناء منازل جديدة كليًّا. كانت تلك التغييرات الأشد وضوحًا. ما أتحدث عنه هو شيء آخر. أتذكر أنني في الصف العاشر، كنت أراقب الرياح تعصف عبر الأغصان، وأفكر أنه باستطاعتي رؤية مدار الكرة الأرضية وقد أطلق سلسلة متصلة من التغييرات في الطقس أدت إلى جعل هبوب الريح على الغصن أمرًا محتمًا. أنظر إلى أوراق الأشجار، وأرى إلكترونات آتية من

نجمة - غير - نائية (وكذلك غير - مدهشة - جدًا)[1] تحوّل ثاني أوكسيد الكربون إلى ورقة صفراء- خضراء. مات «آيب» في وقت لاحق من ذلك الخريف؛ وفي ما صنعت له حفرة تحت الصنوبرات، أخذت أفكر بما كان سيحدث إن لم نجد أناسًا أو كائنات شبيهة بالإنسان، أو ذكاءً أو خلايا أو حياة من أي نوع؛ في الكون. بدأت أفكر أن كل علماء الفلك كانوا مخطئين في مسعاهم، أن الفارق بين الحياة واللاحياة فائق الضآلة في أفضل الأحوال؛ أو ربما خارج الموضوع. لقد فهمنا الأمور بشكل استرجاعي. لقد وجَّهنا تلسكوباتنا إلى الفضاء عاقدين الآمال على أن نرى أنفسنا هناك، ورأينا كتلًا كيماويَّة تعكس ذلك إلينا. بعد موت «آيب»، بعد مغادرة ليو وبترا، لم يعد شيء ليغير الشعور بالوحدة.

(1) إشارة إلى الشمس التي هي نجمة، وهي ليست بحجم فائق الضخامة بالمقارنة مع نجوم أخرى، وليست الأرض ببعيدة عنها كثيرًا بالمقاييس الفلكية. (المترجم)

22

في اليوم الأول من الصف العاشر، استيقظت أبكر مما أحتاج. وفيما نام والداي في الغرفة خلف المطبخ، لبست - جينزًا، سترة صوف خضراء، جزمة - وشغَّلت مدفأة الغاز الصغيرة قرب المغسلة. في البداية، لم أر سوى الضوء الأزرق للغاز، لكن فيما كان الماء يقرقر في الإناء، برز جزء من يوم رمادي في سبتمبر نفسه عبر النافذة الوحيدة. نفضَت الصنوبرات الماء عنها في الهواء. صفَّيت القهوة بواسطة قماشة رطبة، وسكبت السائل الزيتي الساخن في «تيرموس» أبي. خبَّأت «التيرموس» في حقيبة ظهري. ولولت الكلاب حتى بعد أن أخرجتها من الزريبة، وسحبت زلاجاتها، ونفضت الندى عن سلاسلها. فخلال الصيف الماضي، تعوَّدَت عليَّ ثانية. صارت تترقب ما هو أكثر من مجرد تربيتة أو اثنتين، رغم أنه لم يكن لدي وقت لذلك الآن. بتعجل، سكبت لها طعامها المطحون، وثبَّت صحونها على الحطب. على أية حال، كانت أكثر إحساسًا بالجوع من ميلها إلى التعلُّق. لم تعد ترفع نظرها عندما بدأت تتناول فطورها.

الطريق السريع مازال خاليًا. علق ضباب خريفي مبكر على الأشجار عند جانبي الطريق، مخمدًا صوتها؛ ما جعل مشي خمسة أميال إلى البلدة مجرد انتقال من قطعة طولها أربعة أقدام من الإسفلت إلى الأخرى. هزهزت ذراعيّ كي لا يبردا. تركت لقلبي أن يتسارع، فلم يعد ثانية إلى التباطؤ. وعندما وصلت إلى شارع «ماين»، استدرت بحدَّة إلى اليمين خلف محطة وقود «كاترينا» التي لم يبدُ أنها فتحت ذلك المكان بعد. مازالت نوافذ الزجاج البلاستيكي السميكة مظلمة. وفي الباحة الخلفية للمحطة، ظهر جلدا وَعْلَين

مُعلَّقين من طرفيهما، وكان ذلك يثير اهتمامي غالبًا، لكني كنت مستعجلة فلم أتوقف. تتبعت طريقًا رطبًا في الغابة متجاوزة طاحونة الخشب القديمة التي ارتفعت ألواحها السوداء المتفحمة أعلى الصنوبرات، واختفت في الضباب فوقها. استمررت في المشي. ذهبت إلى شاطئ بحيرة «غوون» وكنت أعرف أن «كاترينا» تحتفظ بقارب «كانوي» ثانٍ من الألومونيوم، لم يستعمل منذ سنوات.

بعد دقائق قليلة من التفتيش، عثرت على القارب المتهالك غائصًا في الوحل وأعشاب البرك بعيدًا عن مدخل الخليج الصغير للبحيرة. خضت في الوحل، وقلبت ذلك الشيء رأسًا على عقب - مفرغة الماء أولًا - ونظَّفت المقاعد الموحلة بأكمام قميصي. الآن، أخذت الشمس تزيل الضباب عن البحيرة. امتلأ سطحها ببقع صغيرة صنعتها أسماك الـ«مينناو» تحته والحشرات الملتهمة فوقه. غمست المجاديف في مياه الخليج الباردة كي أنظفها، ثم أسندتها على «الكانوي» الراسي. كل شيء جاهز للذهاب. كل شيء جاهز لليلي.

هناك في البلدة؛ هناك في ملعب البيسبول خلف المدرسة، جلست على دكَّة القارب المتهالك، وانتظرت. أعرف أن والد ليلي يوصلها عادة إلى نقطة قريبة من هذه النقطة، قبل مضيّه إلى عمله في مركز خدمة الغابة. إذا كان لها أن تأتي إلى المدرسة، إذا كان لها أن تأتي إطلاقًا؛ فأنا تقصدّت أن أسبقها في الطريق إلى الباب. لدي شيء أريد أن أعطيه لها، وأريد أن أعطيه لها في الـ«كانوي». كانت فكرتي هي أن أخبرها بأني تلقيت رسالة في البريد من السيد غريرسون. وإذا لم تصدّقْ ذلك، فسأشرح لها مدى قربنا أنا والسيد غريرسون من بعضنا - أقرب مما كان يبدو - بسبب مسابقة «أوديسة التاريخ». كتبت الرسالة بنفسي الليلة الفائتة. اختلست زجاجة بيرة من الزريبة، وقلم حبر جيدًا من الأدوات التي تخبئها أمي تحت المغسلة.

جلست في عليّتي وشبكت رجليّ على بعضهما، بعد نوم والديّ. كتبت على أوراق صفراء مسطَّرة في دفتر، وبعناية، خططت الكلمات بحروف كبيرة.

كان كافيًا أن أتذكر بترا جاثية أمام ليو في الفندق كي أحصل على الصورة التي أحتاجها في رأسي. بعد ذلك، جاءت الكلمات بسهولة.

كان معي تلك الرسالة الموجهة إلى ليلي، في مظروف مغلق. أردت أخذها إلى مكان لا تستطيع الإفلات منه، ومراقبتها أثناء قراءتها الرسالة. كان الـ«كانوي» في بحيرة «غوون» مناسبًا تمامًا، لكن إن أثار ذلك ريبة ليلي، فسيحدث ذلك في الغابة خلف محطة الوقود، حيث تحتفظ «كاترينا» بجلود الغزلان والفؤوس، في دلاء. أو يمكنني فعل ذلك هنا في المدرسة، إذا لم تذهب معي إلى البحيرة؛ هنا على العشب القاسي تحت أنظار لاعبي الهوكي. بإمكانهم أن يراقبوا، إذا أرادوا. في نهاية المطاف، لا يهمني ذلك. في نقطة ما بين البيت والمدرسة، صرت غاضبة. في نقطة ما بين أغسطس وسبتمبر، أحسست بتنميل في رقبتي وفروة رأسي، وضيق في صدري لم يعد يفارقني تقريبًا. لم أعد أستطيع تحمُّل المشي في شارع «ماين»، حتى لشراء بكرة خيوط الصيد من مخزن «بوب»؛ لأن فيه البنك الذي وضعت فيه النقود التي حصلت عليها كجليسة أطفال. لم يعد بإمكاني المرور بالمدرسة الإعداديَّة أو حتى «مركز الطبيعة لخدمة الغابات» الذي اعتاد أن يكون مكاني المفضل في العالم. لم يكن باستطاعتي الذهاب إلى أي مكان، أو أن أكون أي شخص. كنت أرتجف أثناء انتظاري في ملعب البيسبول. كنت آمل أن تأتي ليلي قبل أن يُقرع جرس الدخول الأخير. رأيت شاحنة أبيها الصغيرة، بعد بضع دقائق من مغادرة آخر الحافلات . أتَمَّ نصف دورة صغيرة بموازاة الرصيف، فتزحزحت قليلًا حزمة الأخشاب الصغيرة والمبرّدَة المفتوحة، المحمَّلة عليها. وقفت، وبيد مرتجفة أخرجت الرسالة من جيبي. مع رؤية تلك الشاحنة قادمة فيما كنت غير واثقة من قدومها إطلاقًا - مع رؤية ليلي تفتح الباب عند مقعد الراكب - صار أمرًا محتومًا كل شيء آخر ربما أفعله لها.

الآن، غدا الأمر ببساطة أن الأشياء ستجري من تلقائها. الآن، بطريقة أو بأخرى، سترى أن ذلك الذي قالته ليس لعبًا، وأنك لا تستطيع فعل ما تريد لشخص آخر، وتنجو من تبعات ذلك.

عندما نَزَلَت من الشاحنة، رأيت أن شعرها رطب. كان يتأرجح في حبال مجدولة على جانبي رأسها، وأنها غير متوازنة بغرابة. توجَّب عليها إمساك الباب بكلتا يديها أثناء نزولها، ولثانية مرَّ ببالي القول «**أوه، إنها سكرانة**»؛ لكن حينها رأيت أن بطنها كبير جدًّا، بل لم تغَطِّه تمامًا سترتها الخارجية. كبير جدًّا، أمكنني تقريبًا أن أرى الطفل الذي في داخلها عندما سقطت أشعة الشمس على جلدها: هيكل لكائن ضئيل ومريب؛ أقسم على ذلك... لكن، لا، لم يكن سوى أوردة وتشعُّبات من خطوط بنفسجية تغطَّت مرة ثانية عندما شدَّت قميصها إلى الأسفل.

لم أتقدم وأنادِ اسمها. لم أقترب بسبب ذلك البطن، ولأنني رأيت - عندما اقتربت متمايلة مني - أنها كانت ترتدي جزمة جلد الغزال السوداء التي تركتها لها عند باب منزلها قبل ثلاثة أشهر. كانت ترتدي جزمتي التي تلتمع بلون برقوقي في شمس الصباح. اكتفيت بتحيتها بإيماءة رأس، عندما مرَّت، عندما ضيَّقت عينيها ونظرت باتجاهي، ثم نقلتها إلى شيء آخر. الباب. صار بإمكان لاعبي الهوكي بقبعاتهم البيضاء عند السياج الحجري، أن يروها الآن، بل صاروا يحدقون بها. المدرسة. الصف العاشر.

عزيزتي ليلي،

رغبت منذ وقت طويل أن أكتبَ رسالة لك. جعلت ماتي تنقلها إليك لأن الآخرين كلهم يراقبونك بشأن وصول رسالة مني، فيما لا يراقبها أحد. ما أحتاج أن أخبرك إياه هو أنني لا أستطيع التوقُّف عما قلته الربيع الماضي. فكَّرت في هواماتك بشأن بحيرة «غوون» طوال الوقت، كل يوم، كل دقيقة. أفكر بذلك كثيرًا إلى حد أن كل شيء غدا واضحًا لي الآن، كأنه شيء حصل فعليًّا.

كأنه شيء فعلناه حقًّا. هل قصدت ذلك؟ أظن أنك ربما فعلتِ. أفكر في الإحساس بشفتيك على جلدي في القارب. أفكر في الإحساس بكل ما فعلناه، وبعدها في نظرتك الحلوة المندهشة عندما انتهينا. هل تتخيَّلين العمق الذي ذهب إليه ذلك، مدى الحلاوة فيه. هل تحسين بذلك كله أيتها المنحرفة اللعينة؟

وحتى الآن - في اللحظات الملتبسة قبل النوم - أفكر أحيانًا بما كانت الأمور لتكون عليه في ذلك اليوم، لو أخذت ليلي إلى بحيرة «غوون» في قارب الـ«كانوي». أفكر في ذلك عندما لا يجدي كل شيء آخر، عندما لا أجد طريقة لأدفع عني ذلك الإحساس المكين بالسكون في غرفتي الصغيرة في الكوخ المُرَمَّم. في ذهني، أجري طقوس التحضير بطريقة ممنهجة، أتجنب الأحاسيس كلها، أُسخّن القهوة على المدفأة، وأملأ «التيرموس» بالقهوة صباحًا، وأضعه في حقيبة ظهري؛ وأنصب فخًّا لـليلي بعد أن يوصلها أبوها، في باحة المدرسة. أقول لها:

- لنتغيَّب عن الصف، هذه المرَّة.

أقول لها:

- لندخن، لنلتقط بعض أسماك الـ«كرابي»، موافقة؟

في حلمي بها، تكون مترددة، لكن بعد ذلك، كأنما هو السحر، نكون على القارب عند المركز اللامع لبحيرة «غوون». تهزهز الأمواج القارب، يكون الوقت عند بداية الربيع بعد الفجر بساعتين، وشعر ليلي ينسدل في جدائل على ظهرها. تصطك أسنانها، وشفتاها بيضاوان، ولا ترتدي سوى واحدة من ملابس فتيات التحميس؛ بلا جاكيت ولا قفازات. أرى البرد يطوي كتفيها الرقيقين إلى الداخل. لكني لا أستطيع أن أحس به. لا برد، لا ريح. لا أشعر بشيء. عندما تستدير كي تنفض رماد سيجارتها التي أشعلتها أنا لها، أندفع وآخذ المجذاف منها.

تكون نظرتها مرتبكة، لذا أقول لها بهدوء:

- تعرفين ما يحصل تاليًا.

ثم أزحف من مؤخرة القارب نحوها. أحسُّ بالقارب كأن جسدي بأكمله صار تحتي، ويهتزُّ ذلك الشيء جيئة وذهابًا، مرتعدًا ومطيحًا بتوازننا كلينا. أقول لها عندما اقترب منها، بحذر بل ربما بشيطنة، لكن أيضًا بمواساة حنونة:

- مجرد قبلة.

يشبه الأمر كثيرًا أن يكون بركة، بإعطائها ذلك. يكاد الغضب في داخلي يسيطر عليّ:

- ذلك ما رغبت به، أليس كذلك؟ مجرد قبلة.

بعدها، يأتي هذا. وحتى الآن، حينما تتحرَّك تلك الكلمات في عقلي، كلعنة أو رغبة، **أغدو** أنا ليلي. يحدث الأمر على ذلك النحو تمامًا. يتوجَّب عليَّ المرور بالتحضيرات كلها للوصول إليه: يجب أن أسخّن القهوة، أملأ «التيرموس»، أُنظّف بأكمامي مقاعد «الكانوي» المبتلة. يتوجَّب عليَّ التجذيف عبر مياه رجراجة لوقت طويل، وأن أفعل ذلك بصمت، وأن أدع ليلي تصعد إلى مقدمة القارب بصمت. يتوجَّب عليَّ أن أكون صبورة. يتوجَّب عليَّ إتمام الخطوات كلها. لكن، حينما يصير الشاطئ أفقًا واسعًا حولنا، حينما آخذ مجدافها، وأرى نظرة التقدير على وجهها، أرى أني **أنا** هي المتمددة في القارب، أنا التي ترتعش من البرد، أُحِسُّ بكل شيء، وأنا المطلوبة أكثر من أي شخص آخر.

شكر وامتنان

أمحض امتناني الأعمق إلى «إيمي بِندر» التي قرأت هذه الرواية في نسخها الأولى، بكرم وبصيرة نافذة. أنا ممتنة جدًّا لـ«إليزابيث شميتز» لمساندتها الكتاب وإيصاله إلى النشر. لقد بذل أشخاص عديدون في دار نشر «غروف آتلانتك» قصارى جهدهم واهتمامهم: أشكركم يا «جوليا برنر- توبين»، «باولا كوبر هيوز»، «كريستِن غيبيتوفسكي»، «جودي هوتنسن»، «غريتشن مرغنتالر»، «كايتي رايسيان»، «دِب سيغر»، شِن- يي لاي»، وكل شخص آخر ساعد على ظهور هذا الكتاب إلى العالم. أقدم شكري الجزيل لوكيلتي «نيكول عراجي» التي تجاوبت مع هذه الرواية بحماسة فاقت توقعاتي، وكذلك «دوفال أوستِن» الذي حرص على ضبط الأشياء كلها، من خلف الستارة. شكرًا لك أيضًا، يا مجلة «ساوث ويست ريفيو» على نشر الفصل الأول في 2013، وتكريم الرواية بمنحها «جائزة «ماك غينس- ريتشي للأعمال الأدبية». شكر خاص إلى صندوق «باربارة ديمنغ ميموريـال فَند» لإدراكها قيمة مساندة المشاريع النسويَّة. كذلك أشكر «ت. س. بويل» وتلامذة ورشته في جامعة «ساوث كارولاينا» الذين كانوا القراء الأُوَل لما غدا الفصل الافتتاحي في هذه الرواية.

أقدم تقديري القلبي لكل الأساتذة الذين منحوني عبر السنوات كلها نماذج راقية في التفكير والكتابة، خصوصًا «بيل هاندلي» و«نتانيا ميكر» من جامعة «نورث كارولاينا»، و«مارشال كليمازفسكي» و«كيللي ويلز» في جامعة «واشنطن» في «سان لويس». خالص شكري إلى المؤسستين السابقتي الذكر، لدعمهما المالي، وكذلك تمكيني من الوصول إلى مجتمعات رائعة مكنتني من

النضوج ككاتبة. سأكون ممتنة بعمق ودومًا للزملاء وللأصدقاء في مجتمعات الكتابة تلك، وهم الذين حرّكوا نقاشات مؤثرة عن الكتب. على مستوى أكثر عملية، شكرًا لك يا «جانالين بليس» من جامعة «نورث كارولاينا» على طباعة مجموعة فصول من هذه الرواية، عندما لم أعد موجودة في حرم الجامعة. وفي وقت أكثر قربًا، أُدين بالشكر إلى جامعة «كورنيل» على توفيرها تعليمًا منزليًا أثناء مراجعتي «**تاريخ الذئاب**».

أريد أن أعترف بالفضل أيضًا لبعض الكتب التي أوحَت إليَّ بكتابة هذه الرواية. في الفصل الأول، تقتبس ليندا من رواية «بيري لوبيز» المعنونة «**عن الذئاب والرجال**». وجاء الاقتباس من النص التالي: «لكن المصطلح «**آلفا**» - الذي طُوّر لوصف حيوانات في الأسر - يبقى مُضلّلًا، إذ لا تتصدر حيوانات «آلفا» عملية المطاردة، ولا تترك أثرًا على الثلج، أو تأكل قبل الأخريات. لا يعطى حيوان ما صفة «آلفا» إلا في أوقات معينة، ولأسباب محدَّدة، وكذلك يجب ملاحظة أنها توصف بـ«آلفا» مراعاة للذئاب الأخرى في المجموعة». في الفصل الثامن، هناك إشارة إلى كتاب «**في بلاد الكائنات البرية**» من تأليف «موريس سِنداك». أدين إلى مراجع متنوعة بالمعلومات عن النبات والحيوانات والحياة في شمال «مينيسوتا»؛ ويبرز بينها عملان هما: «**غناء البريَّة**» من تأليف «سيغورد أولسون»، و«**سنوات الغابة**» للكاتبة «هيلين هوفر». كما أنني ممتنة لوجود كتاب «كارولين فرايزر» الممتاز والمروّع «**طفل الله تمامًا: الحياة والموت في «كنيسة المسيح العالِم»**»، وكذلك كتاب «بربارة ويلسون» المعنون «**نوافذ زرقاء: طفولة في «العلم المسيحي»**»، وكتاب «لوتشيا غرينهاوس» المعنون «**أب- أم الرب: رحلتي للخروج من «العلم المسيحي»**». يجب أن يقال إن قضية بول هي تركيب خيالي من قصص مماثلة في أنحاء البلاد، ولا تحكي عن طفل بعينه ولا خصوصيات قضية قانونية في مكان وزمان فعليين. يقدم كتاب «كارولين فرايزر» سجلًا قويًا متميزًا عن أطفال وعائلات «العِلم المسيحي» - وضمنها تفاصيل تأريخات دينية وقانونية واجتماعية - لمن يهتمون بأمرها.

أنا ممتنة إلى «شارون أوستفلد - جونز» لتقديمها النصيحة الطبية عما ورد في المخطوطة، ولفتها انتباهي إلى موقع «أب تو ديت»، وهو مصدر مجاز من قبل أطباء، وتعرَّفت منه على بعض أعراض «التحمُّض السكري الكيتوني»، و«وَذَمَة الدماغ».

تدين هذه الرواية بالفضل الكبير لكل الأوقات التي قضيتها في الغابة: شكرًا لكما يا والديّ على إرث من شغفٍ مَسْكونٍ بالغابات (وهو تعبير مقتبس مع التعديل، من «فيرجينيا وولف»)؛ وأشكرك أيتها المؤسَّسات التي استقبلتني وأطعمتني خلال رحلتي في صيف 2012، إلى ولاية «مينيسوتا» الشمالية. إضافة إلى ذلك، ورغم أن عِرق الامتنان يسير بأعمق مما يمكنني التعبير عنه بسهولة، أقدم شكري لكل أولئك الذين كانوا ودودين معي عندما كنت صغيرة جدًّا في «برنكيبيا كولدج».

أخيرًا، أنا ممتنة إلى عائلتي التي بقيت معي طوال السنوات، لصبرهم وقلوبهم المفتوحة عند كل منعطف بارز في مساري الشخصي. وبأقصى التواضع، أقدم شكري إلى «نِك آدموسن» الذي آمن بأهمية هذا المشروع منذ البداية، واعتنى بي طوال العمل عليه. أهدي هذه الرواية إليه.

نعلم من الصفحات الأولى أن شيئًا مريعًا حدث، أو يستمرُّ في الحدوث. ستكون هناك محاكمة، متَّهمون، وطفل يعاني وهو يحتضر، وإحساس بالذنب سيجتاحنا، لأن إنقاذ روح بريئة سقط في غفلة منَّا، في شرك وهم عقائدي.

تحكي الكاتبة كل هذا على لسان مادلين، المثيرة للريبة والقلق بدورها، فهي تصارع في العبور من المراهَقة إلى الرشد، ومن الغابة المنعزلة إلى المدن العابثة. تلك المنبوذة من زملائها، الطريدة الهائمة حول "مِلكيَّة" أستاذ متحرِّش، الابنة التائقة إلى الفرار من أسرة هشَّة، قد لا تحظى بفرصة واحدة للنجاة. فتاة من أقاصي الشمال الأمريكي مفتونة بالذئاب، تدَّعي أنها تعرف كل شيء عنها، وأنها تكاد تمتلك تاريخها، بينما يضيع تاريخ أسلافها، هناك عميقًا تحت طبقات جليد بحيرة "ستِل ليك" في مينيسوتا.



نشأت إميلي فردلُند في ولاية مينيسوتا، وتُقيم حاليًا في نيويورك. نالت دكتوراة في الأدب والكتابة الإبداعية من جامعة جنوب كاليفورنيا. وصلت مجموعتها القصصية "كاتابولت" إلى القائمة القصيرة لجائزة "ناوومي للكتاب"، وجائزة "تارتس" لأول عمل أدبي، وفازت بجائزة "ماري مكارثي". نالت رواية "تاريخ الذئاب" العديد من الجوائز والتكريمات، أهمها وصولها للقائمة القصيرة جائزة مان بوكر البريطانية ٢٠١٧، والقائمة النهائية لجائزة "Midwest Booksellers Choice" للعام نفسه.


www.hbkupress.com
ISBN: 978-9927129568


دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS